كتاب الأغاني

تأليف

أبي الفرج الأصفهاني

المجلد العاشر

القسم ٣٧ - ٤٠

الناشر

دار الثقافة

بيروت

١٩٥٧

كتاب

الأغاني

تأليف

أبي الفرج الأصفهاني

المجلد العاشر

الناشر

دار الثقافة

بيروت

١٩٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد العاشر

من كتاب الاغاني

أخبار دريد بن الصمة ونسبه

هو دُرَيد بن الصِّمَّة . واسم الصِّمَّة، فيما ذكر أبو عمرو، معاويةُ الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر بن بكر بن عَلَقة، وقيل عَلقمة، بن خُزاعة بن غزيَّة ابن جُشَم بن معاوية بن بَكر بن هَوازِن. وأما أبو عُبيدة فقال: هو دُرَيد بن الصمَّة، واسمه معاوية بن الحارث بن بكر بن عَلَقة ولم يذكر معاوية. وقال ابن سلَّام: الحارث بن معاوية بن بكر بن عَلَقة.

ودريد بن الصِّمَّة فارسٌ شجاع شاعر فحل، وجعله محمد بن سلَّام اول شعراء الفرسان. وقد كان أطولَ الفرسان الشعراء غَزواً، وأبعدَهم أثراً، وأكثرهم ظَفَراً، وأيمَنَهم نقيبةً عند العرب، وأشعرهم دريد بن الصِّمَّة.

وقال أبو عبيدة: كان دريد بن الصمَّة سيِّدَ بني جُشَم وفارسهم وقائدهم، وكان مظفَّراً ميمون النقيبة، وغزا نحوَ مائة غَزاةٍ ما أخفق في واحدة منها، وأدركَ الإسلام فلم يُسلِم، وخرج مع قومه في يوم حُنَين مُظاهِراً للمشركين، ولا

فضلَ فيه للحرب، وإنما أخرجوه تيمُّناً به وليقتبسوا من رأيه، فمنعهم مالـكُ بن عَوف من قبول مَشورته، وخالفه لئلا يكون له ذكر، فقُتل دُريد يومئذٍ على شِركه. وخبرُه يأتي بعد هذا.

إخوته:

وكان لدريد إخوةٌ وهم عبد الله الذي قتلتْه غَطَفانُ، وعبدُ يغُوثَ قتـله بنو مُرَّة، وقيسٌ قتله بنو أبي بكر بن كِلَاب، وخالدٌ قتـله بنو الحارث بن كَعب، أمُّهم جميعاً رَيحانةُ بنت مَعْدِ يكربَ الزبيديّ أخت عمرو بن معد يكرب كان الصِّمَّة سباها ثم تزوّجها فأولدها بنيه. وإياها يعني أخوها عمرو بقوله في شعره:

أمِن رَيحانةَ الدّاعي السميعُ   يؤرّقني وأصحابي هُجـوعُ
إذا لم تَستطع شيئاً فدَعه   وجاوِزه الى مـا تستطيع

ابنه وبنته شاعران:

وكان لدُرَيد ابنٌ يقال له سَلَمةُ، وكان شاعراً وهو الذي رمى أبا عامر الأشعريّ بسهم فأصاب ركبته فقتله وارتجز فقال:

إن تَسألوا عنّي فإني سَلَمهْ   إبنُ سَمادِيرَ[١] لمن توسَّمـهْ
أضرِب بالسيف رؤوسَ المُسلِمهْ

وكانت لدُريد أيضاً بنتٌ يقال لها عَمرةُ وكانت شاعرة، ولها فيه مَراثٍ كثيرة.

أخبرني بخبره هاشم بن محمد الخزاعيّ قـال: حدثنا أبو غسان دماذ عن أبي

(١) سمادير اسم أم سلمة امرأة دريد بن الصمة.

ُعبيدة وأخبرني به محمد بن الحسن بن دُرَيد عن أبي حاتم عن أبي عُبيدة، وأخبرني بأخبار له مجموعةٍ ومتفرّقةٍ جماعةٌ من شيوخنا أذكرهم في مواضعهم، وأخبرني ايضاً بخبره محمد بن خَلَف بن المَرزُبان عن صالح بن محمد عن أبي عمرو الشيبانيّ وقد بَيَّنْتُ رواية كل واحد منهم في موضعها، قال أبو عُبيدة سمعت أبا عمرو بن العَلاء يقول : أحسنُ شعرٍ قيل في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِمَّة حيث يقول :

تقول ألا تبكي أخاك ! وقد أرى ... مكان البكا لكن بُنِيتُ على الصبرِ
لمقتلِ عبدِ الله والهالكِ الذي ... على الشرف الأعلى قتيلِ أبي بكر
وعبدِ يَغوث أو خليليَ خالدٍ ... وعَزَّ مُصاباً حَثوُ قبرٍ على قبر
أبى القتلَ إلا آلُ صِمَّةَ إنهم ... أَبَوْا غيره والقدرُ يجري الى القدر
فإمّا تَرَينا ما تَزال دماؤنا ... لدى واترٍ يَشقى بها آخرَ الدهر
فإنّا لَلَحمُ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ ... ونَلحمُه حيناً وليس بذي نُكر
يُغار علينا واترين فيُشتفى ... بنا إن أُصِبنا، أو نُغير على وِتر
بذاك قَسَمنا الدهر شَطرين قِسمةً ... فما ينقضي إلا ونحن على شَطر

وأخبرني ابن عمّار قال : حدثني يعقوب بن إسرائيل قال حدثني محمد بن القاسم الأسديّ عن صاعِدٍ مولى الكُميت بن زيد يقول : أحسنُ شعرٍ قيل في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِمّة، وذكر هذه الأبيات .

قال أبو عُبيدة : فأما عبد الله بن الصمّة فإن السبب في مقتله أنه كان غزا غطفان ومعه بنو جُشمَ وبنو نَصرِ أبناء معاوية فظفِر بهم وساق أموالهم في يوم يقال له يوم اللِّوى ومضى بها . ولما كان منهم غيرَ بعيد قال : انزلوا بنا ، فقال له أخوه دُريد : يا أبا فُرعان — وكانت لعبد الله ثلاثُ كُنًى : أبو فُرعان ، وأبو ذُفافة، وأبو أوفى، وكلّها قد ذكرها دُريد في شعره — : نَشدتُك الله ألّا تنزل فإنّ

غطَفَانَ ليست بغافلةٍ عن أموالها، فأقسم لا يَريمُ حتى يأخذ مِرباعه[١] وينقع نقيعه، فيأكلَ ويُطعِمَ ويَقسِمَ البقيَّةَ بين أصحابه، فبينا هم في ذلك وقد سطعت الدواخن، إذا بغُبارٍ قد ارتفع أشدَّ من دُخانهم، وإذا عَبْسٌ وفَزارةُ وأشجعُ قد أقبلت. فقالوا لرَبيئتهم[٢]: انظر ماذا ترى؟ فقال أرى قوماً جِعاداً كأن سرابيلهم قد غُمِست في الجاديّ[٣] قال: تلك أشجعُ، ليست بشيء. ثم نظر فقال: أرى قوماً كأنهم الصِّبيان، أسنّتهم عند آذانِ خيلهم. قال: تلك فَزارةُ. ثم نظر فقال: أرى قوماً أدماناً[٤] كأنما يحملون الجبلَ بسوادهم، يخدُّون[٥] الأرضَ بأقدامهم خَدّاً، ويجرّون رماحهم جرّاً، قال: تلك عَبسٌ والموتُ معهم! فتلاحقوا بالمنعرَج من رُمَيلةِ اللِّوى فاقتتلوا فقتل رجلٌ من بني قاربٍ وهم من بني عَبس عبدَ الله بن الصِّمّة فتنادَوْا: قُتِل أبو دُفافة! فعطف دُريد فذبَّ عنه فلم يُغنِ شيئاً وجُرِح دُريد فسقط فكفّوا عنه وهم يرون أنه قُتِل، واستنقذوا المالَ ونجا مَن هرب. فمرّ الزهدمانِ وهما من بني عبس، وهما زَهدَمٌ وقيسٌ ابنا حَزن بن وهب بن رواحة وإنما قيل لهم الزَّهدَمان تغليباً لأشهر الاسمين عليهما، كما قيل العُمران لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والقمران للشمس والقمر. قال دريد: فسمعتُ زَهدَماً العبسيّ يقول لكَردَم الفَزاريّ إني لأحسب دُريداً حياً فانزل فأجهز عليه، قال:

---

(١) المرباع بكسر أوله: ربع الغنيمة، وهو حظ الرئيس في الجاهلية.

(٢) الربيئة: الطليعة.

(٣) الجاديّ: الزعفران.

(٤) الأدمان: جمع آدم على مثال سودان وحمران. والآدم من الناس: الأسمر.

(٥) يخدّون: يشقون.

قد ماتَ، قال: انزل فانظر الى سُبَّتِه[١] هل تَرَمَّزُ؟ قال دريد: فسددتُ من حِتارِها[٢] أي من مَشْرَجِها، قال فنظر فقال: هيهات، أي قد مات، فولى عني، قال ومال بالزُّجِّ في مَشْرَجِ دُرَيد فطعنه فيه فسال دمٌ كان قد احتقن في جوفه، قال دُرَيد فعرفت الخِفَّةَ حينئذٍ فأمهلتُ، حتى اذا كان الليلُ مشيتُ وأنا ضعيف قد نَزَفني الدَّمُ حتى ما أكاد أبصِر، فجُزتُ بجماعةٍ تَسير فدخلتُ فيهم، فوقعتُ بين عُرقُوَيْ بعيرٍ ظَعينة، فنفَر البعيرُ فنادت: نعوذ بالله منك، فانتسبتُ لها فأعلَمتِ الحيَّ بمكاني، فغُسل عني الدم وزُوِّدتُ زاداً وسقاء فنجوتُ، وزعم بعض الغطفانيّين أن المرأة كانت فَزاريّة وأنّ الحيَّ كانوا علِموا بمكانه فتركوه فداوته المرأةُ حتى برأ ولحِق بقومه، قال: ثم حجّ كَرْدَم بعد ذلك في نفرٍ من بني عَبس، فلما قاربوا ديارَ دريد تنكّروا خوفاً، ومرّ بهم فأنكرهم، فجعل يمشي فيهم ويسألهم من هم؟ فقال له كَردم: عمّن تسأل؟ فدفعه دُرَيد، وقال: أمّا عنك وعمّن معك فلا أسأل أبداً، وعانقه، وأهدى اليه فرساً وسلاحاً، وقال له: هذا بما فعلتَ بي يوم اللِّوى.

وقال دريد يرثي أخاه عبد الله:

أرثَّ جديدُ الحبلِ من أمِّ معبدِ ... بعاقبةٍ وأخلفتْ كلَّ موعدِ
وبانت ولم أحمد اليك جِوارها ... ولم تَرجُ منّا رِدّة اليوم أو غدِ

وهي طويلة وفيها يقول:

أعاذِلَتي كلُّ امرئٍ وابنُ أمِّه ... متاعٌ كزاد الراكب المتزوِّدِ
أعاذل إن الرُّزء أمثالُ خالدٍ ... ولا رُزءَ مما أهلكَ المرءُ عن يدِ

(١) السبة بالضم: الاست. وترمز (بحذف إحدى تاءيها): تضطرب وتتحرك.

(٢) الحتار بالكسر: ما أحاط بالشيء كحتار الغربال والمنخل.

نصحتُ لعارضٍ وأصحاب عارض ورَهطِ بني السوداء[١] والقومُ شُهَّدي

فقلتُ لهم ظُنُّوا[٢] بألفَي مدجّج سَراتُهمُ في الفارسيّ المُسرَّد

أمرتُهمُ أمري بمُنعرَج اللِوى فلم يَستبينوا الرُشدَ إلّا ضُحى الغد

فلما عَصَوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتَهم وأنني غير مهتد

وهل أنا إلّا من غَزيّة[٣] إن غوت غويتُ، وإن ترشُد غَزيّةُ أرشُد

دعاني أخي والخيلُ بيني وبينه فلما دعاني لم يجدني بقُعدُدُ[٤]

تنادَوْا فقالوا أردتِ الخيلُ فارساً فقلت أعبدُ الله ذلكمُ الرَّدي

فإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانَه فلم يكُ وقّافاً ولا طائشَ اليد

ولا بَرِماً[٥] إذا الرياحُ تناوحت برَطبِ العِضاهِ والهشيمِ المعضَّد

نظرتُ إليه والرِّماح تنوشُه[٦] كوَقع الصَّياصي في النَّسيج المُمدَّد

فطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تبدَّدت وحتى عَلاني أشقر اللون مُزبد

فما رِمتُ حتى خرَّقتني رماحُهم وغُودِرتُ أكبو في القنا المتقصِّد[٧]

قتال امرئٍ واسى أخاه بنفسه وأيقن أنّ المرء غيرُ مخلَّد

صبور على وقع المصائب حافظ من اليوم أعقابَ الأحاديث في غد

---

(١) رهط بني السوداء يعني بهم اصحاب أخيه عبد الله .

(٢) ظنوا أي ايقنوا او معناه ما ظنكم بألفين من الاعداء راصدين لكم يرقبونكم. والمدجج : التام السلاح . وسراتهم : أشرافهم وسادتهم .

(٣) غزية : قبيلة من هوازن .

(٤) القعدد كقنفذ : الجبان اللئيم القاعد عن المكارم .

(٥) البرم : الضجر . والعضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والهشيم : النبت اليابس المتكسر . والمعضد : المقطع بالمعضد .

(٦) تنوشه : تتناوله . والصياصي : جمع صيصية وهي شوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة .

(٧) المتقصد : المتكسر .

في بعض هذه الأبيات غناء وهو :

صوت

تمثل عليّ عليه السلام بشعره :

أمرتُهمُ أمري بمنعَرَجِ اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشدَ إلا ضُحى الغدِ
فلما عصَوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتَهم وأنني غير مهتدِ
وهل أنا إلّا من غَزيّةَ إن غوَت غويتُ وإن تَرشُد غزيّةُ أرشُد

الغناء ليحيى المكيّ ثاني ثقيلٍ بالسبّابة في مجرى البنصر من رواية ابنه أحمد، وذكره إسحاق في هذه الطريقة ولم ينسُبه الى أحمد . وهذه الأبيات تمثّل بها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عند مُنصرَفه من صِفّين .

حدثني أحمد بن عيسى بن أبي موسى العِجليّ قال حدثنا حسين بن نصر بن مُزاحِم قال حدثنا عمر بن سعيد عن أبي مِخنَف عن رجاله أن علياً عليه السلام لمّا اختلفتْ كلمةُ أصحابه في أمر الحكَمين وتفرّقت الخوارج وقالوا له ارجع عن أمر الحكَمين وتُب واعترف بأنك كفرتَ إذ حكّمتَ، ولم يَقبل ذلك منهم، وخالفوه وفارقوه تمثّل بقول دريد :

أمرتُهمُ أمري بمُنعرَج اللِّوى فلم يَستبينوا الرُّشدَ إلا ضُحى الغدِ

الأبيات :

قال أبو عُبيدة : كانت لعبد الله بن الصِّمّة ثلاثةُ أسماء وثلاثُ كُنًى : عبد الله ومعبد وخالد . ويكنى أبا ذُفافةَ وأبا فُرعانَ وأبا أوفى .

وقال دُريد :

أَبا ذُفافةَ مَن للخيلِ إذ طُرِدتْ فاضطرَّها الطعنُ في وَعثٍ(١) وإيجافِ
يا فارسَ الخيلِ في الهيجاءِ إذ شُغِلتْ كلتا اليدين دَروراً غيرَ وَقّافِ

أَخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبي عُبيدة عن يونس أنه كان يقول: أفضلُ بيت قالته العرب في الصبر على النوائب قولُ دريد ابن الصِمَّة:

قليلُ التَشكّي للمُصيباتِ حافظٌ من اليوم أعقابَ الأَحاديثِ في غدِ

عاتبته زوجته أم معبد على بكائه أخاه فطلقها:

أَخبرني الحرميّ بن أبي العلاء، عن الزبير عن أبي المُهاجر، وذكر مثله أبو عمرو الشيبانيّ، أنّ أمّ مَعبد التي ذكرها دريد في شعره هذا كانت امرأته فطلّقها، لأنها رأته شديدَ الجزَع على أخيه، فعاتبته على ذلك وصغَّرتْ شأن أخيه وسبّته، فطلّقها وقال فيها:

أَرثَّ جديدُ الحبل من أم مَعبدِ بعاقِبةٍ وأخلفت كلَّ موعدِ
وبانت ولم أحمد اليكَ جِوارَها ولم ترجُ منا رِدّةَ اليوم أو غدِ

فقالت له أمُّ مَعبد: بئسَ واللهِ ما أثنيتَ عليّ يا أبا قُرّة! لقد أطعمتُك مأدومي، وبَثثتُك مكتومي، وأتيتُك باهلاً(٢) غيرَ ذاتِ صِرار وما استفرَمتُ(٣) قبلك إلا من حَيض.

(١) الوعث: الطريق الخشن الغليظ العسر. والايجاف: سرعة السير.

(٢) الباهل في الاصل: الناقة لا صرار عليها، تريد أنها أباحته نفسها.

(٣) واستفرمت المرأة: تضيقت بالفرم (بفتح أوله واسكان ثانيه) أي عالجت ذلك الموضع منها ليضيق ويستحصف، وربما تعالج بحب الزبيب ونحوه تضيق به متاعها.

وقال أبو عُبيدة في خبره : بلغ دريد بن الصمّة أن زوجته سبَّت أخاه فطلّقها وألحقها بأهلها وقال في ذلك :

أعبدَ الله إن سبَّتكَ عِرسي تقدَّم بعضُ لحمي قبل بعضِ
إذا عِرسُ امرئٍ شتمتْ أخاه فليس فؤاد شانئـه بحمض[١]
معاذَ اللهِ أن يشتُمنَ رهطي وأن يَملكن إبرامي ونَقضي

حارب غطفان يوم الغدير طلباً بثأر أخيه :

أخبرنا هاشم بن محمد قال حدثنا أبو غسّان دماذ عن أبي عُبيدة قال :

أغار دريد بن الصمّة بعد مقتل أخيه عبدِ الله على غطَفان يطالبهم بدمـه، فاستقراهم[٢] حياً حياً، وقتل من بني عبسٍ ساعدةَ بن مُرّ، وأسر ذُؤاب بن أسماء بن زيد بن قارِب، أسره مُرّةُ بن عَـوف الُجشميّ. فقالت بنو جُشم : لو فاديناه[٣] ! فأبى ذلك دريد عليهم، وقتله بأخيه عبد الله، وقتل من بني فَزارةَ رجلًا يقال له حِزام وإخوةً له، وأصاب جماعةً من بني مُرّة ومن بني ثَعلبة بن سعد ومن أحياء غَطَفان، وذلك في يوم الغدير . وفي هذا اليوم وفي مَن قُتِل فيه منهم يقول :

تأبّدَ[٤] من أهلِـه مَعشرُ فجَـوُّ سُويَقةَ فالأصفرُ
فجِزعُ[٥] الُحليفِ الى واسِطٍ فذلـك مَبدًى وذا مَحضر

(١) فؤاد حمض : فاسد متغير .

(٢) استقراهم : تتبعهم .

(٣) فاداه : أطلقه وقبل فديته . وفي القرآن الكريم (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) .

(٤) تأبد : أقفر .

(٥) الجزع : منعطف الوادي . والحليف وواسط : موضعان .

فأبلِـغ سُليمى وألفافَها[1] وقد يَعطِف النسبُ الأكبرُ
بأنّي ثأرتُ بإخوانكم وكنتُ كأنّي بهم مُخفِـر[2]
صَبحنا فَزارةَ سُمْرَ القنـا فمهـلًا فَزارةُ لا تَضجَروا
وأبلغ لديـك بني مازنٍ فكيف الوعيدُ ولم تَقرِروا
فإن تقتُلوا فِتيـةً أفردوا أصابهمُ الحَـينُ أو تَظفَروا
فإنّ حِزاماً لدى مَعـرَكٍ وإخوتَـه حولهم أنسُر
ويومَ يزيـد بني ناشِبٍ وقبـلُ يزيدُكمُ الأكبر
أثَرنا صَريـخَ بني ناشِبٍ ورَهطَ لَقيطٍ فلا تَفخَروا
تجـرّ الضِباعُ بأوصالهم ويَلقَحنَ منهم ولم يُقبَروا

ويقول في ذلك ايضاً دريد بن الصمّة في قصيدة له أخرى :

جَزَينا بني عَبسٍ جزاءً موفّـراً بمقتَل عبـد الله يومَ الذّنائبِ[3]
ولولا سوادُ الليل أدرَكَ رَكضُنا بذي الرِمثِ والأَرطى[4] عِياضَ بنَ ناشِب
قتلنا بعبد الله خيرَ لِداتِـه ذُؤابَ بن أسماءَ بنِ زيد بن قارب

قال أبو عبيدة : أُنشِد عبدُ الملك بن مروان شعر دريد بن الصمّة هذا فقال : كاد دريد أن ينسُبَ ذؤاب بنَ أسماء الى آدم . فلما بلغ المُنشِد قوله :

ولولا سوادُ الليـل أدرك رَكضُنا بذي الرِمثِ والأَرطى عِياضَ بنَ ناشِب

---

(١) ألفافها : قومها المجتمعون حولها .

(٢) أخفره : نقض عهده وغدره .

(٣) الذنائب يوم من أيام العرب المشهورة .

(٤) ذو الرمث : موضع . والرمث والأرطى نبتان .

قال عبد الملك : ليت الشمس كانت بقيتْ له قليلًا حتى يُدرِكَه .

قال أبو عبيدة وقال دريد أيضاً في هذه الوقعة :

قتلنا بعبد الله خيرَ لِداتِه وخيرَ شبابِ الناس لو ضُمَّ أجمعا
ذُؤابَ بنَ أسماء بن زيد بنِ قاربٍ منيَّتُه أجرى[1] اليها وأوضعا
فتى مثل متنِ السيف يهتزُّ للندى كعالية الرُّمح الرُّدَينيِّ أروعا

وقال ابن الكلبيّ : قالت رَيحانة بنت معدِ يكرِب لدُرَيد بن الصمّة بعد حولٍ من مَقتل أخيه : يا بنيَّ إن كنتَ عجزتَ عن طلب الثأر بأخيك فاستعِن بخالك وعشيرته من زُبيد، فأنِف من ذلك وحلَف لا يكتحِل ولا يدَّهن ولا يمَسُّ طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يُدرِكَ ثأرَه، فغزا هذه الغزاة وجاءها بذؤاب بن أسماء فقتله بفِنائها، وقال : هل بلغتُ ما في نفسك ؟! قالت : نعم مُتِعتُ بك ! ورُوي عن ابن الكلبيّ لرَيحانةَ في هذا المعنى أبياتٌ لم تحضُرني وقد كتبتُ خبرها .

أخوه قيس بن الصمة ومقتله :

وأما قتيل أبي بكرٍ الذي ذكره دريد فإنه أخوه قيس بن الصمّة، قتله بنو أبي بكر بن كِلاب . وكان السببُ في ذلك، فيما أخبرني به هاشم بن محمد عن دَماذ عن أبي عُبيدة، أنه غزا في قومه بني خُزاعة من بني جُشم، فأغاروا على إبلٍ لبني كعب بن أبي بكر بن كِلاب، فانطلقوا بها . وخرج بنو أبي بكر بن كِلاب في طلبها حتى اذا دنَوا منهم قال عمرو بن سُفيان الكِلابيّ، وكان حازماً عاقلاً، امكثوا، ومضى هو متنكِراً حتى لقيَ رجلًا من بني خُزاعةَ فسلَّم عليه

(١) أجرى اليها : قصد اليها .

وأستسقاه فسقاه وأنتسب له هلالياً، فسأله عن قومه وأين مرعى إبلهم، وأعلمه أنه جاء رائداً لقومه يريد مجاورتهم، فخبّره الرجل بكلّ ما أراد، فرجع الى قومه وقد عرف بُغيته، فصبح القومَ فظفِرتْ بهم بنو كِلاب، وقتلوا قيسَ بن الصمّة، وذهبوا بإبل بني خُزاعة وأرتجعوا إبلَهم. وكان يقال لعمرو بن سُفيانَ ذو السيفين، لأنه كان يَلقى الحربَ ومعه سيفان خوفاً من أن يخونه أحدُهما. وإياه عنى دريد ابن الصمّة بقوله:

إنّ أمرأً بات عمرٌو بين صِرمَتِه[1] ... عمرُو بن سُفيان ذو السيفين مغرورُ
يا آل سفيــانَ ما بالي وبالـكُمُ ... هل تنتهون وباقي القولِ مأثور؟
يا آلَ سُفيــانَ ما بالي وبالـكُمُ ... أنتم كبيرٌ وفي الأحلام عُصفور
هلّا نهيتم أخاكم عن سَفاهتــه ... إذ تشربون وغاوي الخمر مدحور؟
لا أعرِفنْ لِمَّــةً سَوداء داجيــةً ... تدعو كِلابا وفيها الرمحُ مكسور
لن تَسبِقوني ولو أمهلتُكم شَرَفاً ... عُقبى اذا أبطأ الفُحجُ[2] الخاصِير[3]

خبر الحرب بين بني عامر وبني جشم وبين أسد وغطفان:

وأخبرنا بخبر أبتداء هذه الحروب محمد بن العباس اليزيدي قال قرأت على أحمد ابن يحيي عن أبن الأعرابي قال:

أغارت بنو عامر بن صَعصعة وبنو جُشم بن معاوية على أسدٍ وغطفان، وكان

(١) الصرمة بكسر الصاد: القطيع من الأبل والغنم اختلف في عدده.

(٢) الفحج بضم الفاء وسكون الحاء: جمع أفحج او فحجاء، وهو تباعد ما بين أوساط الساقين من الرجل والدابة.

(٣) الخاصير: جمع مخصور وهو الذي يشتكي خصره.

دُريد بن الصمَّة وعمرو بن سفيان بن ذي اللِّحية مُتسانِدَين[1]، فدُرَيد على بني جُشم بن معاوية، وعمرو بن سفيان على بني عامر. فقال عبد الله بن الصمَّة لأخيه: إنّي غيرُ مُعطيكَ الرِّياسة، ولكنّ لي في هذا اليوم شأناً. ثم اشترك عبدُ الله وشَراحيلُ بن سفيان، فلما أغار القوم أخذ عبد الله من نَعَم بني أسدٍ سِتِّين وأصاب القومُ ما شاءوا. وأدرك رجل من بني جَذيمة عبدَ الله بنَ الصمَّة فقال له عبد الله ابن الصمَّة: ارجع فإني كنتُ شاركتُ شَراحيلَ بن سُفيان، فإن استطاع دريد فليأتِه وليأخذ مالي منه. وأقام دُرَيدٌ في اواخر الحيّ فقال له عمرو: ارتحِل بالناس قبل أن يأتيك الصُّراخ[2]، فقال: إني انتظر أخي عبدَ الله. حتى اذا أطال عليه قال له: إن أخاك قد أدرك فوارس من الحُلَيفيّين يسوقون بظُعنِهم فقتلوه. فانطلقوا حتى اذا كانوا بحيث يفترقون قال دريد لشراحيل: إن عبد الله أنبأني ولم يَكذِبني قطُّ أن له شَرِكةً مع شراحيل فأدُّوا الينا شَرِكتَه. فقالوا له: ما شاركناه قطّ. فقال دريد: ما أنا بتارككم حتى استحلِفَكم عند ذي الخَلَصة (وثنٍ من أوثانهم). فأجابوه الى ذلك وحلفوا، ثم جاء عبدُ الله بغنيمةٍ عظيمة فجاءوه يَنشدونه الشِركَ. فقال لهم دريد: ألم أحلِفكم حين ظننتم أن عبد الله قد قُتل. فقالوا: ما حلَفنا وجعلوا يُناشدون عبدَ الله أن يُعطيَهم، فقال: لا، حتى يرضى دريدٌ، فأبى أن يَرضى فتوعّدوه أن يَسرقوا إبلَه. فقال دريد في ذلك:

هل مثلُ قلبِك في الأهواء معذورُ ... والحبُّ بعد مَشيبِ المرء مغرورُ

وذكر الأبياتَ التي تقدّمتْ في الخبر قبل هذا وزاد فيها:

اذا غلَبتم صديقاً تَبطِشون به ... كما تهدَّم في الماء الجماهيرُ[3]

---

(١) التساند: التعاضد.

(٢) الصراخ: صوت الاستغاثة.

(٣) الجماهير: الرمال الكثيرة المتراكمة.

وأنتم مَعشرٌ في عِرقِكم شَنَجٌ[١] ... بُزخُ الظهورِ وفي الأستاهِ تأخيرُ
قد علِم القومُ أنّي من سَراتهمُ ... اذا تقبَّض في البطن المذاكيرُ
وقد أرُوعُ سَوامَ القوم ضاحيةً ... بالجردِ يَركُضُها الشُّعثُ المغاويرُ[٢]
يَحمِلن كلَّ هِجانٍ[٣] صارمٍ ذكَرٍ ... وتحتهم شُزَّبٌ[٤] قُبٌّ مَضاميرُ
أوعَدتُمُ إبلي كلّا سيمنعُها ... بنو غَزيَّةَ لا مِيلٌ ولا صُورُ[٥]

وأما عبد يَغوثَ بن الصمّة وخبرُ مقتله فإنه كان ينزل بين أظهُر بني الصادر فقتلوه . قال أبو عُبيدة في خبره : قتله مُجمِّع بن مُزاحِم أخو شَجنة بنِ مُزاحم وهو من بني يَربوع بن غَيظ بن مُرّة . فقال دريد بن الصمّة :

أبلِــغ نُعيماً وأوفى إن لقيتَهما ... إن لم يكن كان في سَمعَيهما صَممُ
فمــا أخي بأخي سَوء فينقُصَه ... إذا تقاربَ بابن الصادرِ القِممُ
ولن يزالَ شِهــاباً يُستضاء به ... يَهدي المَقانبَ[٦] ما لم تَهلكِ الصِمم[٧]
عاري الأشاجِع[٨] مَعصوبٌ بلِمّته ... أمرُ الزَّعامة ، في عِرنينِــه شَمم

(١) العرق : الاصل : والشنج : التقبض والتقلص، والبزخ : تقاعس الظهر عن البطن .

(٢) الجرد : جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر . والشعث جمع أشعث وهو المغــبر الرأس المتلبد الشعر . والمغاوير جمع مغوار وهو المقاتل الكثير الغارات .

(٣) الهجان : الكريم .

(٤) الشزب : جمع شازب، وهو الضامر اليابس، والقب : جمع أقب وهو من الخيل الدقيق الخصر الضامر البطن .

(٥) الصور : جمع أصور وهو المائل .

(٦) المقانب : جمع مقنب وهو الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .

(٧) الصمم : جمع صمة وهو الشجاع . ولعله عنى قومه .

(٨) الاشاجع : اصول الاصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف . والعرنين : الانف .

خالد بن الصمة ومقتله :

قال أبو عُبيدة : أما قوله « أو نَديمِيَ خالدِ » فإنه يعني خالد بن الصمّة؛ فإن بني الحارث بن كعب غزت بني جُشمَ بنِ معاوية، فخرجوا اليهم فقاتلوهم فقتلت بنو الحارث خالدَ بن الصمّة، وإياه عنى . وقال غيرُ أبي عُبيدة : خالد بن الحارث الذي عناه دريدٌ هو عمُّه خالد بن الحارث أخو الصمّة بن الحارث قتلته أحمسُ (بطنٌ من شنوءة)، وكان دريد بن الصمّة أغار عليهم في قومه فظفر بهم وأستاق إبلَهم وأموالهم وسبى نساءَهم وملأْ يديه وأيديَ أصحابه، ولم يُصَب أحدٌ ممن كان معه إلّا خالد بن الحارث عمّه، رماه رجل منهم بسهم فقتله؛ فقال دريد بن الصمّة يرثيه :

يا خالداً خالدَ الأيسارِ والنّادي　　وخالدَ الرّيح إذ هبّت بصُرّادِ [1]
وخالدَ القولِ والفعلِ المَعيش بـه　　وخالدَ الحرب إذ عضّت بأزراد [2]
وخالدَ الرّكبِ إذ جدّ السِّفارُ بهم　　وخـالدَ الحيّ لمّا ضُنّ بالزاد

وقال أبو عُبيدة : قال دريد يرثي أخاه خالداً :

أُميمَ أجدّي عافِيَ الرُّزءِ وأجشمي　　وشُدّي على رُزْءٍ ضلوعَك وأبأسي
حرامٌ عليهـا أن ترى في حياتها　　كمثلِ أبي جعدٍ فعودي أوِ أجلسي
أعفَّ وأجدى نائـلاً لعشيرةٍ　　وأكرمَ مخـلود لدى كلّ مجلس
وألينَ منـه صفحةً لعشيرةٍ　　وخيراً أبا ضيفٍ وخـيراً لمجلس
تقول هِلالٌ خارجٌ من غمامـةٍ　　اذا جاء يجري في شَليلٍ [3] وقَونَس

(١) الصراد : الغيم الرقيق لا ماء فيه .
(٢) الأزراد : جمع زرد وهي الدرع المزرودة .
(٣) الشليل : الغلالة تلبس تحت الدرع . والقونس : أعلى بيضة الحديد، وقيل مقدم البيضة .

يشُدّ متونَ الأقربين بهاؤه ويُخبِث نفسَ الشانئِ المتعبّسِ
وليس بمِكبابٍ[1] اذا الليلُ جَنّه نؤومٍ اذا ما أدلجوا في المعرّس
ولكنّه مِدلاجُ ليلٍ اذا سَرى يُنِدُّ[2] سُراه كلَّ هادٍ مُملَّس

هذه روايةُ أبي عُبيدة .

يوم ثيل :

وأخبرني محمد بن الحسن بن دريد عن عمه عن العباس بن هشام عن أبيه أن خالد بن الصمّة قُتل في غارةٍ أغارتْها بنو الحارث بن كعب على بني نَصر بن معاوية في يومٍ يقال له يوم ثيل، فأصابوا ناساً من بني نصر . وبلغ الخبر بني جُشَم فلحِقوهم، ورئيس بني جُشَم يومئذٍ مالكُ بن حَزن، فاستنقذوا ما كان في أيديهم من غنائم بني نصر، فأصابوا ذا القرن الحارثيّ أسيراً وفقأوا عينَ شهاب بن أبان الحارثيّ بسهم، وقُتل يومئذٍ خالد بن الصمّة وكان مع مالك بن حزن، وأصابت بنو جُشَمَ منهم ناساً، وكان رئيسُ بني الحارث بن كعب يومئذٍ شهابَ بن أبان، ولم يشهد دريد بن الصمّة ذلك اليوم؛ فلما رجعوا قتلوا ذا القرن بخالد بن الصمّة، ولما قُدِّم لتُضرَبَ عُنقُه، صاح بأوس بن الصمّة، وكان له صديقاً، ولم يكن أوس حاضراً، فلم ينفعه ذلك وقُتل . فلما قَدِم أوسٌ غضِب وقال : أقتلتم رجلاً استجار باسمي ! فقال عَوف بن معاوية في ذلك :

نُبِّئتُ أوساً بكى ذا القرنِ إذ شربا على عُكاظ بكاءً غالَ مجهودي
إني حلفتُ بما جمّعتُ من نَشَبٍ وما ذبحتُ على أنصابك السُّود
لتبكينَّ قتيلاً منك مُقترباً إني رأيتُك تبكي للأباعيد

---

(١) المكباب : الكثير النظر الى الارض .

(٢) يندّ : يشرد وينفر .

قصة زواجه بامرأة وجدها ثيّباً :

أخبرني هاشم بن محمد الخزاعيّ قال حدثنا أبو غسان دماذ عن أبي عُبيدة، وأخبرني عبد الله بن مالك النحويّ الضرير قال حدثنا محمد بن حَبيب عن ابن الأعرابيّ قال :

تزوّج دريد بن الصمّة امرأةً فوجدها ثَيباً، وكانوا قالوا له إنها بكر، فقام عنها قبل أن يصل اليها، وأخذ سيفه فأقبل به اليها ليضربها، فتلقَّته أُمها لتدفعه عنها، فوقف يديها (اي حزّهما ولم يقطعهما)، فنظر اليها بعد ذلك وهي معصوبة فقال :

أقرّ العينَ أن عَصبتْ يديها ... وما إن تُعصّبانِ على خِضابِ
فأبقاهنّ أن لهنّ جَـداً ... وواقيةٌ كواقيـة الكلاب

قالوا : يريد أن الكلب يُصيبه الُجرح فيلحَس نفسَه فيَبرأ .

ما جرى بينه وبين عياض الثعلبي :

قال أبو عُبيدة وابن الأعرابيّ جميعاً في هذه الرواية : أَسر دريد بن الصمّة عِياضاً الثعلبيّ أحدَ بني ثَعلبة بن سعد بن ذُبيان فأنعم[1] عليه . ثم إن دريداً أتاه بعد ذلك يَستثيبه . فقال له : إيتِ رَحلَك حتى أبعثَ اليك بثوابك؛ فانصرف دريد . فبعث اليه بوَطبٍ[2] نصفُه لبن ونصفُه بول . فغضب دريد ولم يلبث إلا قليـلًا حتى

(١) أنعم عليه : أطلقه .

(٢) الوطب : سقاء اللبن يتخذ من جلد .

أغار على بني ثَعلبة، وأستاق إبل عِياض، وأفلتَ عياضٌ منه جريحاً؛ فقال دريد في ذلك من قصيدةٍ :

فإن تَنجُ يَدمى عارضاكَ فإنّنـا ... تركنا بنيكَ للضِباع وللرَّخَمِ [١]
جزَيتُ عِياضاً كفرَه وعُقوقَـه ... وأخرجتُه من المُدَفّاة [٢] الـدُّهم
ألا هل أتاه مـا ركِبنا سَراتَهم ... وما قد عقَرنا من صفِيٍّ [٣] ومن قَرم

هجا عبد الله بن جدعان ثم مدحه :

أخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال حدثنا دماذ عن أبي عُبيدة قال :

هجا دريد بن الصِمّة عبد الله بن جُدعان التَيميّ تَيم قُرَيش فقال :

هل بالحوادث والأيام من عَجَبِ ... أم بأبن جُدعانَ عبدِ الله من كَلَبِ
إستُ حَميتٍ [٤] وهي في عِكمِ رَبّته ... في يوم حرٍّ شديد الشرّ والهرَب
اذا لقيتَ بني حَرْب وإخوتَهم ... لا يأكلون عَطينَ [٥] الجلد والأُهُب
لا يَنكِلون ولا تُشوي [٦] رماحُهمُ ... من الكُماةِ ذوي الأبدان والجُبب [٧]

---

(١) الرخم : جمع رخمة . وهي طائر أبقع على شكل النسر خلقة إلا انه مبقع بسواد وبياض يقال له الأنوق .

(٢) المدفأة : الابل الكثيرة الأوبار والشحوم .

(٣) الصفي : الناقة الغزيرة اللبن . والقرم : الفحل .

(٤) الحميت : المتين . والعكم : العدل يحمل فيه المتاع وشد عليه بالعكام اي الحبل .

(٥) العطين : الجلد المدبوغ .

(٦) تشوي : تصيب الشوى ولا تقتل . والشوى : الاطراف .

(٧) الابدان : جمع بدن وهو هنا الدرع القصيرة . والجبب : جمع جبة وهي هنا الدرع ايضاً .

فاقعُد بَطيناً مع الأقوام ما قعدوا ... وإن غزوتَ فلا تُبعِد من النصَبِ
فلو ثقِفتُكَ[1] وَسطَ القوم تَرصُدُني ... إذاً تلبَّس منك العِرضُ بالحقَب[2]
وما سمعتُ بصقرٍ ظَلّ يرصُده ... من قبل هذا بجنبِ المرج من خَرَب[3]

قال : فلقيه عبد الله بن جُدعان بعُكاظ فحيّاه وقال له : هل تعرفني يا دريد؟ قال: لا . قال : فلِمَ هجوتَني ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن جُدعان . قال : هجوتك لأنك كنتَ امرأً كريماً، فأحببتُ أن أضع شعري موضعَه . فقال له عبد الله : لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ؛ وكساه وحمله على ناقة برَحلِها . فقال دريد يمدحه :

اليك ابنَ جُدعانَ أعملتُها ... مخفَّفةً للسُّرى والنَّصبْ
فلا خَفضَ حتى تُلاقي امرأً ... جوادَ الرِّضا وحليمَ الغضَب
وجَلداً اذا الحربُ مرَّت به ... يُعينُ عليها بجَزل الحطَب
رَحلتُ البلادَ فما إن أرى ... شبيهَ ابنِ جُدعانَ وَسطَ العرَب
سوى ملِكٍ شامخٍ ملكُه ... له البحرُ يجري وعينُ الذَّهب

تغزل في الخنساء وخطبها فامتنعت وتهاجيا :

أخبرنا أبو خليفة عن محمد بن سلّام موقوفاً عليه لم يتجاوزه الى غيره، وحدثني حبيبُ بن نَصر المهلّبيّ وأحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قالا حدثنا عمر بن شَبّة عن الأصمعيّ وأبي عُبيدة، وأخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال حدثنا أبو غسّان

---

(١) ثقفه : صادفه .

(٢) العرض هنا : الجسد، والحقب شيء تتخذه المرأة تعلق به معاليق الحلي تشده على وسطها .

(٣) الخرب : ذكر الحبارى .

دماذ عن أبي عبيدة، وأخبرني الحرميّ بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكّار قال حدثني عليّ بن المُغيرة عن أبي عُبيدة، وأخبرني محمد بن خلَف بن المرزُبان قال حدثني أبو بكر العامريّ قال حدثني ابن نوبة عن أبي عَمرو الشيبانيّ، وأخبرني عمّي قال حدثنا ثَعلب عن ابن الأعرابيّ، وقد جمعتُ أخبارهم على اختلاف ألفاظهم في هذا الموضع، أن دُرَيد بن الصمّة مرّ بالخنساء بنت عمرو بن الشريد، وهي تَهنأ بعيراً لها وقد تبذّلت حتى فرغت منه، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلتْ ودُريد ابن الصمّة يراها وهي لا تشعر به فأعجبته؛ فانصرف الى رَحله وأنشأ يقول:

حَيُّوا تُماضرَ وأربعوا صَحبي ... وقِفوا فإن وقوفَكم حَسبي
أخُناسُ قد هام الفؤادُ بكم ... وأصابه تَبلٌ من الحُبِّ
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طاليَ أينُقٍ جُربِ
متبذِّلاً تبدو محاسنُه ... يضع الهِناء مواضعَ النُّقبِ[١]
متحسِّراً نضَح الهِناءَ به ... نَضحَ العبير برَيطةِ العَصْبِ
فسَليهمُ عنّي خُناسُ إذا ... عضَّ الجميعَ الخَطبُ ما خَطبي

– قالوا: وتُماضِرُ اسمُها. والخنساء لقبٌ غلَب عليها – فلما أصبح غدا على أبيها فخطبها اليه. فقال له أبوها: مرحباً بك أبا قُرّة! إنك للكريمُ لا يُطعَن في حسَبه، والسيّد لا يُرَدُّ عن حاجته، والفحل لا يُقرَع أنفُه. – وقال أبو عبيدة خاصّة مكانَ «لا يُطعن في حسبه»، «لا يطعن في عيبه» – ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكِرُك لها وهي فاعلةٌ. ثم دخل اليها وقال لها: يا خَنساء، أتاكِ فارسُ هوازنَ وسيّدُ بني جُشم دريد بن الصمّة يخطُبك وهو من تعلمين، ودريد يسمع قولها. فقالت: يا أبتِ، أتُراني تاركةً بني عمّي مثلَ عوالي الرِّماح

(١) الهناء: القطران. والنقب: القطع المتفرقة من الجرب.

وناكحةً شيخَ بني جُشَمٍ هامَةَ(١) اليومِ أو غدٍ! فخرج اليه أبوها فقال: يا أبا قُـرَّة قد أمتنعت، ولعلّها أن تُجيب فيما بعد. فقال: قـد سمعتُ قولَكما، وأنصرف. هذه رواية مَن ذكرتُ. وقال ابن الكلبيّ: قالت لأبيهـا: أنظِرني حتى أشاوِرَ نفسي، ثم بعثتْ خلفَ دريد وليدةً فقالت لهـا: انظري دريداً إذا بال، فإن وجدتِ بولَه قد خرَق الأرضَ ففيه بقيَّة، وإن وجدته قد ساح عـلى وجهها فلا فضلَ فيه. فأَتبعته وليدتُها ثم عادت اليها فقالت: وجدتُ بولَه قد ساح على وجه الأرض، فأمسكتْ. وعاود دريد أباها فعاودها فقالت له هـذه المقالةَ المذكورة، ثم أنشأتْ تقول:

أتخطُبني، هُبِلتَ، عـلى دُرَيدٍ　　وقد أطرَدتَ(٢) سيّدَ آلِ بَدرِ!
مَعـاذَ اللهِ يَنكِحُني حَبَرْكى(٣)　　يقال أبوه من جُشَمَ بنِ بكر
ولو أمسيتُ في جُشَمٍ هَديّاً(٤)　　لقد أمسيتُ في دَنَسٍ وفقر

فغضِب دريد من قولها وقال يهجوها:

وقاكِ اللهُ يابنـةَ آلِ عَمرو　　من الفتيـانِ أمثالي ونفسي
فلا تَلِدي ولا يَنكِحكِ مثلي　　اذا ما ليـلةٌ طرَقتْ بنَحس
لقد علِم المَراضعُ في جُمادى　　اذا استعجَلنَ عن حَزٍّ(٥) بنَهس
بأنّي لا أبيتُ بغـيرِ لحمٍ　　وأبدأ بالأرامل حـينَ أمسي

---

(١) يقال: فلان هامة اليوم او غد، اذا شاخ وأشرف على الموت.

(٢) اطردت: امرت بطرده.

(٣) الحبركى: الغليظ الطويل الظهر القصير الرجلين، والأنثى منه حبركاة.

(٤) الهديّ: العروس.

(٥) الحز: القطع. والنهس: تعرّق ما على العظم وانتزاعه بمقدم الأسنان.

وأنّي لا يَنالُ الحيُّ ضَيني ولا جاري يبيتُ خبيثَ نفسِ
اذا عُقَبُ القُدورِ تكُنَّ مالاً[1] تَحُتُّ حلائلَ الأبرام عِرسي
وأصفرَ من قِداحِ النَّبع صُلبٍ خفيٍّ الوَسمِ في ضَرْسٍ[2] ولَمسِ
دَفعتُ الى المُفيض[3] اذا استقلّوا على الرُّكُباتِ مَطلَعَ كلِّ شمسِ
فإن أكدى[4] فتامِكةٌ تُوَدّى وإن أربى فإني غيرُ نِكسِ[5]
وتزعُم أنني شيخٌ كبيرٌ وهل خبَّرتُها أني ابنُ أمسِ
تريد شَرَنبَثَ القدمين شَثْناً يُبادِرُ بالجدائرِ كلَّ كِرسِ[6]
وما قصُرتْ يدي عن عُظمِ أمرٍ أُهمُّ به ولا سَهمي بِنِكسِ
وما أنا بالمُزَجّى حين يسمو عظيمٌ في الأمور ولا بوَهسِ[7]

قال : فقيل للخنساء : ألا تُجيبينَه ؟ فقالت : لا أجمع عليه أن أردَّه وأهجوه .

آخر ايامه وشعره بعد ان أسن وضعف جسمه :

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثنا دَماذ عن أبي عُبيدة قال : لمّا أسنّ دُريد

---

(١) عقبة القدر : ما التزق بأسفلها من تابل وغيره . وتحتّ : تعجل . الأبرام : اللئام، الواحد : برم، وهو في الاصل الذي لا يدخل مع القوم في الميسر .

(٢) ضرس السهم : عجمه .

(٣) المفيض : الضارب بالقداح .

(٤) اكدى : اخفق ولم يصب .

(٥) التامك : الناقة العظيمة السنام او السنام نفسه . والنكس : الرجل الضعيف لا خير فيه .

(٦) الشرنبث : الغليظ . والشثن : الغليظ ايضاً . والكرس : ما تكرس اي صار بعضه فوق بعض . والجدائر : جمع جديرة وهي الحظيرة .

(٧) المزجى من القوم : المزلج وهو الملصق بالقوم وليس منهم، والرجل الناقص المروءة، والدون من كل شيء، والبخيل . والوهس : الذليل الموطوء .

جعل له قومه بيتاً مفرداً عن البيوت، ووكّلوا به أَمَةً تخدُمه، فكانت اذا ارادت أن تُبعِدَ في حاجة قَيَّدَته بقيد الفرس. فدخل اليه رجل من قومه فقال له: كيف أنت يا دُرَيد؟ فأنشأ يقول:

أصبحتُ أقذف أهدافَ المنون كما ... يَرمي الدَّريئةَ[1] أدنى فُوقةِ[2] الوَتَرِ
في مَنصَفٍ[3] من مدى تسعين من مائة ... كرَمية الكاعبِ العَذراء بالحجر
في منـزلِ نازحِ الحيِّ مُنتبَذٍ ... كمَربَط العَيرِ لا أدعى الى خبر
كأنني خَرَبٌ[4] قُصَّت قوادمُه ... أو جُثّةٌ من بُغاثٍ في يدَي خَصِر
يُمضُون أمرهم دوني وما فقدوا ... منّي عزيمةَ أمرٍ ما خلا كِبَري
ونومةً لستُ أقضيها وإن مَتُعت[5] ... وما مضى قبلُ من شأوي ومن عُمُري
وأنني رابَني قيدٌ حُبستُ به ... وقد أكون وما يُمشى على أثري
إن السِّنين اذا قرَّبنَ من مائة ... لَوَين مِرّةً[6] أحوالٍ على مِرَر

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثنا دماذ عن أبي عُبيدة قال: قالت امرأة دريد له: قد أسننتَ وضعُف جسمك وقُتل أهلك وفَنيَ شبابك، ولا مال لك ولا عُدّة، فعلى أيّ شيء تعوّل إن طال بك العمر أو على أي شيء تُخلِّف أهلك إن قُتِلتَ؟ فقال دُرَيد:

---

(١) الدريئة: حلقة يتعلم عليها الرامي الرمي.

(٢) الفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر. وحرفاه: زغتاه. وهذيل تسمى الزنمتين الفوقتين.

(٣) منصف الشيء: وسطه.

(٤) الخرب: ذكر الحبارى.

(٥) متعت: طابت.

(٦) المرة: طاقة الحبل.

صوت

أعاذلَ إنما أفنى شَبابي ركوبي في الصريخ الى المُنادي
مع الفِتيان حتى كلَّ جسمي وأقرح عاتِقي حَملُ النِجاد
أعاذلُ إنه مالٌ طريفٌ أحبُّ إليَّ من مالٍ تِلاد
أعاذل عُدَّتي بَدَنيْ[1] ورُمحي وكلُّ مقلِص شَكِسِ القِياد
ويبقى بعد حِلم القوم حِلمي ويفنى قبلَ زاد القوم زادي

هذا الشعر رواه أبو عُبيدة لدُرَيد، وغيرُه يرويه لعمرو بن معدِ كرب، وقول أبي عُبيدة أصحّ . لابن محرز في هذه الأبيات ثاني ثقيلٍ بالخنصر في مجرى البِنصر عن اسحاق . وذكر عمرو بن بانة أن لابن سُرَيج فيها ثانيَ ثقيلٍ بالبنصر. وخلط المغنون بهذا الشعر قول عمرو بن معدِ كرب في هذين اللحنين :

أريد حياتَه ويريد قتلي عَذيرَك من خليلك من مُرادِ
ولو لاقيتَني ومعي سلاحي تكشَّفَ شحمُ قلبِك عن سواد

قتلت بنو يربوع الصمة اباه فغزاهم :

وقال أبو عُبيدة فيما رويناه عن دماذ عنه : قتلتْ بنو يربوع الصمّة أبا دريد غَدراً، وأسروا أبن عمٍّ له؛ فغزاهم دريد ببني نصر فأوقع ببني يربوع وبني سعدٍ جميعاً، فقتَل فيهم . وكان فيمن قُتل عمّار بن كعب؛ وقال فيهم :

دعوتُ الحيَّ نصراً فاستهلّوا بشبانٍ ذوي كرَمٍ وشِيبِ

---

(١) البدن هنا : الدرع . وفرس مقلص (بكسر اللام) : طويل القوائم منضم البطن .

عـلى جُرْدٍ كأمثال السَّعالِي ورَجلٍ مثلِ أهمية الكثيبِ
فـا جَبُنوا ولكنّا نَصَبنا صدورَ الشرعبيّـة[١] للقلوب
فكم غادرن من كابٍ صَريعٍ يمُجُّ نجيعَ جائفةٍ[٢] ذَنوب
وتلكم عـادةٌ لبني رِبابٍ اذا ما كان موتٌ من قريب
فأجلَوا والسَّوامُ لنـا مُباحٌ وكلٌّ كَريمةٍ خـوٍ عَرُوب
وقد تُرِك ابنُ كعب في مَكرٍّ حبيساً بين ضِبعانٍ وذيب

كان أبوه شاعراً:

قال أبو عبيدة: وكان الصمّة أبو دريد شاعراً، وهو الذي يقول في حرب الفِجـار التي كانت بينهم وبين قُرَيش:

لاقت قُرَيشٌ غـداةَ العقيـــق أمراً لها وجدَتـه وَبيلًا
وجئنا اليهم كموج الأتيّ[٣] يعلو النِّجـاد ويملا المسيلا
وأعددتُ للحرب خيفانـةً[٤] ورمحاً طويـلًا وسيفاً صقيلا
ومُحكَمةً من دروع القيـو ن تسمع للسيف فيها صليلا

قال: وكان أخوه مالك بن الصمّة شاعراً، وهو القائل يرثي أخاه خالداً:

أَبني غزيّةَ إنّ شِلواً[٥] ماجداً وَسطَ البيوتِ السُّودِ مَدفَعَ كَركَرِ[٦]

---

(١) الشرعبية: الطويلة، يريد الرماح.

(٢) الجائفة: الطعنة التي تنفذ الى الجوف.

(٣) الأتي: السيل لا يدرى من اين اتى.

(٤) الخيفانة: الفرس.

(٥) الشلو (بالكسر) هنا: الجسد.

(٦) كركر: علم على عدة مواضع.

لا تَسقِني بيديـك إن لم ألتمس بالخيل بـين هبولة فالقَرْقَرِ[١]

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثنا أبو غسان دماذ عن أبي عُبيدة قال :

تحالف دُريد بن الصمّة ومعاويةُ بن عمرو بن الشريد وتواثقا إن هلك أحدهما أن يَرثيَه الباقي بعده، وإن قُتل أن يطلب بثأره . فقُتل معاوية بن عمرو بن الشريد، قتله هاشم بن حَرملة بن الأشعر المُرّيّ . فرثاه دُريد بقصيدته التي أولها :

أَلا هبّت تَلوم بغـير قَدْرِ وقد أحفظتِني ودخلتِ سِتري
وإلّا تَترُكي لَومي سَفـاهاً تلُمك عليه نفسُك غيرَ عَصر

وفيها يقول :

فإنّ الرُّزء يوم وقفتُ أدعو فلم أسمـع معاويةَ بن عمرو
ولو أسمعتَــه لأتاكَ يسعى حَثيثَ السعيِ أو لأتاكَ يجري
بشِكّة[٢] حازمٍ لا غمرَ فيـه اذا لبِس الكُماةُ جلودَ نِمر[٣]
عرفتُ مكانه فعطفتُ زَوراً[٤] وأين مكانُ زَورٍ يابنَ بكر
على إرَمٍ[٥] وأحجار ثِقـالٍ وأغصانٍ من السلَماتِ سُمر
وبُنيانُ القبورِ أتى عليهـا طَوالُ الدهرِ شهراً بعد شهر

(١) هبولة والقرقر : موضعان .

(٢) الشكة : السلاح .

(٣) كانت ملوك العرب اذا جلست لقتل إنسان لبست جلود النمر ثم امرت بقتل من تريد قتله .

(٤) الزور في اللغة : الجمل القوي، ولعله هنا اسم جمله .

(٥) الإرم : حجارة تنصب علماً في المفازة .

أخبرني عبد الله بن مالك النحويّ قال حدثنا محمد بن حبيب عن ابن الأعرابيّ قال :

وقف عارضٌ الجشميّ على دريد وقد خَرِف وهو عُريان وهو يكوّم كَوَم بَطحاء[1] بين رجليه يلعب بذلك؛ فجعل عارضٌ يتعجب مما صار اليه دُريد . فرفع رأسه دريد اليه وقال :

كأنني رأسُ حضَنْ[2] في يوم غَيم ودُجَن[3]
يا ليتني عهدَ زَمَنْ أنفُضُ رأسي وذقَن
كأنني فحلُ حُصُنْ أرسلَ في حبلٍ عُنُن
أرسلَ كالظَّبيِ الأرِنْ[4] ألصقَ أذناً بأذُن

قال : ثم سقط؛ فقال له عارضٌ : إنهض دريد ! فقال :

لا نَهضَ في مثلِ زماني الاولِ مُحنَّبَ الساقِ شديدَ الأعصَلِ[5]
ضخمَ الكراديسِ[6] خَميصَ الأشكل[7] ذي حَنجرٍ رحب وصُلبٍ أعدل

---

(١) البطحاء هنا : الحصى الصغار .

(٢) حضن : اسم جبل .

(٣) الدجن : جمع دجنة وهي الظلمة .

(٤) الأرن : النشيط .

(٥) التحنيب : احديداب في وظيفي يدي الفرس، وهو مما يوصف صاحبه بالشدّة . والاعصل؛ المعوج الصلب من كل شيء، ومنه ناب اعصل اي معوج شديد .

(٦) الكراديس : جمع كردوس وهو كل عظم تام ضخم .

(٧) الشاكلة : الخاصرة .

حدثنا محمد بن جرير الطَّبري قال حدثنا محمد بن حُميد قال حدثنا سَلَمةُ بن الفَضل عن محمد بن اسحاق عن الزُّهري عن عُبيد الله بن عبد الله قال :

لمَّا فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكةَ اقام بها خمسَ عشرةَ ليلةً يَقصُر[1]، وكان فتحُها في عشر ليالٍ بَقِينَ من شهر رمضان . قال ابن اسحاق : وحدثني عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدِه قال : لمَّا سمعتْ به هوازنُ جَمَعها مالك بن عَوف النَّصري، فأجتمعت اليه ثقيف مع هوازن، ولم يجتمع اليه من قيس إلا هوازنُ وناسٌ قليلٌ من بني هلال، وغابت عنها كعبٌ وكِلاب، فجمعت نَصرٌ وجُشمُ وَسعدٌ وبنو بكر وثقيف وأحتشدت، وفي بني جُشم دريد بن الصمَّة شيخٌ كبيرٌ فانٍ ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مجرَّباً، وفي ثقيف في الأحلاف قاربُ بن الأسود بن مسعود، وفي بني مالك ذو الحمار سُبيع بن الحارث، وجماعُ أمرِ الناس الى مالك بن عوف . فلمَّا أجمع مالكٌ المسيرَ حطَّ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم . فلما نزلوا بأوطاس[2] أجتمع اليه الناسُ وفيهم دريد بن الصمَّة في شِجارٍ[3] له يُقاد به . فقال لهم دريد : بأيّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعم مجالُ الخيل، ليس بالحزن الضرِس[4] ولا السهل الدَّهِس[5] . ما لي أسمع رُغاء الإبل ونَهيق الحمير وبكاء الصغير وثُغاء الشاء ؟! قالوا : ساق مالكُ بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم . فقال : أين مالكٌ ؟ فدُعي له به . فقال له : يا مالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنَّ

(١) قصر الصلاة : ان يترك من ذوات الاربع ركعتين ويصلي ركعتين .

(٢) اوطاس : واد بديار هوازن .

(٣) الشجار : مركب اصغر من الهودج .

(٤) الفرس : الصعب .

(٥) الدهس : اللين السهل .

هذا اليوم كائن له ما بعده من الايام! ما لي أسمع رُغاء البعير ونهيق الحمير وبكاء الصبيان وثُغاء الشاء؟! قال: سُقتُ مع الناس نساءهم وأبناءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أن أجعل مع كلّ رجل أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. قال: فانقضَّ به ووبّخه ولامه، ثم قال: راعي ضأنٍ والله (أي أحمق)! وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيء! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك. ثم قال: ما فعلتْ كعبٌ وكِلاب؟ قال: لم يشهدها أحدٌ منهم. قال: غاب الحَدّ والجِدّ! لو كان يومَ عَلاء ورفعة لم تغِب عنه كعبٌ وكِلاب! ولوَدِدتُ أنكم فعلتم مثلَ ما فعلوا. فمَن شَهِدها منهم؟ قالوا: بنو عمرو بن عامر وبنو عوف بن عامر. قال: ذانِك الجَذَعانِ[1] من عامرٍ لا ينفعان ولا يضرّان. ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة[2] بيضةِ هَوازن الى نُحور الخيل شيئاً. إرفعهم الى أعلى بلادهم وعَلياء قومهم ثم ألقَ القومَ بالرجال على مُتونِ الخيل، فإن كانت لك لَحِق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزتَ أهلَك ومالَك ولم تُفضح في حريمك. قال: لا والله ما أفعل ذلك أبداً! إنك قد خرِفتَ وخَرِفَ رأيُك وعلمُك. والله لتُطيعُنّني يا معشر هوازن أو لأتّكئنّ على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهري — فنفِس على دريد أن يكون له في ذلك اليوم ذِكرٌ ورأيٌ — فقالوا له: أطعناكَ وخالفنا دُريداً. فقال دريد: هذا يوم لم أشهَده ولم أغِب عنه. ثم قال:

يا ليتني فيها جَذَعْ   أخُبُّ فيها وأضَعْ
أقودُ وَطفاءَ الزَّمَعْ   كأنها شاةٌ صَدَعْ

قال: فلما لَقِيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انهزم المشركون فأتَوا الطائفَ

(١) الجذع: الشاب الحدث.

(٢) بيضة القوم: اصلهم ومجتمعهم.

ومعهم مالك بن عَوف، وعَسكر بعضهم بأوطاس وتوجّه بعضُهم نحـوَ نَخلةَ[1]، وتبعتْ خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم مَن سَلَكَ نخلةَ، فأدرك ربيعـة بن رُفيع السُّلَميّ أحدُ بني يَربوع بن سَمَّال بن عَوف دريد بن الصمّة فأخـذ بخِطام جمله وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه كان في شِجارٍ له، فأناخ به فإذا هو برجلٍ شيخٍ كبيرٍ ولم يعرفه الغلام. فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتُلك. قـال: ومن أنتَ؟ قال: أنا ربيعة بن رُفيع السُّلَميّ. فأنشأ دريد يقول:

وَيح ابن أكمَةَ ماذا يُريـد من المُرعَشِ الذَّاهب الأدردِ
فأُقسِمُ لو أنّ بي قـوّةً لوَلّت فرائصُه تُرعَـد
ويا لَهفَ نفسيَ ألّا تكونَ معي قـوّةُ الشارخ[2] الأمرد

ثم ضربه السُّلميّ بسيفه فلم يُغنِ شيئاً. فقال له: بئس ما سلّحتك أمُّكَ! خـذ سيفي هذا من مؤخّر رحلي في القِراب فاضرِب به وارفع عن العظام واخفِض عن الدّماغ، فإنّي كذلك كنتُ أفعل بالرجال، ثم اذا أتيتَ أمّك فأخبرها أنـك قتلتَ دريد بن الصمّة، فرُبَّ يومٍ قد منعتُ فيه نساءك؟ فزعمتْ بنو سُليم أن ربيعة قال: لمّا ضربتُه بالسيف سقط فانكشف، فاذا عِجانُه[3] وبطن فخذَيه مثل القراطيس من ركوب الخيل أعراء. فلما رجع ربيعةُ الى أمّه أخبرهـا بقتله إياه؛ فقالت له: لقد أعتق قتيلُك ثلاثاً من أمهاتك. وبعث رسول الله صلى الله عليـه وسلم في آثار من توجّه قِبَـلَ أوطاس أبا عامر الأشعريّ ابنَ عمِّ أبي موسى الأشعريّ، فهزمهم الله جلّ وعزّ وفتح عليه. فيزعمون أنّ سَلَمة بن دريد بن الصمّة رماه بسهم فأصاب رُكبتَه فقتله (يعني أبا عامر).

---

(١) نخلة: المراد هنا نخلة اليمانية، وهي واد يصب فيه يدعان.

(٢) الشارخ: الشاب.

(٣) العجان: الدبر، وقيل هو ما بين الدبر والقبل.

فقالت عَمْرةُ بنتُ دريد تَرثيه :

جزى عنّا الإلٰهُ بني سُلَيم ... وأعقبهم بما فعلوا عَقاقِ[1]
وأسقانا اذا سِرنا اليهم ... دماءَ خِيارِهم يومَ التَّلاقي
فرُبَّ مُنَوّهٍ بكَ من سُلَيم ... أُجيبَ وقد دعاك بلا رِماق[2]
ورُبَّ كريمةٍ أعتقتَ منهم ... وأخرى قد فككتَ من الوَثاق

وقالت عَمْرةُ تَرثيه ايضاً :

قالوا قتلنا دُرَيداً قلتُ قد صدَقوا ... وظلَّ دمعي على الخدَّين يَبتدرُ
لولا الذي قهَرَ الأقوامَ كلَّهمُ ... رأت سُلَيمٌ وكعبٌ كيف تأتمر
إذاً لصبَّحهم غِبّاً وظاهرةً ... حيث أستقرَّ نواهم جَحفلٌ ذَفِر[3]

استحثه قومه على الأخذ بثأر أخيه :

ونسختُ من كتاب مترجَم بأنه نُسخ من نسخة عمرو بن أبي عمرو الشيباني يأثُره عن أبيه قال قال محمد بن السائب الكلبيّ :

كان دريد بن الصمّة يوماً يشرَب مع نفَرٍ من قومه، فقالوا له : يا أبا ذُفافة — وكان يُكنى بأبي ذُفافة وبأبي قُرّة — أينجو بنو الحارث بن كعب منك وقد قتلوا أخاك خالداً ! ؟ فقال لهم : إن القوم جَمرةُ مَذحِج، وهم أكفاء جُشم، ولا يَجمُل بي هجاؤهم . فأحفظوه بكثرة القول وأغضبوه، فقال :

---

(١) عقاق (بالبناء على الكسر) : العقوق .

(٢) الرماق من العيش : البلغة والقليل يمسك الرمق .

(٣) الذفر : المتغير الرائحة .

يا بني الحارث أنتم مَعشرٌ زَندُكم وارٍ وفي الحرب بُهَمْ[١]
ولكم خيلٌ عليها فتيةٌ كأُسودِ الغاب يَحمِين الأَجم
ليس في الأرض قَبيلٌ مثلُكم حين يَرفَضُ العِدا غيرَ جُشم
لستُ للصمّة إن لم آتِكم بالخناذيذ[٢] تبارى في اللُّجُم
فتقرُّ العينُ منكم مرّةً بانبعاث الحُرِّ نَوحاً تَلتدِم[٣]
وتُرى نَجرانُ منكم بَلقعاً غيرَ شَمطاء وطفلٍ قد يَتِم
فانظُروها كالسَّعالي شُزَّباً[٤] قبل رأس الحول إن لم أُختَرَم

قال: فنُمي قوله الى عبد الله بن عبد المَدان، فقال يُجيبه:

نُبِّئتُ أنّ دريداً ظلّ مُعترِضاً يُهدي الوَعيد الى نَجرانَ من حَضَنِ[٥]
كالكلب يَعوي الى بيداء مُقفِرةٍ من ذا يُواعِدُنا بالحرب لم يَحِن[٦]
إن تَلقَ حيَّ بني الدّيّانِ تَلقَهمُ شُمَّ الأنوف اليهم عِزّةُ اليمن
ما كان في الناس للديّان من شَبَهٍ إلّا رُعَينٌ وإلّا آلُ ذي يَزَن
أغمِضْ جفونك عمّا لستَ نائله نحن الذين سبقنا الناس بالدمن
نحن الذين تركنا خالداً عَطِباً وَسطَ العَجاج كأنّ المرءَ لم يكن

(١) بهم: جمع بهمة وهو الشجاع.

(٢) الخناذيذ: جياد الخيل، واحدها خنذيذ.

(٣) تلتدم: تضرب صدرها في النياحة.

(٤) السعالي: الغيلان، واحدها سعلاة. والشزب: جمع شازب وهو الضامر.

(٥) حضن: جبل بنجد.

(٦) لم يحن: لم يهلك.

إن تَهجُنا تهجُ أنجاداً شَراحِحةً[1] بيضَ الوجوه مَرافيداً على الزمنِ
أوْرى زِيادٌ لنا زَنداً ووالدُنا عبدُ المَدان وأوْرى زندَه قَطَن

أخبرني محمد بن خلف وكيع قال حدثنا أبو بكر العامريّ عن ابن الأعرابي قال :

أغار دُرَيد بن الصِمَّة في نفر من أصحابه ، فمرّوا بأسماء بن زِنباع الحارثيّ ومعه ظَعينتُه زينب ، فأحاطوا به لينتزعوها من يده ، فقاتلهم دونَها فقتل منهم وجرَح ، ثم اختلف هو ودريد طعنتين : فطعنه دُرَيدٌ فأخطأه ، وطعنه أسماء فأصاب عينه ، وانهزَم دريدٌ ولحق بأصحابه ؛ فقال دريدٌ في ذلك :

شُلَّتْ يميني ولا أشرَبْ معتَّقـةً إذ أخطأ الموت أسماء بن زِنباعِ

قال : وهي قصيدة .

ونسختُ من كتاب أبي عمرو الشَيباني الذي ذكرْته يأثُره عن محمد بن السائب الكلبيّ قال :

جاور رجلٌ من ثُمالةَ عبدَ الله بن الصِمَّة ، فهلك عبدُ الله وأقام الرجل في جِوار دريد . وأغار أنسُ بن مُدركةَ الخثعمي على بني جُشَم ، فأصاب مالَ الثالي وأصاب ناساً من ثُمالة كانوا جيراناً لدُرَيد ؛ فكفّ دريدٌ عن طلب القوم وشُغِل بحرب من يَليه ، وقال لجاره ذلك : أمهلني عامي هذا . فقال الثالي : قد أمهلتُك عامين . وخرج دريدٌ ليلةً لحاجته وقد أبطأ في أمر الثالي ، فسمعه يقول :

كساكَ دُرَيدُ الدهرَ ثوبَ خَزايةٍ وجدّعك الحامي حقيقتَه أنَسْ
دَعِ الخيلَ والسُمرَ الطِوالَ لخَثعمٍ فما أنت والرُمحُ الطويل وما الفرس

(١) الشراحة : جمع شرمح وهو القوي والطويل .

وما أنتَ والغزوَ المتابعَ للعِـدا ... وهمُّكَ سَوقُ العَوْدِ والدَّلْوُ والمَرَسْ [١]
فلو كان عبـدُ الله حيّاً لردَّها ... وما أصبحتْ إبلي بنجران تُحتَبَس
ولا أصبحتْ عِرسي بأشقى معيشةٍ ... وشيخٌ كبيرٌ من ثُمالةَ في تَعَس
يُراعي نجومَ الليل من بعد هَجعةٍ ... الى الصبح محزوناً يُطاوله النَّفَس
وكنتُ وعبدُ الله حيٌّ وما أرى ... أبالي من الأعداء مَن قام أو جلس
فأصبحتُ مهضوماً حزيناً لفقـده ... وهل من نكيرٍ بعد حولين تَلتَمِس

قال : فضاق دُرَيدٌ ذَرعاً بقوله ، وشاور أولي الرأي من قومه ؛ فقالوا له : ارحَلْ الى يزيد بنِ عبد المَدان ؛ فإنَّ أَنَساً قد خلَّف المالَ والعيال بنجرانَ للحرب التي وقعت بين خَثعم ، وإن يزيد يردُّها عليك . فقال دُرَيد : بل أُقـدِّم اليه قبل ذلك مِدحةً ثم أنظر ما موقعي من الرجل ، فقال هذه القصيدة وبعث بها الى يزيد :

بني الدَّيانِ رُدُّوا مالَ جاري ... وأسرى في كُبولهمُ الثِّقـالِ
ورُدُّوا السَّبيَ إن شئتم بمَنٍّ ... وإن شئتم مُفاداةً بمالِ
فأنتم أهلُ عائدةٍ وفضـلٍ ... وأيـدٍ في مواهبكم طِوال
متى ما تمنعوا شيئاً فليست ... حبائلُ أخـذه غيرَ السؤال
وحربُكُم بني الدَّيانِ حربٌ ... يَغَصُّ المرءُ منهـا بالزُّلال
وجارُكم بني الدَّيان بَسلٌ [٢] ... وجارُكمُ يُعَـدُّ مع العيال
حَذاً عبدُ المَدان لكم حِذاءً ... مُحَضَّرةَ الصدور عـلى مِثال
بني الدَّيان إنَّ بـني زيادٍ ... همُ أهـلُ التكرُّم والفَعال
فأَوْلوني بني الدَّيان خـيراً ... أُقِرَّ لكم به أخرى الليالي

قال : فلما بلَغ يزيدَ شعرُه قال : وجب حقُّ الرجل فبعث اليه أنِ اقدَمْ علينا .

---

(١) العود : المسن من الابل . والمرس : الحبل ، والمراد هنا حبل الاستقاء .

(٢) البسل : الحرام .

فلما قدِم عليه أكرمه وأحسن مَثواه. فقال له دُرَيد يوماً: يا أبا النَّضر، إني رأيتُ منكم خِصالاً لم أرَها من أحد من قومكم: اني رأيتُ أبنيتكم متفرِّقة، ونِتاجَ خيلكم قليلاً، وسَرحَكم يجيء مُعَشِّماً، وصبيانَكم يَتضاغَون[1] من غير جوع. قال: أجل! أمّا قلّة نِتاجنا فنتاجُ هوازِنَ يكفينا. وأمّا تفرُّق أبنيتنا فللغَيرة على النساء. وأمّا بكاء صبياننا فإنّا نبدأ بالخيل قبل العيال. وأمّا تمسّينا بالنَّعم فإنّ فينا الغرائبَ والأراملَ، تخرج المرأة الى مالها حيث لا يراها أحدٌ.

قال: وأقبلتْ طلائعُهم على يزيد، فقال شيخ منهم:

أتتكَ السلامةُ فأرعَ النِّعَمْ ... ولا تَقُلِ الدَّهرَ إلّا نَعَمْ
وَسَرِّحْ دُرَيداً بنُعمى جُشَمْ ... وإن سالَكَ المرءُ إحدى القُحَم[2]

فقال له دُرَيد: من أين جاء هؤلاء؟ فقال: هذه طلائعُنا لا نَسرَحُ ولا نصطبحُ حتى يرجعوا الينا. فقال له: ما ظلمَكم مَن جعلكم جَمرةَ مَذحِج. وردّ يزيد عليه الأسارى من قومه وجيرانه، ثم قال له: سَلني ما شئتَ؛ فلم يسأله شيئاً إلا أعطاه إيّاه. فقال دريد في ذلك:

مدَحتُ يزيدَ بن عبد المَدان ... فأكرِمْ به من فتًى مُمتدَحْ
إذا المدحُ زان فتى مَعشرٍ ... فإنّ يزيد يَزينُ المِدَحْ
حلَلتُ به دونَ أصحابه ... فأورى زِناديَ لمّا قَدَحْ
وردّ النساءَ بأطهارها ... ولو كان غيرُ يزيدٍ فضَحْ
وفكّ الرجالَ وكلُّ امرئٍ ... اذا أصلحَ اللهُ يوماً صَلَحْ
وقلتُ له بعد عِتق النساء ... وفَكِّ الرِّجال وردِّ اللِّقَح[3]
أجِرْ لي فوارسَ من عامرٍ ... فأكرِمْ بنَفحته إذ نَفَحْ
وما زلتُ أعرف في وجهه ... بكَرّي السؤالَ ظهورَ الفرح

---

(١) تضاغى من الطوى: تضوّر من الجوع وصاح.

(٢) القحم: جمع قحمة وهي الأمر الشاق لا يكاد يركبه احد.

(٣) اللقح: جمع لقحة وهي الناقة الحلوب.

رأيتُ أبا النَّضر في مَذحِجٍ بمنزلة الفجر حين انْفضحْ
اذا قارَعوا عنه لم يُقرَعوا وإن قدَّموه لكبشٍ نطح
وان حضَر الناسَ لم يُخزِهم وان وازَنوه بقِرْنٍ رجَح
فذاك فتاها وذو فضلها وإن نابحٌ بفخارٍ نبح

قصته مع مسهر بن يزيد الحارثي وشعره :

قال وقال ابن الكلبي: خرج دريد بن الصِمّة في فوارس من قومه في غَزاة له، فلقيه مُسهر بن يزيد الحارثيّ، الذي فقأ عين عامر بن الطُفَيل، يقود بامرأته أسماء بنت حَزْن الحارثيَّة. فلما رآه القوم قالوا: الغنيمةَ، هذا فارسٌ واحد يقود ظَعينةً، وخليقٌ أن يكون الرجل قرشياً. فقال دريد: هل منكم رجل يمضي اليه فيقتله ويأتينا به وبالظَّعينة؟ فانتدَب اليه رجلٌ من القوم فحمل عليه، فلقيه مُسهر فاختلفا طعنتين بينهما، فقتله مُسهر بن الحارث. ثم حمل عليه آخر فكانت سبيلُه سبيلَ صاحبه؛ حتى قتلَ منهم أربعةَ نفر. وبقي دريد وحدَه فأقبل اليه؛ فلما رآه ألقى الخطامَ من يده الى المرأة وقال: خُذي خِطامَك؛ فقد أقبل إليّ فارسٌ ليس كالفرسان الذين تقدَّموه؛ ثم قصد اليه وهو يقول:

أمَا ترى الفارس بعد الفارسْ أرْداهمُ عاملُ رمح يابسْ

فقال له دريد: من أنت لله أبوك؟ قال: رجلٌ من بني الحارث بن كعب. قال: أنت الحُصَين؟ قال: لا. قال: فالمحجَّل هَوذَة؟ قال: لا. قال: فمن أنت؟ قال: أنا مُسهر بن يزيد. قال: فانصرف دُرَيد وهو يقول:

أمن ذِكر سَلمى ماء عينيك يَهمِلُ كما انهلّ خرزٌ من شُعيبٍ مُشَلشِلُ (١)
وماذا تُرَجّي بالسلامة بعد ما نأتْ حِقَبٌ وأبيضّ منكَ المُرَجَّل (٢)

(١) شلشل الماء : قطر .
(٢) المرجل : الشعر .

وحالتَ عَوادي الحربِ بيني وبينها | وحربٌ تَعِلّ الموتَ صِرفاً وتُنهِلُ
قِراها اذا باتت لَدَيَّ مُفاضَةٌ | وذو خُصَلٍ نَهْدُ المَراكِلِ هَيكلُ [1]
كَمِيشٌ [2] كتَيسِ الرَّملِ أخلَصَ مَتنَهُ | ضَريبُ الخَلايا [3] والنَّقيعُ المعجَّلُ
عَتيدٌ لأيامِ الحروبِ كأنهُ | اذا أنحابَ رَيعانُ العَجاجةِ أجدَلُ [4]
يُجاوِبُ جُرداً كالسَّراحينِ [5] ضُمَّراً | تَرودُ بأبوابِ البيوتِ وتَصهَلُ
على كلِّ حَيٍّ قد أطلَّتْ بغارةٍ | ولا مثلَ ما لاقى الحِماسُ وزَعبَلُ

— الحِماس وزَعبَل: قبيلتان من بني الحارث بن كعب —

غَداةَ رأَونا بالعَريفِ كأنّنا | حَبِيٌّ [6] أدرَّتهُ الصَّبا متهلِّلُ
بمُشعَلَةٍ تدعو هوازنَ، فوقها | نَسيجٌ من الماذيِّ لأمٌ مُرَفَّلُ [7]
لدى مَعرَكٍ فيها تركنا سَراتَهم | يُنادون، منهم مُوثَقٌ ومُجدَّلُ
نَجُذُّ جِهاراً بالسيوفِ رؤوسَهم | وأرماحُنا منهم تَعُلُّ وتَنهَلُ
ترى كلَّ مسودِّ العِذارَينِ فارسٍ | يُطيفُ به نَسرٌ وعَرفاءُ جَيأَلُ [8]

---

(١) المفاضة هنا: الدرع. وذو خصل: يريد فرساً. والمراكل: جمع مركل وهو حيث تصير رجلك من الدابة؛ يقال فرس نهد المراكل اي واسع الجوف. والهيكل: الضخم.

(٢) الكميش: السريع.

(٣) الضريب: اللبن. والخلايا: جمع خلية وهي الناقة المخلاة للحلب.

(٤) الأجدل: الصقر.

(٥) السراحين: الذئاب واحدها سرحان.

(٦) الحبي: السحاب المتراكم.

(٧) الماذي: الدروع اللينة السهلة. واللأم: الدروع، واحدها لأمة. والمرفل: المسبغ.

(٨) العرفاء: الضبع؛ سميت بذلك لكثرة شعر رقبتها. وجيأل: من اسماء الضبع ايضاً.

قال مؤلِّف هذا الكتاب : هذه الأخبار التي ذكرتُها عن ابن الكلبيّ موضوعةٌ كلُّها ، والتوليدُ بيِّن فيها وفي أشعارها ، وما رأيتُ شيئاً منها في ديوان دريد بن الصِّمَّة على سائر الروايات . وأعجبُ من ذلك هذا الخبرُ الأخيرُ ؛ فإنه ذكر فيه ما لحق دريداً من الهجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قُتِل معه وانصرافه منفرداً ، وشعرُ دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفِر ببني الحارث وقتل أماثِلَهم ؛ وهـذا من أكاذيب ابن الكلبي . وإنما ذكرُته على ما فيه لئلا يسقطَ من الكتاب شيء قد رواه الناسُ وتَداوَلُوه .

أخبار المعتضد في صنعة هذا اللحن

وغيره من الاغاني

– دون أخباره في غير ذلك لانها كثيرة تخرج عن حدّ الكتاب –
وشيء من أخباره مع المغنين وغيرهم يصلح لما هاهنا

حدثني محمد بن خلف بن المَرزُبان قال حدثني عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتضد بعث اليه – لما صنعتْ جاريتُه شاجي اللحنِ الذي يجمع النَّغم العشرَ – بظَبي وحبيب جاريتيْ أخيه سليمان بن عبد الله بن طاهر حتى أخذَتا اللحنَ عنه ونقلتاه اليه وألقَتاه على جواريه . قال : ولم يزل يُراسلني مع عبد الله بن أحمد بن حمدون في أمر النَّغم العشر ويسألني عنها وأشرَحها له ، حتى فهِمها جيّداً وجمعها في صوتٍ صنعه في شعر دريد بن الصِمَّة :

يا ليتني فيها جَذَعْ أخبّ فيها وأَضعْ

وألقاه عليها حتى أدّتاه اليّ مستعلماً بذلك هل هو صحيحُ القسمة والأجزاء أم لا ، فعرَّفتُه صحتَه ودللتُه على ذلك حتى تيقَّنه فسُرّ بذلك؛ وهو لعمري من جيّد الصنعة ونادرها . وقد صنع المُعتضدُ ألحاناً في عدة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمُحدَثين وعارَضهم بصنعته فأحسن وشاكل وضاهى ، فلم يَعجز ولا قصَّر ولا أتى بشيء يُعتذَر منه . فمن ذلك أنه صنع في :

أمّا القَطاةُ فإني سوف أنعتُها نَعتاً يوافق نعتي بعضَ ما فيها

لحناً من الثقيل الأول بالبنصر في نهاية الجودة ، سمعت ابراهيم بن القاسم بن زُرزور

يُغنّيه ، فكان من أحسن ما صُنع في هذا الصوت على كثرة الصنعة فيه وٱشتراك القدماء والمُحدَثين في صنعته مثل مَعبد ونَشيطٍ ومالك وابن مُحرز وسِنان وعُمَر الوادي وٱبن جامع وابراهيم وٱبنه اسحاق وعَلَّويه . وأظرفُ من ذلك أنه صنع في :

تَشَكّى الكُمَيتُ الجَرْيَ لَمّا جَهَدْتُه وَبَيَّنَ لو يسطيع أن يتكلّما

لحناً من الثقيل الأوّل بالوسطى ، وقد صنع قبله ٱبن سُرَيج لحناً هو من الألحان الثلاثة المختارة من الغناء كلّه ، فما قصَّر في صنعته ولا عجز عن بلوغ الغاية فيها ؛ هذا بعد أن صنع اسحاقُ فيها لحناً من الثقيل الثاني عارض ٱبنَ سُرَيج به في لحنه ، فما ٱمتنع من أن يتلو مثل هذين ولا نظيرَ لهما في القدماء والمُحدَثين ، ثم جوَّد غاية التجويد فيما ٱتبعهما به وعارضهما فيه . هذا مع أصوات له صنعها تُزاهي[1] المائة صوت ، ما فيها ساقطٌ ولا مَرذول ، وسأذكر منها ما يصلح ذكرُه في موضعه ان شاء الله تعالى .

صوت

أَناةً فإن لم تُغنِ عقَّب بعدَها وَعيداً فإن لم يُغنِ أغنتْ عَزائمُهْ

الشعر لإبراهيم بن العبّاس ، والغناء للمعتضد ثقيلٌ أول . هذا بيتٌ قاله ابراهيم وهو لا يعلم أنه شعر ، وإنما كتب به في رسالة عن المعتصم الى بعض اصحاب الأطراف فقال في فصل منه : « وان عند أمير المؤمنين في أمرك أناةً ، فإن لم تُغنِ عقَّب بعدها وعيداً ، فان لم يُغنِ أَغنَتْ عزائمه » . فلما تأمّله رأى أنه شعر وأنه بيتٌ نادر فأخرجه في شعره .

---

(١) تزاهي : تضاهي . وزهاء الشيء : قدره .

أخبار ابراهيم بن العباس ونسبه

إبراهيم بن العبَّاس بن محمد بن صُولٍ ، وكان صُولٌ رجلًا من الأتراك ، ففتح يزيد بن المهلَّب بلدَه وأسلم على يديه ، فهم موالي يزيدَ . ولما دعا يزيدُ الى نفسه لحق به صُولٌ لينصرَه فصادفه قد قُتل . وكان يقاتل كلَّ مَن بينه وبين يزيد من جيش بني أميَّة ويكتب على سهامه : صُولٌ يدعوكم الى كتاب الله وسنَّة نبيّه . فبلغ ذلك يزيدَ بن عبد الملك ، فاغتاظ وجعل يقول : وَيلي على ابن القَلْفاء ! وما له وللدُّعاء الى كتاب الله وسنَّة نبيّه ! ولعلّه لا يَفقه صَلاتَه ! وكان ابنه محمد ابن صُول من رجال الدولة العبَّاسيَّة ودُعاتها . وقد كان بعض أهليهم ادَّعَوْا أنهم عربٌ وأن العباس بن الأحنف خالهم . وأمَّا صول فإن خالد بن خِداش ذكر عن أهله قالوا : كان صولٌ وفَيروزُ أخوين مَلكا على جُرْجانَ ، وكانا تركيَّيْن تمجَّسا وتشبَّها بالفُرْس . فلما حضر يزيدُ بن المُهلَّب جُرْجانَ آمنهما ، فأسلم صولٌ على يديه ولم يزل معه حتى قُتِل يومَ العَقْر[1] . وكان محمد بن صُول يُكنى أبا عُمارة ، أحد الدُّعاة ، وقتله عبد الله بن عليّ لما خالف مع مُقاتل بن حَكيم العَكّي[2] وعِدةٍ آخرين . وأمَّا ابراهيم بن العباس وأخوه عبد الله فإنهما كانا من وجوه الكتَّاب ، وكان عبدُ الله أسنَّهما وأشدَّهما تقدُّماً ، وكان إبراهيم آدَبهما وأحسنهما شعراً ، وكان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسقط رَذْله ، ثم يُسقط الوسطَ ، ثم يسقط ما يُسبَق اليه ، فلا يَدَعُ من القصيدة إلا اليسيرَ ، وربما لم يَدَعْ منها إلا بيتاً أو بيتين ؛ فمن ذلك قوله :

---

(١) هو عقر بابل وهو موضع عند كربلاء قتل عنده يزيد بن المهلب .

(٢) هو احد قواد ابي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية .

ولكنّ الجوادَ أبا هشامٍ وفيُّ العهدِ مأمونُ المَغيبِ

وهذا ابتداء يدلّ على أن قبله غيرَه ؛ وقوله في أخيه :

ولكنّ عبدَ الله لما حَوى الغنى وصار له من بين إخوته مالُ

وهذا ايضاً ابتداء يدلّ على أن قبله غيرَه . وكان ابراهيم وأخوه عبد الله من صنائع ذي الرّياستين ، اتّصلا به فرفع منهما . وتنقّل ابراهيمُ في الأعمال الجليلة والدواوين الى أن مات وهو يتقلّد ديوانَ الضِّياع والنفقات بسُرّ مَن رأى في سنة ثلاث وأربعين ومائتين للنصف من شعبان .

قال محمد بن داود وحدثني أحمد بن سعيد بن حسّان قال حدثني ابن ابراهيم قال سمعت دِعبِلًا يقول :

لو تكسّب ابراهيم بن العبّاس بالشعر لتركنا في غير شيء . قال : ثم أنشدَنا له ، وكان يستحسن ذلك من قوله :

انّ امرأً ضنّ بمعروفه عنّي لمبذولٌ له عذري
ما أنا بالراغب في عُرفه ان كان لا يرغب في شكري

وكان ابراهيم بن العباس صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزّيّات ، ثم آذاه وقصده وصارت بينهما شحناء عظيمة لم يمكن تلافيها ، فكان ابراهيم يهجوه ؛ فمن قوله فيه :

أبا جعفرٍ خَفْ خَفضةً بعد رِفعةٍ وقصِّرْ قليلًا عن مدى غُلَوائكا
لئن كان هذا اليومُ يوماً حويتَه فإن رجائي في غدٍ كرجائكا

وله فيه أيضاً :

دعوتك في بَلوَى ألمَّتْ صروفُها فأوقدتَ من ضِغنٍ عليَّ سعيرَها
فإني اذا أدعوك عند مُلِمّةٍ كداعيةٍ عند القبور نَصيرَها

وقال فيه لمّا مات :

لمّا أتاني خَبَرُ الزّيّاتِ وأنّه قد صار في الأمواتِ
أيقنتُ أنّ موته حياتي

أخبرني جَحظة قال حدثني ميمون بن هارون قال : لمّا انحرف محمد بن عبد الملك الزّيّات عن ابراهيم تحاماه الناس أن يلقوْه ، وكان الحارث بن بُسخُنَّر صديقاً له مصافياً ، فهجره فيمن هجره من إخوانه ؛ فكتب اليه :

تَغيّرَ لي فيمن تغيّرَ حارثُ وكم من أخٍ قد غيّرته الحوادثُ
أحارثُ إن شوركتُ فيك فطالما غَنِينا وما بيني وبينك ثالث

وقد قيل : إن هذه الأبيات لإسحاق بن ابراهيم الموصلي .

ومن جيّد قولِ ابراهيم بن العباس وفيه غِناء :

صوت

خلِّ النِّفاقَ لأهله وعليك فالتمس الطَّريقا
واذهبْ بنفسك أن تُرى إلّا عدوّاً أو صديقا

الغناء لأبي العُبَيس بن حمدون ، ثقيلٌ أوّل :

قصة عشقه لقينة وانكماشه لتأخرها :

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال : كان ابراهيم

ابن العباس يهوى قينة بسُرَّ مَن رأى ، فكان لا يكاد يفارقها . فجلس يوماً للشرب ومعه إخوان له ، ودعا جماعةً من جواري القيان ، ودعاها فأبطأت ، فتنغَّص عليهم يومُهم لِما رأوا من شغل قلبه بتأخُّرها ، ثم وافتْ فسُرِّيَ عنه وطابت نفسه وشرب وطرِب ، ثم دعا بدواة فكتب :

ألم تَرنا يومَنا اذ نأتْ ... فلم تأتِ من بين أترابها
وقد غمرَتنا دواعي السرور ... بإشغالها وبإلهابها
ومَدَّتْ علينا سماءُ النعيم ... وكلُّ المُنى تحت أطنابها[1]
ونحن فُتورٌ الى أن بدتْ ... وبدرُ الدُّجى بين أثوابها
فلمَّا نأتْ كيف كنَّا لها ... ولمَّا دَنتْ كيف صِرنا بها

وأمر من حضر فقرأ عليها الأبيات ؛ فتجنَّتْ وقالت : ما القصَّةُ كما وصفتَ ، وقد كنتم في قَصفكم مع مَن حضر ، وإنما تجمَّلتم لي لمَّا حَضَرتُ . فأنشأ يقول :

يا مَن حَنيني اليه ... ومن فؤادي لديه
ومَن اذا غاب من بيـنهم أسِفتُ عليه
اذا حضرتِ فما مِنـهم مُ مَنَ أصبُو اليه
من غاب غيرُكِ منهم ... فأمرُه في يديه

قال : فرضيتْ عنه ؛ وأتممنا يومَنا على أحسن حال .

أجازه دعبل في شعر :

وقال محمد بن داود حدثني محمد بن القاسم قال حدثني ابراهيم بن المدبّر

---

[1] الأطناب : جمع طنب : وهو حبل طويل يشدّ به سرادق البيت .

قال حدثني ابراهيم بن العباس – قال حدثني به دِعبِلُ أيضاً فكانا متفقيْن في الرواية – قال :

كنّا نطلب جميعاً بالشعر ، فخرجنا وكنا في مَحمِل ، فابتدأتُ أقول في المطّلب ابن عبد الله بن مالك :

أمطّلبُ أنت مُستَعذِبُ

فقال دِعبِل :

لسمّ الأفاعي ومُستَقْتِلُ

فقلت :

فإن أشفِ منك تكن سُبّةً

فقال دِعبِل :

وإن أعفُ عنك فما تفعلُ

أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العباس وكان يُفضِلها ويستجيدها :

أميل مع الذّمام على ابن أمي   وآخُذ للصديق من الشقيق
وإن ألفيتَني حراً مُطاعاً   فإنك واجدي عبد الصديق
أفرّق بين معروفي ومَنّي   وأجمع بين مالي والحقوق

أخبرني عمي قال حدثني أبو الحسن بن أبي البَغل قال حدثني عمي قال :

اجتاز محمد بن علي برد الخيار على أبي أيوب ابن أخت الوزير وهو متولّي ديار مُضَر فلم يتلقَّه ، ونزل الرَّقة فلم يصل اليه ولم يَبَرّه ، وخرج عنها فلم يُشيّعه .

فلامه إخوانُه وقالوا : يشكوك الى ابراهيم بن العباس. فكتب الى ابراهيم يعتذر مما جرى بعلّةٍ . فكتب اليه ابراهيم على ظهر كتابه :

أبداً مُعتذرٌ لا يُعذَرُ ورَكوبٌ للتي لا تُغفَرُ
ومُلقّى بمساوٍ كلُّها منه تبدو واليه تصدُرُ
هي من كل الورى مُنكَرةٌ وهي منه وحده لا تُنكَر

أخبرني عمي قال حدثني ابن برد الخيار عن أبيه قال :

كان ابراهيم بن العباس يهوى جارية لبعض المغنين بسُرَّ مَن رأى يقال لها سامر، وشُهر بها، فكان منزله لا يخلو منها. ثم دُعيتْ في وليمة لبعض أهلها فغابت عنه أياماً ثم جاءته ومعها جاريتان لمولاتها، وقالت له: قد أهديتُ صاحبتَيَّ اليك عِوَضاً من مَغيبي عنك، فأنشأ يقول :

صوت

أقبلن يَحففن مثلَ الشمس طالعةً قد حسّن الله أُولاها وأُخراها
ما كنتِ فيهن إلا كنتِ واسطةً وكنَّ دونكِ يُمناها ويُسراها

الغناء لسَلْسَل مولى بني هاشم، ثاني ثقيل بالوسطى مطلقٌ. وليس لسلسل خبر يُدوَّن ولا هو من المشهورين ولا ممن خدم الخلفاء أو دوِّن له حديث. وذكر حَبَش أنه لسلسل مولاة محمد بن حرب الهلالي. وسَلسل هذه كانت من أحسن الناس وجهاً وغناء، وكانت لبعض المغنّين بالبصرة، وكان محمد بن حرب هذا يتعشّقها ولم تكن مولاته. فأخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا اسحاق بن محمد النَّخَعيّ قال حدثني حماد بن اسحاق قال: أتى أَبانُ بن عبد الحميد الشاعر رجلًا بالبصرة وله قَينة يقال لها سَلسل، فصادف عندها محمد بن قَطَن الهلالي وعثمان بن الحَكَم بن صخر الثَّقَفيّ فقال :

فتنتْ سَلسَلُ قلبَ ٱبنِ قَطنْ ثم ثَنّتْ بابن صخر فٱفتتنْ
فأتيتُ اليومَ كي أنقِذَهم فإذا نحن جميعاً في قَرَنْ

فأُظنّ الغَلَطَ وقع على حَبش من هاهنا أو سمع هذا الخبر فتوهّم أنها مولاة محمد ٱبن حرب.

أخبرني عمي ووكيع قالا حدثنا الحسن بن عُلَيل العنزيّ قال حدثني محمد بن عيسى بن عبد الرحمن قال:

خرج ابراهيم بن العباس ودِعبِل بن عليّ وأخوه رَزين في نُظَرائهم من أهل الأدب رَجّالةً الى بعض البساتين في خلافة المأمون، فلقِيَهم قوم من أهل السواد من أصحاب الشوك، فأعطَوْهم شيئاً وركِبوا تلك الحميرَ؛ فأنشأ ابراهيم يقول:

أعِيضَتْ بعد حَمْل الشَوْ كِ أحمالاً من الحرفِ
نَشاوى لا من الصَّهبا ء بل من شدّة الضُّعف

فقال رَزين:

فلو كنتم على ذاك تؤولون الى قَصفِ
تَساوتْ حالُكم فيه ولم تَبقَوْا على خسف

فقال دِعبِل:

وإذ فات الذي فات فكونوا من بني الظَّرْفِ
ومُرّوا نَقصِف اليوم فإني بائعٌ خُفّي

فٱنصرفوا معه فباع خُفَّه وأنفقه عليهم.

رثاؤه لابنه :

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويَه قال قال لي علي ابن الحسين الإسكافي :

كان لإبراهيمَ ابنٌ قد يَفَع وتَرَعرَعَ ، وكان مُعجباً به فاعتلّ عِلّةً لم تَطُل ومات ؛ فرثاه بمراثٍ كثيرة ، وجزع عليه جَزَعاً شديداً . فمما رثاه به قوله :

كنتَ السوادَ لُمقلتي فبكى عليك الناظرُ
مَن شاء بعدكَ فَليمُتْ فعليك كنتُ أُحاذِر

فيه رملٌ لابن القصّار . ومن مراثيه إيّاه قوله :

وما زلتُ مُذ لَدُ أُعطِيتُه أُدافع عنه حِمامَ الأجَلْ
أُعوِّذه دائباً بالقُران وأرمي بطرفي الى حيث حَل
فأضحت يدي قصدُها واحدٌ الى حيث حلّ فلم يَرتحِل

وقال أحمد بن أبي طاهر حدثني أبو واثلةَ قال : قلت لإبراهيم بن العبّاس : قد أخملتَ نفسك ورضيتَ أن تكون تابعاً أبداً لاقتصارك على القَصف واللعب ؛ فأنشأ يقول :

إنما المرء صورةٌ حيث حلّتْ تَناهتِ
أنا مذ كنتُ في التصرُّف لي حالُ ساعتي

أَخبرنا محمد بن يحيى الصولي قال حدثني ابن السَّخيّ قال :

وَهب عبد الله بن العباس لأخيه ابراهيم ثُلُثَ ماله ، ووهب لأخته الثلث الآخر ، فسار مساوياً لهما في الحال ؛ فقال ابراهيم :

ولكنَّ عبدَ الله لمَّا حوى الغنى وصار له من بين اخوته مالُ
رأى خَلَّـةً منهم تُسَدُّ بماله فساهمهم حتى استوتْ بهم الحالُ

وهذا مما عِيبَ على ابراهيم قوله ابتداء «ولكنّ عبد الله». وقد كرّره في شعره فقال:

ولكنَّ الجوادَ أبا هشام وفيُّ العهد مأمونُ المَغيبِ
بَطيءٌ عنك ما استغنيتَ عنه وطلّاعٌ عليك مع الخطوب

والسبب في ذلك اختيارُه شعرَه وإسقاطُه ما لم يَرضَه منه.

وقرأت في بعض الكتب: لمَّا عُزِل ابراهيم بن العبَّاس عن الأهواز في أيام محمد بن عبد الملك الزيّات اعتُقِل بها وأوذي، وكان محمد قبل الوزارة صديقه، وكان يؤمَّل منه أن يُسامحه ويُطلِقه، فكتب اليه:

فلو إذ نَبا دهرٌ وأنكِر صاحبٌ وسُلِّط أعداءٌ وغاب نصيرُ
تكون عن الأهواز داري بنَجوةٍ ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمداً لأفضلِ ما يُرجى أخٌ ووزير

فأقام محمد على قصدِه وتكشُّفه والإساءةِ اليه حتى بلغ منه كلَّ مكروه، وانفرجت الحال بينهما على ذلك، وهجاه ابراهيم هجاء كثيراً.

أرسل ابن الزيات أبا الجهم للنكاية به:

وأخبرني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني أبو عبد الله الباقطاني أو الطّالقاني قال حدثني علي بن الحسين بن عبد الأعلى قال:

وجّه محمد بن عبد الملك بأبي الجهم أحمد بن سيف الى الأهواز ليكشف

ابراهيم ابنَ العبّاس ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً . فكتب ابراهيم الى محمد بن عبد الملك يُعرّفه ذلك ويشكوه اليه ويقول له : أبو الجهم كافرٌ لا يُبالي ما عمِل ، وهو القائل لمّا مات غلامُه يخاطب مَلَكَ الموت :

وأقبلتَ تسعى الى واحدي ضِراراً كأنّي قتلتُ الرسولا
تركتَ عَبيدَ بني طاهرٍ وقد ملأوا الأرضَ عرضاً وطولا
فسوف أدِين بترك الصلاة وأصطبِح الخمرَ صِرفاً شَمولا

فكان محمد لعصبيّته على ابراهيم وقصده له يقول : ليس هذا الشعر لأبي الجهم ، إنما ابراهيم قاله ونَسَبه اليه .

أخبرني أحمد بن جعفر بن رفعة قال حدثني أبي قال دعاني ابراهيم بن العباس وقال : قد مدحتُ أمير المؤمنين المتوكِّل ببيتين ، فغنِّ فيهما وأسْمِعهما ، ودعا لي بطِيب كثير فأعطانيه ، وخلع عليّ خِلعة سَرِيّة ، فغنّيتُ فيهما . والبيتان :

صوت

ما واحدٌ من واحدٍ أولى بفضلٍ أو مُرُوّهْ
ممن أبوه وجدُّه بين الخلافة والنُّبوّهْ

وأسْمَعْتُهما وغنّى فيهما المتوكِّل فأستحسنهما ووصله صِلَةً سنيّة .

لحنُ جعفر بن رفعة في هذين البيتين رَمَلٌ بالبنصر .

أخبرني محمد بن يونس الأنباري قال حدثني أبي :

أن ابراهيم بن العباس الصولي دخل على الرّضا لمّا عقد له المأمون ولاه العهدَ ، فأنشده قوله :

أزالت عَزاءَ القلب بعد التجلُّدِ مصارعُ أولاد النبيِّ محمدِ

– صلى الله عليه وسلم – فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضُرِبت باسمه . فلم تزل عند ابراهيم ، وجعل منها مُهور نسائه ، وخلَّف بعضها لكَفَنه وجَهازه الى قبره .

أخبرني محمد بن يحيي الصولي قال حدثني أبو العباس بن الفُرات والباقْطاني قالا :

كان اسحاق بن ابراهيم ابن أخي زيدان صديقاً لإبراهيم بن العبَّاس ، فأنسخه شعرَه في مدح الرِّضا ، ثم وليَ ابراهيمُ بن العبَّاس في أيام المتوكِّل ديوانَ الضِّياع ، فعزله عن ضِياع كانت بيده بحُلوان ، وطالبه بمال وجب عليه ، وتباعَد بينهما . فقال اسحاق لبعض من يثِق به : قل لإبراهيم بن العباس : والله لئن لم يَكفُف عمَّا يفعله فيَّ لأُخرجنَّ قصيدته في الرِّضا بخطه الى المتوكِّل . فأحجم عنه ابراهيم وتلافاه ، ووجَّه من ارتجع القصيدةَ منه وجعله على ثقةٍ من أنه لا يُظهرها ، ثم أفرج عنه وأزال ما كان يطالبه به .

نادرته في ثقيل :

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثنا ابراهيم بن المُدبِّر قال :

راكبت ابراهيمَ بن العباس ، فلقِينا رجلٌ كان ابراهيم يستثقله ، فسلَّم عليه . فلمَّا مضى قال : يا أبا اسحاق إنه جَرْمي . فقلت : ما كان عندي ألا أنه من أهل السَّواد . فضحك وقال : إنَّما أردتُ قولَ الشاعر :

تُسائِل عن أخي جَرْم ثقيلٌ والذي خَلَقَه

كتابه في شفاعة لرجل الى بعض إخوانه :

أخبرني الصولي قال حدثني محمد بن السَّخيِّ قال حدثني الحسن بن عبد الله الصولي قال :

كتب عمي ابراهيمُ بن العباس شفاعة لرجل الى بعض إخوانه : فلان ممن يَزكو شكره، ويحسُن ذكرُه، ويَعني أمرُه، والصنيعةُ عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها .

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدِّين والحِجا إصابةُ شكر لم يَضِع مَعَه أجرُ

أخبرني عمي عن أبي العَيناء قال :

مدحه عبيد الله بن يحي عند المتوكل :

كان عُبيد الله بن يحيي يقول للمتوكِّل : يا أميرَ المؤمنين، إن ابراهيم بن العباس فضيلةٌ خبأها الله لك، وذخيرةٌ ذَخرها لدولتك .

وذُكر عن عليّ بن يحيي :

أنّ المتوكل بعث الى ابراهيم بن العباس يأمره أن يصف له القُدورَ الإبراهيمية، وكان أبتدعها؛ فكتب له صِفتَها، وكتب في آخرها في ذكر الأبازير : « ووزن دانق » ونسيَ أن يكتب من أيّ شيء . فلمّا وصلتْ اليه الصفةُ أغتاظ ثم قال لعليّ بن يحيي : إحلفْ بحياتي أن تقول له ما آمُرك به، ففعل . فقال له : قل وزنُ دانق من أي شيء ؟ أمِن بظر أمّك ! قال عليّ بن يحيي : فدخلتُ اليه فقلت : إني جئتك في رسالة عزيز عليّ أن أؤدّيها؛ فقال : هاتها، فأدّيتُها . قال : فارجع اليه وقل له عني : يا سيِّدي، إن عليّ بن يحيي أخي وصديقي وقد أدّى الرسالة؛ فإن رأيت أن تجعل وزن الدّانق من بَظر أمّي وبَظر أمه جميعاً تفضَّلتَ بذلك . فقلت : قبّحك الله ! وأنا أيش ذنبي ! قال : قد أدّيتَ الرسالة وهذا جوابُها . فدخلتُ الى المتوكل فقال : إيهِ ما قال لك ؟ فقلتُ : قَبّح الله ما جئتُك به ! وأخبرته بالجواب؛ فضحِك حتى فحص برجله وجعل يَشرب عليه بقيّة يومه . واذا لَقيتُه قال لي : يا عليّ، وزن دانق أيش ! فأقول : لعنة الله على ابراهيم .

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثني محمد بن موسى بن حمّاد قال :

دعا الحسنُ بنُ وَهب ابراهيمَ بن العباس ؛ فقال له : أركبُ وأجيئك عشيّاً فلا تنتظرني بالغَداة . فأبطأ عليه، وأسرع الحسنُ في شُربه فسكِر ونام ، وجاء ابراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدواة وكتب :

رُحنا اليك وقد راحتْ بك الرّاحُ وأسرعتْ فيك أوتارٌ وأقداحُ

قال : وحدثني محمد بن موسى قال :

نظر ابراهيم بن العباس الحسنَ بنَ وَهبٍ وهو مخمورٌ فقال له :

عيناكَ قد حَكَتا مَبيتَك كيف كنتَ وكيف كانا
ولرُبَّ عينٍ قد أرتكَ مَبيتَ صاحبها عِيانا

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها ؛ فكتب اليه بأربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتاً . وأبياتُ ابراهيم :

أأبا عليّ خيرُ قولِكَ ما حصَّلتَ أنجعَه ومُختصرَهْ
ما عندنا في البيع من غبَنٍ للمُستقِلّ بواحدٍ عشَره
أنا أهلُ ذلك غيرَ مُحتشِمٍ أرضى القديمَ وأقتني أثره
ها نحن وفّيناك أربعةً والأربعون لديك مُنتظَره

أخبرني الصوليّ قال حدثني القاسم بن إسماعيل قال :

سمعتُ ابراهيم بن العباس وقد لبِس سوادَه يوماً يقول : يا غلامُ هاتِ ذلك السيفَ الذي ما ضرّ الله به احداً قطُّ غيري .

كان يستثقل ابن اخيه :

قال : وسأل يوماً عن ابن أخيه طماس وهو أحمد بن عبد الله بن العباس فقيل له : هو مشغول بطبيب ومُنجِّم عنده، وكان يستثقله، فقال قل له يا غلام : والله ما لك في الناس طَبعٌ، ولا في السماء نجم، فما لك تَتكلَّفُ هذا التكلّف .

أخبرني الصوليّ قال حدثني أحمد بن السخيّ قال :

أمر ابراهيم بن العباس أن يُجمعَ كلُّ أعور يَمرُّ في الطريق، فجمعوهم ووقفوهم وخرج ومعه طماس، فلما رأى العُورَ مجتمعين قال لطماس : كلُّهم مثلك، فاترك هذا الصَّلَف فإنه داعية الى التَّلف .

أخبرني الصوليّ قال حدثني مَيمون بن موسى قال :

قال الحسن بن وَهب لابراهيم بن العباس : تعالَ حتى نَعُدَّ البُغضاء؛ قال : ابدأ بي اولاً من أجل ابن أخي طماس ثم ثَنِّ بمن شئت .

أخبرني الصوليّ قال قال جعفر بن محمود :

ركبتُ بين يدي ابراهيم بن العباس . فأمرَ الحسنَ بن مُخلَد بأمر فاستبطأه فيه فنظر اليه فقال :

مُعجِبٌ عند نفسه وهو لي غير مُعجِبِ
إن أقُل لا يقُل نعم عاتبٌ غيرُ مُعتِب
مُولَعٌ بالخلاف لي عامداً والتجنُّب
قلتُ فيه بضدّ ما قيل في أمّ جُندُب

يريد قولَ امرئ القيس :

« خليليَّ مُرّا بي على أمِّ جُندُب »

أي فأنا لا أريد أن أمرَّ بك .

قال وأخبرني الصوليّ قال حدثنا أحمد بن يزيد المُهلّبيّ عن أبيه قال :

كان المتوكل قد ولّى ابنَ الكلبيّ البريدَ، وأحلفه بالطَّلاق ألا يَكتُمه شيئاً من أمر الناس جميعاً ولا من أمره هو في نفسه . فكتب اليه يوماً أن امرأته خرجت مع حُبتّها[1] في نُزهة، وأن حُبتّها عَربدت عليها فجرحتها في صُدغها . فقرأه ابراهيم بن العباس على المتوكل ثم قال له : يا أمير المؤمنين، قد صحّف ابنُ الكلبيّ، إنما هو : « جرحتها في سُرمها »، فضحك المتوكل وقال : صدقتَ . ما أظن القصة إلا هكذا . قال : ولم يكن ابن الكلبيّ هذا من العرب، إنما كان أبوه يُلقَّب « كلب الرَّحل » فقيل له الكلبيّ .

استعطافه محمد بن عبد الملك الزيات :

أخبرني عمي قال حدثنا ميمون بن هارون قال :

كتب ابراهيم بن العباس الى محمد بن عبد الملك يستعطفه : كتبت اليك وقد بلغت المُديةُ المَحزَّ، وعدَتِ الأيامُ بك عليّ، بعد عَدوي بك عليها ، وكان أسوأ ظنّي وأكثر خوفي، أن تسكُن في وقت حركتها، وتكُفَّ عند أذاها، فصرتَ عليّ أضرَّ منها، وكفَّ الصديقُ عن نُصرتي خوفاً منك، وبادر إليّ العدوُّ تقرُّباً اليك . وكتب تحت ذلك :

---

(١) الحبة : المحبوبة .

أخٌ بيني وبين الدّهر صاحَبَ أيّنا غَلبا
صديقي ما ٱستقام فإن نبا دهرٌ عليّ نبا
وثَبتُ على الزمان به فعاد به وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخاً حَدِبا

قال وكتب اليه : أمَا والله لو أمِنتُ ودكَ لقلت؛ ولكني أخاف منك عَتباً لا تُنصفني فيه، وأخشى من نفسي لائمةً لا تحتملها لي. وما قد قُدِّر فهو كائن، وعن كل حادثة أحدوثة. وما ٱستبدلت بحالةٍ كنتُ فيها مغتبطاً حالةً أنا في مكروهها وألَمِها أشدّ عليّ من أنّي فزعت الى ناصري عند ظلمٍ لَحِقني، فوجدتُ من يظلِمني أخفَّ نيّةً في ظُلمي منه، وأحمد الله كثيراً. ثم كتب في أسفلها :

وكنتَ أخي بإخاء الزمانِ فلما نَبا صرتَ حَرباً عوانا
وكنتُ أذُمُّ اليك الزمانَ فأصبحتُ فيك أذُمُّ الزمانا
وكنتُ أعِدُّك للنائبات فأصبحتُ أطلب منك الأمانا

هجا محمد بن عبد الملك :

أخبرني الصوليّ قال أخبرني الحسين بن فَهم قال :

كان محمد بن عبد الملك قد أغرى الواثقَ بإبراهيم بنِ العبّاس، وكان إبراهيم يُعاتبه على ذلك ويُداريه، ثم وقف الواثق على تحامُله عليه فرفع يدَه عنه وأمر أن يُقبَل منه ما رفَعه، وردّه الى الحَضرة مَصوناً، فلما أحسّ ابراهيمُ بذلك بَسط لسانَه في محمدٍ، وحسُن ما بينه وبين ابن أبي دُواد . وهجا محمدَ بن عبد الملك هِجاءً كثيراً؛ منه قوله :

قدَرتَ فلم تَضرُر عدوّاً بقدرةٍ وسُمتَ بها إخوانَك الذُّلَّ والرَّغما
وكنتَ مليئاً بالتي قد يَعافها من الناس من يأبى الدَّنيئةَ والذمّا

تمادح هو وابو تمام :

أخبرني الصوليّ قال حدثنا أبن السخيّ قال حدثني الحسين بن عبد الله قال :

سمِعت ابراهيم بن العباس يقول لأبي تمّام الطائي وقد أنشده شعراً له في المعتصِم : يا أبا تَمَّام، أمراء الكلام رعيّةٌ لإحسانك . فقال له أبو تمّام : ذلك لأني أستضيء بك وأرِدُ شريعتَك .

أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال سمعت ابراهيم بن المُدبّر يقول :

جرى بين ابراهيم بن العبّاس وبين أخي أحمد بن المدبّر شيء، وكان يوَدُّني دون أخي؛ فلقيتُه فأعتذرتُ اليه عنه؛ فقال لي : يا أبا اسحاق :

صوت

خلِّ النِّفاق لأهله وعليكَ فألتمِسِ الطريقا
وأذهب بنفسك أن تُرى إلا عدوًّا أو صديقا

الغناء لأبي العُبَيس .

أخبرني الصوليّ قال حدثني القاسم بن إسماعيل قال :

إنصرف ابراهيم بن العباس يوماً من دار المتوكل فقال لنا : أنا والله مسرورٌ بشيء مغمومٌ منه . فقلنا له : وما ذاك أعزّك الله ؟ قال : كان أحمد بن المُدبّر رفع الى أمير المؤمنين أن بعض عُمّالي أقتطع مالاً، وصدَق في الذي قاله، وكنتُ قد رأيت هلال الشهر ونحن مع أمير المؤمنين على وجهه فدعوتُ له، وضحِك اليّ

فقال لي : إن أحمد قد رفع على عاملك كذا وكذا فأصدُقني عنه ؛ فضاقت عليَّ الحُجّة، وخفتُ أن احقّق قولَه إن اعترفت، ثم لا أرجع منه الى شيء فيعود عليَّ الغُرم، فعدَلت عن الحُجّة الى الحيلة فقلت : أنا في هذا يا أمير المؤمنين كما قلتُ فيك :

صوت

رَدَّ قولي وصدّق الأقوالا ... وأطاع الوُشاةَ والعُذّالا
أتُراه يكون شهرَ صدودٍ ... وعلى وجهه رأيتُ الهلالا

قال : لا يكون والله ذلك بجياتي يا ابراهيم ! رَوِّ هذا الشعر بَناناً حتى يُغنّيني فيه . فقلت : نعم يا سيّدي على ألّا يُطالَبَ صاحبي بقول أحمد . فقال للوزير : تقبّل قولَ صاحبه في المال . فسُررتُ بالظَّفَر، واغتممتُ لبُطلان هذا المال وذَهابه بمثل هذه الحيلة، ولعله قد جُمع في زمن طويل وتعبٍ شديد .

سرق ابن دريد وابن الرومي من شعره :

أنشدتُ عمي رحمه الله أبياتاً لابن دُريد يمدح رجلاً من أهل البصرة :

يا من يُقبّل كفَّ كلِّ مُخرّقٍ ... هذا ابنُ يحيي ليس بالمخراقِ
قبّلْ أناملَه فلسن أناملاً ... لكنّهنّ مَفاتحُ الأرزاق

فقال : يا بُنيَّ هذا سرقه هو وابنُ الروميّ جميعاً من ابراهيم بن العباس ؛ قال ابراهيم بن العباس يمدح الفضلَ بنَ سهل :

لفضلِ بن سهلٍ يدٌ ... تَقاصر عنها الأملْ
فباطِنُها للنّدى ... وظاهرُها للقُبَل
وبَسطتُها للغِنى ... وسطوتُها للأجَل

وسرقه ابن الروميّ فقال :

أصبحتُ بين خَصاصةٍ ومَذَلّةٍ   والُحرُّ بينهما يموت هَزيلا
فأمدُدْ اليَّ يداً تعوّد بطنُها   بَذل النّدى وظهورُها التّقبيلا

قال ثعلب إنه كان أشعر المحدثين :

أخبرني الصوليّ قال سمعتُ أحمدَ بن يحيي ثَعلباً يقول :

كان ابراهيم بن العباس أشعر المُحدَثين . قال : وما روى ثعلبٌ شعرَ كاتب قطُّ غيرَه . قال : وكان يستحسنُ كثيراً قولَه :

لنا إبلٌ كُومٌ(١) يَضيق بها الفضا   ويَفترُّ عنها أرضُها وسماؤُها
فمِن دونِها أن تُستباح دماؤُنا   ومن دوننا ان تُستباح دماؤُها
حِمًى وقِرًى فالموتُ دون مَرامِها   وأيسرُ خطبٍ يوم حقٍّ فناؤُها

ثم قال : والله لو كان هذا لبعض الأوائل لاستُجِيد له .

مدح الحسن بن سهل :

أخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال حدثنا محمد بن يزيد قال سمعتُ الحسن ابن رَجاء يقول :

كنّا بفَمِ(٢) الصُّلح أيامَ بَنى المأمونُ ببُوران بنتِ الحسن بن سَهل؛ فقدِم ابراهيم ابن العباس علينا ودخل الى الحسن بن سَهل فأنشده :

---

(١) الكوم : الابل الضخمة العظيمة السنام، الواحد أكوم والانثى كوماء .

(٢) فم الصلح : نهر كبير فوق واسط .

لِيهنِئكَ أصهارٌ أذلَّت بعزِّها خدوداً وجدَّعتَ الأنوفَ الرَّواغما
جمعتَ بها الشملَينِ من آل هاشمٍ وحُزتَ بها للأكرمينَ الأكارما
بَنوكَ غدَوْا آلَ النبيِّ ووارثو الـخلافةِ والحاوُون كِسرى وهاشما

فقال له الحسن: «شِنشِنة أعرفها من أخزم» أي إنّك لم تزل تمدحنا، ثم قال له: أحسنَ الله عنّا جزاءك يا أبا إسحاق؛ فما الكثير من فِعلنا بك بجزاء لليسير من حقّك.

أخبرني عمي قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال:

أنشدني ابراهيم بن العباس لنفسه في قَينة اسمها سامِر كان يهواها فغضبتْ عليه:

وعلّمتني كيف الهوى وجَهالتِه وعلّمكم صبري على ظُلمكم ظُلمي
وأعلم ما لي عندكم فيردّني هوايَ الى جهل فأقصِر عن عِلمي

شعره في قصر الليل:

أخبرني الصوليّ قال:

سمعتُ عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر يقول: لا يُعلَمُ لقديمٍ ولا لمحدَثٍ في قِصَر الليل أحسن من قول ابراهيم بن العباس:

وليلةٍ من الليالي الزُّهرِ قابلتُ فيها بدرَها ببدرِ
لم تك غيرَ شَفَقٍ وفجرِ حتى تولّت وهي بِكر الدهرِ

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن عمّار قال حدثني أحمد بن بِشر المَرثَديّ قال:

كان ابراهيم بن العباس يوماً عند أحمد بن أبي دُواد، فلماً خرج من عنده لَقِيَه محمد أبنُ عبد الملك الزيّات وهو خارج من داره؛ فتبيّن ابراهيمُ في وجه محمدٍ الغضبَ فلم يخاطبه في العاجل بشيء. فلما أنصرف الى منزله كتب اليه :

دَعني أُواصِل مَن قطعتَ يراك بي إذ لا يراكا
إنّي متى أهجُر لهجرك لا أضرّ به سواكا
واذا قطعتُك في أخيك قطعتُ فيك غداً أخاكا
حتى أرى مُتقسّماً يومي لذا وغدي لذاكا

مسح المداد بكم ثوبه وشعره في ذلك :

أخبرني الصوليّ قال حدثني أبو العَيناء قال :

كنت عند ابراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً، فنقَّط من القلم نقطةً مُفسدةً فمسَحها بكمّه؛ فتعجّبتُ من ذلك؛ فقال : لا تَعجَب، المال فرع والقلم أصل، ومن هذا السَّواد جاءت هذه الثياب، والأصل أحوج الى المُراعاة من الفرع. ثم فكّر قليلًا وقال :

اذا ما الفكر ولّد حُسنَ لفظٍ وأسلَمه الوجود الى العِيانِ
ووشّاه فنَمنَمه مُسِدٌّ[1] فصيحٌ في المقال بلا لسان
ترى حُلَل البيان مُنشّرات تجلّى بينها صُوَرُ المعاني

اتهمه المأمون بإفشاء سر مقتل الفضل بن سهل :

أخبرني الصوليّ قال حدثني محمد بن صالح بن النطّاح قال :

---

(١) مسد : مصيب السداد .

لمّا عزم المأمون على الفتك بالفَضل بن سَهل، وندَب له عبدَ العزيز بن عمران الطائيّ، ومُؤنِساً البصريّ، وخَلفاً المصريّ، وعليّ بن أبي سَعد ذا القلمين، وسِراجاً الخادم، نُمِيَ الخبرُ الى الفضل، فأظهره للمأمون وعاتبه عليه. فلمّا قُتِل الفضلُ وقتل المأمون قتلَته، سأل من أين سقط الخبر الى الفضل؟ فعُرِّف أنه من جهة ابراهيم بن العباس، فطلبه فأستتر. وكان ابراهيم عرَف هذا الخبرَ من جهة عبد العزيز بن عِمران، وكان الفضل أستكتب ابراهيمَ لعبد العزيز بن عِمران، فأخبر به الفضل. قال: وتحمّل ابراهيمُ بالناس على المأمون، وجرّد في أمره هشاماً الخطيبَ المعروفَ بالعبّاسيّ وكان جريئاً على المأمون لأنه ربّاه، وشخص اليه الى خُراسان في فتنة ابراهيم بن المهديّ، فلم يُجِبه المأمون الى ما سأل. فلقِيَه ابراهيم مستتراً وسأله عمّا عمِل في حاجته. فقال له هشام: قد وعَدني في أمرك بما تُحِبّ. فقال له ابراهيم: أظنّ أن الأمر على غير هذا! قال: وما تظنّ؟ قال: محلُّك عند أمير المؤمنين أجلّ من أن يَعِدك شيئاً فترضى بتأخيره، وهو أكرم من أن يعِد مثلَك شيئاً فيؤخّرَه، ولكنك سمعتَ ما لا تحبّ فيّ فكرهت أن تغُمّني به فقلت لي هذا القول، وأحسَنَ الله على كل الأحوال جزاءك، فمضى هشام الى المأمون فعرّفه خبرَ ابراهيم، فعجِب من فِطنته وعفا عنه. قال: وفي هشام يقول ابراهيم ابن العباس:

مَن كانت الأموال ذُخراً له ... فإنّ ذُخري أملي في هشام
فتًى يَقِي اللّامةَ عن عِرضه ... وأنهَب المالَ قضاء الذِمام

مدح الفضل بن سهل:

أخبرني عمي قال حدثني ابو الحسين بن ابي البَغل قال:

دخل ابراهيم بن العباس على الفضل بن سَهل فأستأذنه في الإنشاد، فقال هاتِ، فانشده:

يُمضي الأمورَ على بديهته ... وتُريه فكرتُه عواقبَها
فيظَلُّ يُصدِرُها ويوردُها ... فيَعُمُّ حاضِرَها وغائبَها
وإذا ألمَّتْ صَعبةٌ عظُمتْ ... فيها الرزيَّةُ كان صاحبَها
المستقِلَّ بها وقد رَسبتْ ... ولوتْ على الأيام جانبَها
وعدَلْتَها بالحقِّ فاعتدلتْ ... ووسِعت راغبَها وراهبَها
واذا الحروبُ غلَتْ بعثتَ لها ... رأياً تَفُلُّ به كتائبَها
رأياً اذا نبَتِ السيوفُ مضى ... عزمٌ بها فشفى مَضاربَها
أجرى الى فئة بدولتها ... وأقام في أخرى نَوادبَها
واذا الخطوبُ تأثلتْ ورَستْ ... هدَّتْ فواصلُه نوائبَها
واذا جرتْ بضميره يَدُه ... أبدتْ به الدنيا مناقبَها

وأنشدني عمي لإبراهيم بن العباس في الفضل بن سهل وفيه غِناء :

صوت

فلو كان للشكر شخصٌ يَبين ... اذا ما تأمله الناظرُ
لمثَّلتُه لك حتى تراه ... فتعلم أني أمروٌ شاكر

الغناء لأبي العُبَيس ثقيل أول . وفيه لرَذاذ ثاني ثقيل . حدثني أبو يعقوب اسحاق ابن يعقوب النُّوبَختيّ قال حدثني جماعة من عمومتي وأهلِنا أن رذاذاً صنع في هذين البيتين لحناً أعجب به الناسُ واستحسنوه ، فلما كثُر ذلك صنع فيه أبو العُبَيس لحناً آخر ، فسقط لحنُ رذاذ واختار الناس لحنَ أبي العبيس .

مدح المتوكل وولاة العهود فأجازوه :

أخبرني حَنظلة قال حدثني ميمون بن هارون قال :

لمّا عقد المتوكّلُ لولاة العهود من ولده ركِب بسُرَّ من رأى ركبةً لم يُرَ أحسنُ منها ، وركب ولاةُ العهود بين يديه ، والأتراكُ بين أيديهم أولادُهم يمشون بين يدَي المتوكِّل بمناطق الذهب، في أيديهم الطَّبَرْزِينات[1] المُحلّاةُ بالذهب، ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجوانحيّات[2] وسائر السفن ، وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العروس ، وأذِن للناس فدخلوا اليه . فلما تكاملوا بين يديه ، مَثَل ابراهيم بن العباس بين الصفّين ، فاستأذن في الإنشاد فأذِن له ، فقال :

ولمّا بدا جعفرٌ في الخميس بين المطل[3] وبين العروسِ
بدا لابساً بهما حُلّةً أزيلتْ بها طالعاتُ النُّحوس
ولمّا بدا بين أحبابه وُلاةِ العهود وعزِّ النفوس
غدا قمراً بين أقماره وشمساً مُكلَّلة بالشموس
لإيقاد نارٍ وإطفائها ويومِ أنيقٍ ويومٍ عَبوس

ثم أقبل على ولاة العهود فقال :

أضحتْ عُرى الإسلام وهي منوطةٌ بالنَّصر والإعزاز والتأييدِ
بخليفةٍ من هاشمٍ وثلاثةٍ كَنَفوا الخلافةَ من وُلاة عهود
قمرٌ توافتْ حولَه أقمارُه يَحْفُفْنَ مطلعَ سعده بسعود
رفعتهمُ الأيامُ وارتفعوا به فسَمَوْا بأكرمِ أنفسٍ وجدود

قال : فأمر له المتوكِّل بمائة ألف درهم ، وأمر له وُلاةُ العهود بمثلها .

---

(١) الطبرزين : آلة من السلاح تشبه الطبر (الفأس) او هو الطبر بعينه .

(٢) الجوانحيات : نوع من السفن كما هو ظاهر من السياق .

(٣) المطل : اسم مكان او قصر .

أخبرني عمي قال: اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن برد الخيار في مجلس عبيد الله بن سليمان قبل وزارته، فجعل هارون يُنشد من أشعار أبيه محاسنها، ويفضلها ويقدّمها. فقال له ابن برد الخيار: ان كان لأبيك مثلُ قول ابراهيم بن العباس:

أسدٌ ضارٍ اذا هيّجتَه   وأبٌ بَرٌّ اذا ما قَدَرا
يعرِف الأبعدَ إن أثرَى ولا   يعرِف الأدنى اذا ما افتقرا

أو مثلُ قوله:

تلِج السنون بيوتَهم وترى لهم   عن جار بيتهم ازورارَ مناكبِ
وتراهمُ بسيوفهم وشِفارهم   مُستَشرفين لراغبٍ أو راهبِ
حامين أو قارين حيث لقيتَهم   نَهْبَ العُفاة ونُهزَةَ للرّاغب

فاذكُره وافخرْ به، وإلّا فأقلِلْ من الافتخار والتّطاول بما لا طائل فيه؛ فخجل هارون. وقال عبيد الله بن سليمان: لعمري ما في الكُتّاب أشعر من أبي اسحاق وأبي علي، (يعني عمه الحسن بن وَهب) ثم أمر بعضَ كتّابه بكَتْب المقطوعتين اللتين أنشدهما ابن برد الخيار.

أنشدني علي بن سليمان الأخفش لإبراهيم بن العباس يُهنّئ الحسن بن سهل بصِهر المأمون:

هَنتْكَ أكرومةٌ جُلِّلتَ نعمتَها   أعلتْ وليَّك وأجتثّتْ أعاديكا
ما كان يحيا بها إلا الإمامُ وما   كانت اذا قُرنت بالحقّ تعدوكا

أخبرني عمي قال حدثني محمد بن داود بن الجرّاح قال حدثني أبو محمد الحسن ابن مَخلَد قال:

أودعَ محمد بن عبد الملك الزّيّات مالًا عظيماً وجوهراً نفيساً، وقد رأى تغيُّراً من الواثق نخافه وفرّق ذلك في ثِقاته من أهل الكَرْخ ومُعامِليه من التّجار. وكان ابراهيم بن العباس يُعاديه ويَرْصُد له بالمكاره لإساءته اليه، فقال أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثقَ يُغريه به.

نصيحةٌ شأنَها وزيرُ ... مُستَحفَظٌ سارقٌ مُغيرُ
ودائعٌ جَمّةٌ عِظام ... قد أُسبِلتْ دونَها السُّتور
تسعةُ آلافِ ألفِ ألفٍ ... خِلالَها جوهرٌ خطيرِ
بجانبِ الكَرْخ عند قومٍ ... أنت بما عندهم خبيرِ
والمَلِكُ اليوم في أمور ... تَحدُثُ من بعدها أمور
قد شَغَلته مُحقَّراتٌ ... وصاحبُ الكارَةِ(١) الوزير

مدح المعتز بشعر:

أنشدني علي بن سليمان الأخفش لإبراهيم بن العباس يمدح المعتزّ وفيه غناء:

صوت

سَحُورُ مَحاجِرِ الحَدَقَهْ ... مليحٌ والذي خَلَقَهْ
سَواءٌ في رِعايتِه ... مُجانِبُه ومَن عَشِقَه
لعيني في محاسنه ... رياضُ محاسنٍ أنِقَه
فأحياناً أُنزّهُها ... وطوراً في دمٍ غَرِقَه

يقول فيها في مدح المعتزّ بالله:

---

(١) الكارة: ما يجمع ويشد، ويعني بها الصُّرة التي فيها المال.

فيا قمراً أضاء لنا يُلألِئُ نورُه أُفقَهْ
يُشَبِّهه سنا المعتزِّ ذو مِقَةٍ اذا رَمَقَه
أميرٌ قلَّد الرحمنُ أمرَ عباده عُنُقَه
وفضَّله وطيَّبه وطهَّر في الورى خُلُقَه

في الأربعة الأبيات الأوَل رَمَلٌ ذكر الهشاميّ أنه لابن القصّار، ووجدتُه في بعض الكتب لعَريب.

أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العباس يقولها لأحمد بن المدبّر وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنّئاً، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه، وبلغه أنه كان يحرّض عليه ابن الزيّات:

وكنتَ أخي بالدّهر حتى اذا نَبا نَبَوْتَ فلمّا عاد عُدتَ مع الدّهر
فلا يومَ إقبال عَدَدْتُك طائلاً ولا يومَ إدبارٍ عددْتُك في وِتْر
وما كنتَ إلّا مثلَ أحلام نائمٍ كِلا حالتَيْكَ من وفاء ومن غَدْر

وأنشدني الصولي له في أحمد بن المدبر أيضاً وقد عاتبه أحمد بن المدبّر على شيء بلغه فقال:

هَبِ الزّمانَ رماني الشأنُ في الخُلّانِ
فيمَنْ رماني لمّا رأى الزمانَ رماني
ومن ذَخَرتُ لنفسي فصار ذُخْرَ الزمان
لو قيل لي خُذ أماناً من أعظم الحَدَثان
لمَا أخذتُ أماناً إلّا من الإخوان

* * *

ومن أخبار المعتضد بالله الجاريةِ مجرى هذا الكتاب

المعتضد وغلامه بدر :

حدثني عمي عن جدي رحمهما الله قال قال لي عُبيد الله بن سليمان ، وكان يأنَس بي أنساً شديداً لقديم الصُّحبة وائتلاف المَنشأ : دعاني المعتضد يوماً فقال : ألا تُعاتب بدراً على ما لا يزال يستعمله من التخرّق في النفقات والإثابات والزّيادات والصِّلات ! وجعل يؤكد القول عليّ في ذلك ؛ فلم أخرج عن حضرته حتى دخل اليه بدر فجعل يَستأمره في إطلاقات مُسرفةٍ ونفقات واسعة وصلات سنيَّة وهو يأذن له في ذلك كلِّه . فلما خرج رأى في وجهي إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بيني وبينه ؛ فقال لي : يا عُبيد الله قد عرفتُ ما في نفسك ، وأنا وإيّاه كما قال الشاعر :

صوت

في وجهه شافعٌ يمحو إساءته ... من القلوب مطاعٌ حيثما شَفَعا
مُستقبَلٌ بالذي يَهوى وإن كثُرتْ ... منه الإساءةُ مغفورٌ لما صَنَعا

وفي هذين البيتين خفيفُ رَمَلٍ .

حدثني محمد بن ابراهيم قُرَيض قال حدثني أحمد بن العلاء قال :

غنّيتُ المعتضِدَ :

كِلَاني تَوِجاني ... وبشعري غنِّياني
أطلِقاني من وَثاقي ... واشْدُداني بعِناني

فأستحسنه جداً، ثم قال لي: ويحك يا أحمد! أمَا ترى زَهوَ المُلك في شعره وقوله:

كِلَـلاني تَوِّجاني وبشعري غنيـاني

وأستعاده مِراراً، ثم وصلَني كلَّ مرَّة أستعاده بعشرة آلاف درهم، وما وصل بها مغنِّياً قبلي ولا بعدي. قال وأستعاده منّي ستَّ مرّاتٍ ووهب لي ستِّين ألفاً. وقال التُّوشجاني: بل وصله بعشرة آلاف درهم مرَّةً واحدة.

صنعة أولاد الخلفاء الذكور منهم والاناث

فأوّلهم وأتقنهم صنعةً وأشهرهم ذِكراً في الغناء ابراهيم بن المهدي ، فإنه كان يتحقق به تحققاً شديداً ويبتذِل نفسه ولا يستتر منه ولا يُحاشي احداً . وكان في أوّل أمره لا يفعل ذلك إلّا من وراء سِتر وعلى حال تصوُّنٍ عنه وترفُّع ، إلا أن يدعوَه اليه الرشيد في خَلوة والأمين بعدَه . فلمّا أمِنه المأمونُ تهتّك بالغناء وشُربِ النّبيذ بحضرته والخروج من عنده ثَملًا ومع المغنّين ، خوفاً منه وإظهاراً له أنه قد خلع رِبقَةَ الخلافة من عُنُقه وهتَك سِترَه فيها حتى صار لا يصلُح لها . وكان من أعلم الناس بالنَّغَم والوتَر والإيقاعات وأطبعِهم في الغناء وأحسنِهم صوتاً . وهو من المعدودين في طِيبِ الصوت خاصّةً ؛ فإن المعدودين منهم في الدولة العباسية : ابن جامع وعمرو بن أبي الكَنَات وابراهيم بن المهدي ومُخارق . وهؤلاء من الطبقة الأولى ، وان كان بعضهم يتقدّم . وكان ابراهيم مع علمه وطبعه مُقَصِّراً عن أداء الغناء القديم وعن أن ينحوَه في صنعته ، فكان يَحذِف نغم الأغاني الكثيرةِ العمل حذفاً شديداً ويُخفِّفها على قَدْر ما يَصلُح له ويفي بأدائه . فإذا عِيب ذلك عليه قال : أنا ملكٌ وابن ملك ، أغنّي كما أشتهي وعلى ما ألتذّ . فهو أول من أفسد الغناء القديمَ ، وجعل للناس طريقاً الى الجسارة على تغييره . فالناس الى الآنَ صِنفان : من كان منهم على مذهب اسحاق وأصحابه ممن كان يُنكر تغيير الغناء القديم ويُعظِم الإقدام عليه ويَعيب مَن فعله ، فهو يغنّي الغناء القديمَ على جهته أو قريباً منها . ومن أخذ بمذهب ابراهيم بن المهدي أو اقتدى به مثل مخارق وشاريةَ ورَيِق ومن أخذ عن هؤلاء إنما يغنّي الغناء القديم كما يشتهي هؤلاء لا كما غنّاه من يُنسَب اليه ، ويجد على ذلك مساعدين ممن يشتهي أن يَقرُبَ عليه مأخذُ الغناء ويكره ما ثقُل وثقُلت أدواره ، ويستطيل الزمانَ في أخذ الغناء الجيّد على جهته بقِصَر معرفته . وهذا اذا اطّرد فإنما الصنعة

لمن غنّى في هذا الوقت لا للمتقدّمين ؛ لأنهم اذا غيّروا ما أخذوه كما يرَون وقد غيّره مَن أخذوه عنه وأخذ ذلك أيضاً عمّن غيّره ، حتى يمضي على هــذا خمسُ طبقات او نحوُها ، لم يتأدّ الى الناس في عصرنا هذا من جهة الطبقة غِناء قديم على الحقيقة البتّة . وممن أفسد هذا الجنسَ خاصّةً بنو حَمْدون بن اسماعيل فإن أصلهم فيه مُخارق ، وما نفع الله أحداً قطّ بما أخذ عنه ، وزِرياب الواثقيّة فإنها كانت بهذه الصورة تُغيّر الغناء كما تريد ، وجواري شارية وريّق . فهذه الطبقة على ما ذكرتُ . ومَن عداهم من الدُّور بمثل دُورِ عَريب ودورِ جواريها والقاسم بن زُرزور وولده ودورِ بَذْل الكبرى ومن أخذ عنها ، وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن مُعاذ ودورِ آل الرَّبيع ومن جرى مجراهم ممن تمسّك بالغناء القديم وحمله كما سمعه ، فعسى أن يكون قد بقي ممن أخذ بذلك المذهب قليلٌ من كثير ، وعلى أن الجميع من الصحيح والمُغيّر قد انقضى في عصرنا هذا .

فمن مشهور غِناء ابراهيم بن المهديّ .

صوت

هل تَطمِسون من السماء نجومَها ... بأكفِّكم أو تَستُرون هــلالَها
أو تدفعون مقالةً من ربِّكم ... جِبريلُ بلّغها النبيّ فقالها
طرَقتك زائرةً فحيِّ خيالهـا ... زهراء تخلِط بالدَّلال جمالهـا

الشعر لمروان بن أبي حَفصة . والغناء لإبراهيم بن المهدي ، ثقيلٌ أوّل بالبنصر ، وذكر حبش أن فيه لابن جامعٍ لحناً ماخورياً .

اخبار مروان بن ابي حفصة ونسبه

نسبه وشيء من اخبار آبائه :

هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حَفصة. ويُكنى أبا السِّمْط. واسم أبي حَفصة يزيد. وذكر النَّوفلي عن أبيه أنه كان يهودياً، فأسلم على يَدَي مَروانَ بنِ الحَكَم. وأهله يُنكرون ذلك ويذكرون أنه من سَبْي إصْطَخر[1]، وأن عثمان اشتراه فوهبه لمروان بن الحكم. وأخبرنا يحيى بن علي بن يحيى قال حدثنا محمد بن إدريس بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة بمثل ذلك. قال: وشهد أبو حفصة الدَّار[2] مع مولاه مروان بن الحكم، وقاتل قتالاً شديداً وقتل رجلاً من أسلَمَ يقال له بَنان. وجُرح مروان يومئذٍ، أصابته ضربة قطعتْ عِلباءه[3] فسقط، فوثب عليه أبو حفصة واحتمله، فجعل يحمله مرّة على عنقه ومرّة يجرُّه، فيتأوّه؛ فيقول له: اسكت واصبِر؛ فإنه ان علموا أنك حي قُتلتَ. فلم يزل به حتى أدخله دار امرأة من عَنَزة فَداواه فيها حتى بَرِئ؛ فأعتقه مروان ونزل له عن أمّ ولدٍ له يقال لها سُكّر كانت له منها بنت يقال لها حَفصة؛ فحضَنها، فكُنّيَ أبا حَفصة؛ فحفصةُ بنت مروان. قال: وكان مروان اذا وليَ المدينةَ وجّه أبا حَفصة الى اليمامة — وكانت مُضافةً الى المدينة — ليجمع ما فيها من المال

(١) إصطخر: بلدة بفارس، وهي من اعيان حصونها ومدنها.

(٢) يريد دار عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وذلك أنه يوم هاجت الفتنة عليه لزم داره فحصروه فيها حتى قتلوه وسمي ذلك بيوم الدار.

(٣) العلباء: عصبة صفراء في صفحة العنق.

ويحمله اليه . قال : فمرّ أبو حفصة بقرية من قُرَى اليمامة يقال لها العِرض ، فوقف على باب فأستسقى ماء ، فخرجت اليه جارية مُعْصِر (١) فسقته فأعجبته ؛ فسأل عنها ليشتريها ؛ فقيل له : هي حرّة ، وهي مولاةٌ لبني عامر بن حنيفة . فمضى حتى قدِم حَجراً (٢) ، ثم تبِعتها نفسُه فتزوّجها ، فلم يخرج من اليمامة حتى حَملتْ بيحيى بن أبي حَفصة ، ثم حملتْ بمحمد ثم بعبد الله ثم بعبد العزيز . فلما وقعتْ فتنة ابن الزُّبير خرج أبو حفصة مع مروان الى الشام .

قال محمد بن إدريس وحدثني أبي قال كان مروان بن أبي الجنوب يقول : أمّ يحيى بن أبي حفصة لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي ، وإن الشعر أتى آل أبي حفصة بذلك السبب . قال : وشهد أبو حَفصة مع مَروان يوم الجمل وقاتل قتالا شديداً . فلما ظفِر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، لجأ مروانُ الى مالك بن مِسمَع فدخل دارَه ومعه أبو حفصة ، فقال لمالك : أغلِق بابـك . فقال له مالك : إن لم أمنعك والبابُ مفتوحٌ لم أمنعك والباب مُغلَقٌ . فطلب علي رضي الله عنه مروان منه ، فلم يدفعه اليه إلا برهينة ، فدفع مالكٌ الرهينةَ الى أبي حفصة ، ومضى مروان الى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقـال لأبي حفصة : إن حدَث حدَثٌ بصاحبك فعليك بالرّهينة . فلمـا أتى مروانُ علياً كساه كسوةً ، فكساها مروانُ أبا حَفصة ، فغدا فيها أبو حفصة . وبلغ علياً رضي الله عنه ذلك فغضب وقال : كسوته كسوةً فكساها عبداً ! وشهد أبو حفصة مع مروان مَرْجَ (٣) راهِط ، وكان له بلاء . وكان أبو حفصة شاعراً .

قال أبو أحمد قال لي محمد بن إدريس أخبرني أبي أن أبا السِّمط مروان بن أبي الجنوب أنشده لأبي حَفصة يوم الدّار :

---

(١) أعصرت المرأة : بلغت عصر شبابها وأدركت .

(٢) حجر : حاضرة اليمامة .

(٣) مرج راهط : في غوطة دمشق من ناحية الشرق، وفيه كانت الواقعة بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس داعية ابن الزبير، فقتل مروان فيها الضحاك وخلصت له الخلافة .

وما قلتُ يومَ الدّار للقوم صالحوا أجلْ لا، ولا اخترتُ الحياةَ على القتلِ
ولكنني قد قلتُ للقوم جالدوا بأسيافكم لا يُخلَصَنّ الى الكهل

قال: وأنشدني لأبي حَفصة ايضاً:

لستُ على الزّحام بالأصر[1] إني لَوَرّادٌ حياضَ الشرّ
مُعاوِدٌ للكرّ بعدَ الكرّ

قال يحيى وأخبرني محمد بن إدريس قال:

عُكلٌ تدّعي أن أبا حَفصة منهم، يقولون: هو من كِنانةَ بن عَوف بن عبد مَناةَ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر، وقد كانوا استَعدَوا عليه مروانَ بن الحكم، وقالوا: إنما باعته عمّتُه لمجاعةٍ؛ فأبى هو أن يُقِرّ لهم بذلك. ثم استعدوا عليه عبد الملك بن مروان أيضاً؛ فأبى إلّا أنه رجل من العجم من سَبْي فارس، نشأ في عُكل وهو صغير. قال محمد بن إدريس: ووَلَدُ السَّموءل بن عادياء يدّعونه، والسموءل من غسّان. قال محمد: وزعم أهل اليمامة وعُكلٌ وغيرهم أنّ ثلاثةَ نَفَرٍ أتوا مروانَ بن الحكم وهم أبو حفصة ورجل من تميم ورجل من سُلَيم، فباعوا أنفسهم منه في مجاعة نالتهم؛ فاستعدى أهلُ بيوتاتهم عليهم، فأقرّ أحدُهم وهو السُّلَمي أنه إنما أتى مروانَ فباعه نفسه وأنه من العرب؛ فدسّ اليه مروانُ مَن قتله. فلما رأى ذلك الآخران ثَبَتا على أنهما مَوليان لمروان. فأخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال: زعم المدائني أنه كان لأبي حَفصة ابنٌ يقال له مروان سمّاه مروانُ بن الحكم باسمه، وليس بالشاعر، وأنه كان شجاعاً مجرّباً، وأمدّ به عبدُ الملك بن مروان الحجّاج وقال له: قد بعثنا اليك مولاي ابنَ أبي حفصة وهو يَعدِل ألف رجل. فشهد معه محاربةَ ابن

(١) من الصرير يقال: صر الرجل اذا صاح صياحاً شديداً.

الأشعث ، فأبلى بلاء حسناء وعُقِرت تحته عِدّةُ خيول ، فأحتسب بها الحجّاج عليه من عطائه . فشكاه الى عبد الملك وذمّ الحجّاجَ عنده ؛ فعوّضه مكانَ ما أغرمه الحجّاجُ . وكان يحيي جدّ مروان بن سليمان جواداً مُمدّحاً .

جرير يودع ابنه يحيي بن أبي حفصة :

أخبرنا محمد العبّاس اليزيدي قال حدثنا أبو سعيد السُكّري عن محمد بن حبيبَ عن أبن الأعرابي قال :

أراد جرير أن يوجّه ابنه بلالَ بنَ جريرٍ الى الشام في بعض أمره ، فأتى يحيي ابنَ أبي حفصة فأودعه إياه ، ثم بلغ بلالًا أنّ بعض بني أميّة يريد الخروج ، فقال لأبيه : لو كلّفتَ هذا القرشيّ أمري ! فقال له جرير :

أزاداً سوى يحيي تريد وصاحباً ألا إنّ يحيي نعم زادُ المسافرِ
وما تأمن الوَجناء[1] وقعةَ سيفه اذا أنفضوا أو قلّ ما في الغرائر

أخبرني أبو الحسن الأسدي قال حدثني الحسن بن عُليل العنزيّ قال :

تزوّج يحيي بن أبي حفصة بنتَ زياد بن هَوذةَ بن شمّاس بن لأي بن أنف الناقة ؛ فأستعدى عليه عمّاها عبدَ الملك بن مروان وقالا : أينكح إبراهيم بن عَدِيّ وهو من كنانة منك واليك بنتها ، وينكح هذا العبدُ هذه ! فقال عبد الملك : بل العبد بن العبد والله ابراهيم بن عديّ — وكان مغمور النسب في الإسلام — والله لَهذا أشرفُ منه ، وان لأبيه من البلاء في الإسلام ما ليس لأبيهما ولا لأبيكما ، وما أحِبُّ أنّ لي بيحيي ألفاً منكما . والله لو تزوّج بنتَ قيس بن

---

(١) الوجناء : الناقة الشديدة . وأنفض القوم : أرملوا ، وقيل هلكت أموالهم وفني زادهم .

عاصم ما نزعتُها منه . ومَن زوّجه فقد زوّج أبني هذا ، وأشار الى أبنه سليمان . فخرجا وتخلّف يحيي بعدهما ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنهما قد أنضيا رِكابَهما وأخلقا ثيابهما والتزما مؤونة في سفرهما ، فإن رأى أمـيرُ المؤمنين أن يعوّضهما عوَضاً ! فقال : أبَعْدَ ما قالا فيك !! قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : بل أُعطيك أنت مـا سألتَ لهما وتُعطيهما ما شئتَ . فكساه ووصله وحمله . فخرج يحيي اليهما ففرّق ذلك عليهما ، وزوّج أبنه سليمان بنتَ أحدهما ، وولدتْ بنتُ زياد منه أولاداً .

يهنئ الوليد بن عبد الملك ويعزيه :

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثنا الفضل اليزيدي قال حدثني اسحاق ابن ابراهيم الموصلي قال حدثني مروان بن أبي حفصة قال :

دخل يحيي بن أبي حفصة على الوليد بن عبد الملك لمّا بُويع له بالخلافة بعد أبيه ، فهنّأه وعزّاه وأنشده :

إنّ المنايا لا تغادر واحـداً ... يمشي ببزّته ولا ذا جُنّـهْ
لو كان خلقٌ للمنـايا مُفلِتاً ... كان الخليفـةُ مُفلِتاً منهنّه
بكتِ المنابرُ يوم مات وإنما ... بكت المنابرُ فَقْدَ فارسهنّه
لمّا علاهُنّ الوليدُ خليفـةً ... قلن أبنُه ونظـيرُه فسكنّه
لو غيرُه قرَعَ المنابرَ بعـدَه ... لَنكَرْنَه فطرَحْنَـه عنهنّه

أخبرني أبو الحسن الأسديّ قال حدثنا العنزيّ قال :

خطب يحيي بن أبي حفصة الى مُقاتل بن طُلبة بن قَيس بن عاصم المِنقَريّ

ابنتَه وأختَيْه فأنعم[١] له بذلك . فبعث يحيي الى بنيه سليمان وعمر وجميل ، فأتوه باَلجفر فزوّجهن بَنيه ثلاثتهم ، ودخلوا بهن ثم حملوهن الى حَجر . فقال القُلاحُ بن حَزْن المِنقري في ذلك :

سلامٌ على أوصال قيسِ بن عاصمٍ وإن كُنّ رَمساً في التراب بَواليا
أضيَعتموا خيلاً عِراباً فأصبحتْ كواسدَ لا يَنكِحن إلّا المواليـا
فلم أر أبراداً أجرّ لخزيـةٍ والأمَ مكسُواً والأمَ كاسيا
من الخزِّ واللائي بجحرٍ عليكمُ نُشِرْنَ فكنّ المُخزياتِ البواقيا

فقال يحيي يردُّ عليه :

ألا قبّح اللهُ القُـلاحَ ونِسوةً على البئرِ يُعطِشنَ الكلابَ من النَّتَنِ
نَكَحنا بناتِ القَوْم قيس بن عاصم وعمداً رغبنا عن بنات بني حَزْن
أباً كان خيراً من أبيك أرُومـةً وأوسطَ في سَعدٍ وأرجحَ في الوَزن
لِبَيتِ بني حَزْن من الذُّلِّ وَهنةٌ كوهنة بيت العنكبوت التي تَبني
ولم تَرَ حزنياً ، ولو ضمّ أربعاً وأبرزَ[٢] ، في فرج يَعِفُّ ولا بطن
وضيفُ بني حَزْنٍ يجوع وجارُهم اذا أمِن الجيرانُ ناءٍ من الأمن

أخبرنا يحيي بن علي قال أنشدني محمد بن إدريس ليحيي يذكر خروجَ يزيد بن المُهلَّب ويتأسف على الحجاج :

لا يُصلح الناس إلّا السيفُ إذ فُتِنوا لَهفي عليـك ولا حَجّاجَ للدينِ
لو كان حيّاً غداةَ الأزد إذ نكَثوا لم يُحصِ قتلاهُم حسّابُ ديوين

(١) انعم له : أفضل وقال نعم .

(٢) أبرز : اتخذ الابريز وهو الذهب الخالص يريد باتخاذ الابريز كثرة المال .

لم تأته الأزْدُ عند الباب تَرُبصه مثلَ الجراد تنزّى في التّبابينِ[١]
من كلّ أفحجَ[٢] ذي حنفٍ مُخالفة أرفتْ به السُفنُ عِلجاً غيرِ مجنون

قال أبو أحمد : وأنشدني ليحيي في سفيان بن عمرو والي اليامة :

لقد عصاني ابن عمرو اذ نَصحتُ له ولو أطعتُ لما زلّتْ به القدمُ
لو كنتُ أنفخ في فحم لقد وَقدتْ ناري ولكن رمادٍ ماله حَمَم

وليحي أشعارٌ كثيرة ؛ وإنما ذكرنا ها هنا منها ما ذكرنا لنعرف أعراقَ مروان في الشعر . وكان مروان أبخل الناس على يساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء ، لاسيا من بني العباس ، فإنه كان رسْمهم أن يُعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم .

أخبرني أحمد بن عمّار قال حدثنا علي بن محمد النّوفلي قال سمعت أبي يقول :

كان المهدي يُعطي مروان وَسلماً الخاسر عطيّة واحدة ، وكان سَلمٌ يأتي بابَ المهدي على البِرذَون قيمتُه عشرةُ آلاف درهم ، والسّرجِ واللجامِ المَقذُوذين[٣] ؛ ولباسُه الخزّ والوَشي وما أشبه ذلك من الثياب العالية الأثمان ، ورائحةُ المسك والغالية والطّيب تفوح منه ، ويجيء مروان وعليه فَرْوُ كبشٍ ، وقميصُ كرابيس[٤]

---

(١) تربصه : تنتظره . والتبابين : جمع تبان ، وهو سراويل صغير ، فارسي معرب .

(٢) الافحج : ذو الفحج ، يقال رجل افحج وامرأة فحجاء . والفحج هو تداني صدور القدمين وتباعد العقبين . والحنف : اعوجاج الرجل الى الداخل . وأرفت السفينة : دنت من الشط . وغير مجنون : غير منطى .

(٣) المقذوذ : المزين المسوّى .

(٤) الكرابيس : جمع كرباس وهو هنا الثوب الخشن .

وعمامةُ كرابيس ، وخُفّاً كَبْلٍ[١] وكساء غليظٌ مُنتنُ الرائحة ، وكان لا يأكل اللّحم بخلًا حتى يَقرَم اليه ، فإذا قَرِم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله . فقيل له : نَراك لا تأكل إلّا الرؤوسَ في الصَّيف والشتاء ، فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم ! الرأس أعرف سعره ، ولا يستطيع الغلام أن يغبِنَني فيه ، وليس بلحم يطبُخه الغلام فيقدِر أن يأكل منه ، إن مسّ عيناً أو أذُناً أو خدّاً وقفتُ عليه فآكل منه ألواناً ، آكل عينيه لوناً ، وأذُنَيه لوناً ، وغَلْصَمته[٢] لوناً ، وأُكفى مؤنة طَبخه ، فقد اجتمعتْ لي فيه مرافق .

أخبرنا يحيي بن عليّ قال أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر عن أبي العلاء المِنقَريّ قال حدثني موسى بن يحيي قال :

أوصَلنا الى مروان بن أبي حفصة في وقت من الاوقات سبعين الف درهم ، وجمع اليها مالًا حتى تمّت مائةَ الف وخمسين الف درهم ، وأودعها يزيد بن مَزْيد . قال : فبينا نحن عند يحيي بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا عليّ أودَعني مروان خمسين ومائة الف درهم وهو يشتري الخبز من البقّال . قال فغضِب يحيي ثم قال : عليّ بمروان ، فأُتِيَ به . فقال له : أخبرني أبو خالد بما أودعتَه من المال وما تبتاعه من البقّال ، والله لَما يُرى من أثر البخل عليك أضرُّ من الفقر لو كان بك .

أخبرنا يحيي قال وحدثني عمر بن شبّة عن أبي العلاء المِنقَريّ عن موسى بهذا الخبر ، إلّا أنه قال : فقال له يحيي : يا مروان ، والله لا البُخلُ أسوأ عليك أثراً من الفقر لو صرتَ اليه ، فلا تَبخَل .

---

(١) الكبل : الكثير الصوف من الفراء .

(٢) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق ، وقيل رأس الحلقوم بشواربه .

أخبرنا يحيى قال حدثني عمر بن شبّة قال :

بلغني أن مروان بن أبي حفصة قال ما فَرِحتُ بشيء قطّ فَرَحي بمائة الف وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ، فوزنتُها فزادت درهماً فاشتريتُ به لحماً .

أخبرنا يحيى قال حكى أبو غسان عن أبي عُبيدة عن جَهم بن خلف قال :

أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبي حفصة ، فأطعمنا تمراً ، وأرسل غلامه بفَلس وسُكُرُّجة[1] ليشتري له زيتاً . فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُنتَني ! قال : من فَلس كيف أخونك ! قال : أخذتَ الفَلس لنفسك واستوهبت الزيت .

أخبرنا يحيى قال أخبرنا أصحاب التَّوَّزيّ عنه قال :

مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سَفَراته وهو يريد مِنًى بامرأة من العرب فأضافته، فقال : لله عليّ إن وهب لي الأمير مائة الف أن أهب لك درهماً، فأعطاه ستين الف درهم، فأعطاها أربعة دوانق .

أخبرنا يحيى قال أخبرني أبي عن أبي دِعامة قال :

إشترى مروان لحماً بنصف درهم، فلما وضعه في القِدْر وكاد أن ينضج ، دعاه صديق له، فردّه على القصاب بنُقصان دانق . فشكاه القصاب وجعل ينادي : هذا لحمُ مروان، وظنّ أنه يأنف لذلك . فبلغ الرشيدَ ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ! قال : أكره الإسراف .

أخبرنا يحيى قال أخبرني أبي عن أبي دِعامة قال :

---

(١) السكرجة : الصحفة .

أنشدتُ لرجل من بني بكر بن وائل في مروان :

وليس لمروانٍ على العِرسِ غَيرةٌ ولكنَّ مروانًا يَغار على القِدْرِ

أخبرنا يحيى قال أخبرني أبو هِفَّان قال حدثني يحيى بن الجَون العَبديّ قال :

فرَّق المهديُّ على الشعراء جوائزَ، فأعطى مروان ثلاثين ألفًا . فجاءه أبو الشمقمق فقال له : أجزني من الجائزة . فقال له : أنا وأنتَ نأخذ ولا نُعطِي . قال : فاسمع منّي بيتين . قال : هاتِ . فقال أبو الشمقمق :

لِحية مروان تَقي عَنبرًا خالَط مسكًا خالصًا أذفرا[1]
فما يُقيان بها ساعةً إلّا يَعودان جميعًا خَرا

فأمر له بدرهمين . وأخبرني بهذا الخبر أحمد بن جعفر جَحظة عن أبي هِفَّان فذكر مثل الخبر الماضي وزاد فيه : فأعطاه عشرة دراهم، فقال له خذ هذه ولا تكن راوية الصِبيان .

أخبرني محمد بن مَزْيد بن أبي الأزهر قال حدثنا الزبير بن بكّار قال حدثني عمّي مُصعَب عن جدّي عبدِ الله بن مصعب قال :

دخل مروان بن أبي حفصة على موسى الهادي، فأنشده قولَه فيه :

تَشابه يومًا بأسِه ونوالِه فما أحدٌ يدري لأيّهما الفضلُ

فقال له الهادي : أيّما أحبّ اليك : أثلاثون ألفًا مُعجَّلةً أم مائةُ الف تدوَّن في الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين أنت تُحسن ما هو خير من هذا ولكنّك

(١) الأذفر : الجيد من المسك .

نسيته، أفتأذن لي أن أذكرك؟ قال نعم. قال: تُعجّل لي الثلاثين ألفاً وتدوّن المائة الألف في الدواوين. فضحك وقال: بل يعجّلان جميعاً؛ فحُمِل المالُ اليه أجمع.

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن عمّار قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني سليمان بن جعفر قال حدثني أحمد بن عبد الأعلى قال:

إجتمع مروان بن أبي حَفصة وأبو محمد اليزيديّ عند المهديّ؛ فابتدأ مروان يُنشد:

طَرَقتكَ زائرةٌ فحيِّ خيالها

فقال اليزيديّ: لحن والله وأنا أبو محمد. فقال له مروان: يا ضعيف الرأي أهـذا لي يقال! ثم قال:

بيضاء تخلط بالجمال دلالها

فقال له بعض من حضر: يا أمير المؤمنين أيتكنّى في مجلسك! (يعني اليزيديّ) فقال: أعذِروا شيخنا، فإن له حُرمة.

أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قال حدثنا عمر بن شبّة قال حدثني اسحاق الموصليّ قال أخبرني مروان بن أبي حَفصة قال قال لي الرشيد: هل دخلتَ على الوليد بن يزيد؟ فقلت: نعم دخلت مع عمومتي اليه. قال: فأخبِرني عنه. قال: فذهبتُ أتزحزح. فقال لي: إنّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول، فقل ما شئتَ. فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من أجمل الناس وأشدّهم وأشعرهم وأجودهم. دخلتُ عليه مع عُمومتي ولي لِمّةٌ فَينانة، فجعل يغمِز القضيبَ فيهـا ويقول: ولَدَتك سُكّر؟ – وهي أمُّ ولَدٍ لمروان بن الحكم فوهبها لجدّي أبي حفصة فولَدتْ

منه — فقلت له : نعم . قال لي الرشيد : فهل تحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، سمعته يُنشد في خلافته وذكر هشاماً وتحامُله عليه وما كان يريد من نقض أمره وولايته :

ليت هشاماً عاش حتى يرى ... مِكتَلَه[1] الأوفر قد أترِعا
كِلنا له الصاعَ التي كالها ... وما ظلمناه بها أصوُعا
وما أتينا ذاك عن بِدعةٍ ... أحلَّه الفُرقانُ لي أجمعا

فقال الرشيد : يا غلامُ ، الدواةَ والقرطاسَ ، فأُتِيَ بهما ، فأمر بالأبيات فكُتبت :

فضل خلف الاحمر شعراً له على شعر للأعشى :

أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المهلّبيّ قالا حدثنا عمر ابن شبّة قال حدثني خَلّادٌ الأرقط قال :

جاءنا مروان بن أبي حفصة الى حَلقة يونس ، فأخذ بيد خَلَف الأحمر فأقامه ، وأخذ خَلَفٌ بيدي فقمنا الى دار أبي عُمير فجلسنا في الدهليز . فقال مروان لخلفٍ : نشدتُك الله يا أبا مُحرِز إلّا نصحتني في شعري فان الناس يُخدَعون في أشعارهم ، وأنشده قوله :

طرقتْك زائرةً فحيِّ خيالها ... بيضاء تخلِط بالجمال دلالها

فقال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله :

رَحلتْ سُميَّةُ غُدوةً أجمالها

(١) المكتل : زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره يسع خمسة عشر صاعاً .

فقال له مروان : أتبلّغ بيَ الأعشى هكذا! ولا كلّ ذا! قال : ويحك ! إنّ الأعشى قال في قصيدته هذه :

فأصاب حبّةَ قلبها وطِحالها

والطِّحال ما دخل قطُّ في شيء إلا أفسده، وأنت قصيدتُك سليمة كلّها . فقال له مروان : إني اذا أردتُ أن أقول القصيدة رفعتُها في حول، أقولها في أربعة أشهر، وأنتحلها في أربعة أشهر، وأعرِضها في أربعة أشهر .

عرض شعراً له على يونس فمدحه وفضله على شعر للأعشى :

وأخبرني بهذا الخبر هاشم بن محمد الخزاعيّ قال حدثنا عيسى بن إسماعيل عن محمد بن سلّام قال أبو دُلَف هاشم بن محمد وحدثني به الرّياشيّ عن الأصمعي قال :

جاء مروان بن أبي حفصة الى حَلقة يونس، فسلّم ثم قال لنا : أيُّكم يونس؟ فأومأنا اليه . فقال له : أصلحك الله! إني أرى قوماً يقولون الشعر، لأنْ يَكشِف أحدهم سوءته ثم يمشيَ كذلك في الطريق أحسنُ له من أن يُظهر مثلَ ذلك الشعر . وقد قلتُ شعراً أعرِضه عليك، فإن كان جيّداً أظهرتُه، وإن كان رديئاً سترتُه . فأنشده قولَه :

طرقتكَ زائرةً فحيِّ خيالها

فقال له يونس : يا هذا إذهب فأظهر هذا الشعر فأنت والله فيه أشعر من الأعشى في قوله :

رَحلتْ سُميّةُ غُدوةً أجمالها

فقال له مروان : سررتني وسُؤتني ، فأما الذي سررتني به فأرتضاؤك الشعر ، وأما الذي ساءني فتقديمُك إياي على الأعشى وأنت تعرف محلّه . فقال : إنما قدّمتُك عليه في تلك القصيدة لا في شعره كلّه لأنه قال فيها :

فأصاب حبّة قلبها وطِحالها

والطِّحال لا يدخل في شيء إلّا أفسده، وقصيدتُك سليمة من هذا وشِبهه .

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثني العباس بن ميمون طائع قال :

سمِعتُ الأصمعيّ ذكر مروان بن أبي حفصة فقال : كان مولّداً، لم يكن له علم باللغة .

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثني أحمد بن عُبيد الله عن العُتبيّ قال حدثني بعض أصحابنا قال :

أنشدنا مروانُ بن أبي حفصة يوماً شعر زهير ثم قال : زُهير والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : الأعشى أشعر الناس ، ثم أنشد شعراً لامرئ القيس فقال : أمرؤ القيس أشعر الناس، ثم قال : والناسُ واللهِ أشعرُ الناس . أي إن أشعر الناس من أنشدتُ له فوجدته قد أجاد ، حتى يُنتقل الى شعر غيره .

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن عمّار قال حدثني عليّ بن محمد النّوفليّ قال حدثني أبي قال :

إجتاز مروانُ بن أبي حفصة برجل من باهلةَ من أهل اليمامة وهو يُنشد قوماً كان جالساً اليهم شعراً مدح به مروان بن محمد، وإنه قُتل قبل أن يلقاه ويُنشده إياه، أوّله :

مَروانُ يابنَ محمدٍ أنت الذي زِيدَت به شَرَفاً بنو مروانِ

فأعجبته القصيدة، فأمهل الباهليَّ حتى قام من مجلسه، ثم أتاه في منزله فقال له: إني سمعتُ قصيدَتك وأعجبتني، ومروان قد مضى ومضى أهلُه وفاتكَ ما قد رُمته عنده؛ أتبيعني القصيدةَ حتى أنتحلَها، فإنه خيرٌ لك من أن تبقى عليك وأنت فقير؟ قال نعم. قال: بكم؟ قال: بثلثمائة درهم. قال: قد ابتعتُها؛ فأعطاه الدراهمَ وحلَّفه بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المُحرجة ألّا يَنتحلها ابداً ولا ينسبها الى نفسه ولا يُنشدَها، وانصرف بها الى منزله، فغيَّر منها أبياتاً وزاد فيها، وجعلها في مَعن، وقال في ذلك البيت:

مَعنُ بن زائدةَ الذي زِيدت به شرفاً الى شرف بنو شَيبان

ووَفد بها الى مَعن بن زائدة فملأ يديه، وأقام عنده مدةً حتى أثرى واتسعت حالُه. فكان معنٌ اول من رفع ذكره ونوَّه به. قال: وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومَراثٍ حسنةٌ.

أخبرني حبيب بن نصر المُهلَّبيُّ قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثني محمد بن نُعيم البَلخيّ أبو يونس قال حدثني مروان بن أبي حفصة وكان لي صديقاً قال:

كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً، وجعل فيه مالاً؛ فحدثني معن بن زائدة باليمن أنه اضطُرّ لشدّة الطلب الى أن أقام في الشمس حتى لوَّحت وجهَه، وخفّف عارضيه ولحيته، ولبس جُبّةَ صوف غليظة، وركِب جملاً من الجمال النقّالة ليمضيَ الى البادية فيقيم بها، وكان قد أبلى في حرب يزيد بن عمر بن هُبيرة بلاء حسناً غاظ المنصور وجدَّ في طلبه. قال مَعنٌ: فلما خرجتُ من باب حرب تَبِعني أسودُ متقلِّداً سيفاً، حتى اذا غِبتُ عن الحرس قبض على خِطام جملي فأناخه وقبَض عليّ؛ فقلت له: ما لكَ؟ قال: أنت طَلِبةُ أمير المؤمنين. قلت: ومن أنا

حتى يطلبني أميرُ المؤمنين ! قال : مَعنُ بن زائدة . فقلت : يا هذا اتّق الله ! وأين أنا من معن ! قال : دَعْ هذا عنك فأنا والله أعرفُ به منك . فقلت له : فإن كانت القصّة كما تقول فهذا جوهرٌ حملتُه معي يَفِي بأضعاف ما بذله المنصورُ لمن جاءه بي، فخُذه ولا تَسفِكْ دمي . قال : هاتِه فأخرجتُه اليه؛ فنظر اليه ساعة وقال : صدَقتَ في قيمته، ولستُ قابِلَه حتى أسألك عن شيء، فإن صدَقتني أطلقتُك . فقلت : قُل . قال : إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبِرني هل وهبتَ قطّ مالك كلّه ؟ قلت لا . قال : فنصفَه ؟ قلت لا . قال : فثُلُثَه ؟ قلت لا . حتى بلغ العُشر فاستحيَيتُ فقلت : أظنّ أنّي قد فعلتُ هذا . فقال : ما أراك فعلتَه ! أنا والله راجل، ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمتُه آلافُ دنانير، وقد وهبتُه لك، ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلمَ أن في الدنيا أجودَ منك، فلا تُعجبك نفسُك ولتَحقِرَ بعد هذا كلّ شيء تفعله، ولا تتوقّف عن مكرمة . ثم رمى بالعقد في حِجري وخلّى خِطامَ البعير وانصرف . فقلت : يا هذا قد والله فضحتَني، ولَسَفكُ دمي أهونُ عليّ مما فعلتَ، فخذ ما دفعتُه اليك فإنّي غنيٌّ عنه . فضحِك ثم قال : أردتَ أن تكذّبني في مَقامي هذا، والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً أبداً، ومضى . فوالله لقد طلبتُه بعد أن أَمِنتُ وبذلتُ لمن جاءني به ما شاء فما عرفتُ له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته .

قال : وكان سبب رضا المنصور عن مَعن أنه لم يزل مستتراً حتى كان يومُ الهاشميّة[١]، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثب مَعن وهو متلثّم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسناً، وذبّ القومَ عنه حتى نجا وهم يُحاربونه بعدُ، ثم جاء والمنصورُ راكب على بغلة ولجامُها بيد الربيع؛ فقال له : تنحّ فإني أحقّ باللِجام منك في هذا الوقت وأعظمُ فيه غَناء . فقال له المنصور : صدَق فادفعه اليه؛ فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحالُ . فقال له المنصور : من أنتَ لله أبوك ؟

(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح بالكوفة .

قال : أنا طَلِبتُك يا أمير المؤمنين مَعنُ بن زائدة . قال : قد أمّنك الله على نفسك ومالك، ومثلُك يُصطنع . ثم أخذه معه وخلع عليه وحَباه وزيّنه . ثم دعا به يوماً وقال له : إنّي قد أمّلتك لأمر، فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحبّ أمير المؤمنين — قال : قد ولّيتك اليمن، فابسُط السيف فيهم حتى يُنقَض حِلفُ ربيعةَ واليمن — قال : أبلغُ من ذلك ما يحبّ أميرُ المؤمنين . فولّاه اليمنَ وتوجّه اليها فبسط السيفَ فيهم حتى أسرف .

قال مروان : وقدِم مَعن بعقِب ذلك فدخل على المنصور فقال له بعد كلام طويل : قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شيء لولا مكانُك عنده ورأيه فيك لغضِب عليك . قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما تعرّضتُ لك منك، قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألفَ دينار لقوله فيك :

مَعنُ بن زائدةَ الذي زيدت به شرفاً الى شرف بنو شيبانِ
إن عُدّ أيامُ الفعالِ فإنّما يوماه يومُ نـدًى ويومُ طِعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بلغك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميّة مُعلِماً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعتَ حوزَته وكنتَ وِقاءه من وقع كلِّ مُهنّدٍ وسِنان

فاستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتَه ما أعطيته لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! والله لولا مخافة النِقمة عندك لأمكنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبحتُه إياها، فقال له المنصور : لله درُّك من أعرابيّ ! ما أهون عليك ما يَعِزُّ على الرجال وأهل الحزم !

أخبرني حبيب بن نصر قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثني عبد الله ابن محمد بن موسى قال أخبرني محمد بن موسى بن حمزة قال أخبرني الفضل بن الرّبيع قال :

رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سَلمٌ الخاسر وغيرُه ، فأنشده مديحاً فيه ، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروان بن أبي حفصة . فقال له المهدي : ألست القائل :

أَقمنا باليمامة بعد مَعنٍ ... مُقاماً لا نريد به زَوالا
وقُلنا أين نرحل بعد مَعنٍ ... وقد ذهب النّوالُ فلا نوالا

قد ذهب النّوالُ فيما زعمتَ ، فلِم جئتَ تطلب نوالنا ؟ لا شيء لك عندنا ، جُرّوا برجله ؛ فجرّوا برجله حتى أُخرج . قال : فلما كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء — وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في كل عام مرّة — فمثل بين يديه وأنشده بعد رابع أو بعد خامس من الشعراء :

طَرَقتك زائرةً فحيّ خيالَها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالَها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلُها ... قاد القلوبَ الى الصِبا فأمالها

قال : فأنصت الناسُ لها حتى بلغ الى قوله :

هل تَطمِسون من السماء نجومَها ... بأكُفّكم أو تسترون هلالَها
أو تَجحَدون مقالةً عن ربّكم ... جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها
شَهِدتْ من الأنفال آخرُ آية ... بتُراثِهم فأردتمُ إبطالَها

قال : فرأيت المهديَّ قد زحف من صدر مُصلّاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم . فكانت أوّل مائةِ ألف درهم أعطيها شاعرٌ في أيام بني العبّاس .

قال : ومضت الأيام ووليَ هارون الرشيدُ الخلافةَ ، فدخل اليه مروان ؛ فرأيته واقفاً مع الشعراء ثم أنشده قصيدة أمتدحه بها . فقال له : من أنت ؟ قال :

شاعرُك وعبدُك يا أمير المؤمنين مروان بن أبي حفصة. قال له: ألستَ القائل في مَعن بن زائدة! وأنشده البيتين اللذَين أنشده إيّاهما المهدي، ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه، لا شيء لك عندنا، فأُخرج. فلما كان بعد ذلك بأيام تلطّف حتى دخل؛ فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

لَعَمْرُكَ ما أنسى غَداةَ المُحَصَّب إشارةَ سَلمى بالبنـان المُخضَّب
وقد صـدَرَ الحُجّاجُ إلّا أقلَّهم مصادر شتى مَوكِباً بعد موكب

قال: فأعجبته، فقال: كم قصيدتُك من بيتٍ؟ فقال: ستون أو سبعون. فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً. فكان ذلك رَسمَ مروانَ عندهم حتى مات.

مدح المهدي في الرصافة فأجازه:

خبرني عمي قال حدثني الفضل بن محمد اليزيدي عن اسحاق قال:

دخل مروانُ بن أبي حفصة على المهدي في أوّل سنة قَدِم عليه. قال: فدخلتُ عليه في قصره بالرّصافة فأنشدته قولي فيه:

عذابُ أمـير المؤمنين ونائله أَمرٌّ وأحلى ما بلا الناسُ طعمَه
وإنّ قتيـلَ الله مَن أنت قاتله فإنّ طليقَ الله مَن أنت مُطلِقٌ
أبو جعفر في كلّ أمر يحـاوله كأنّ أمير المؤمنين محمـداً

قال: فأُعجب بها، وأمر لي بمال عظيم؛ فكانت تلك الصلةُ أوّلَ صلة سنيّـة وصلت إليّ في أيام بني هاشم.

مدح المهدي وذم عنده يعقوب بن داود فأجازه من خالص ماله:

أخبرني الحسن بن علي الخفّاف قـال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال

حدثني محمد بن عبد الله العَبْدي الراوية قال حدثني حسين بن الضحاك قال حدثني مروان بن أبي حفصة قال :

دخلتُ على المهدي في قصر[١] السلام ، فلما سلمتُ عليه ، وذلك بعَقِب سخطه على يعقوب[٢] بن داود ، قلت : يا أمير المؤمنين إنّ يعقوب رجل رافضي وإنه سمعني أقول في الوراثة :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ   لبَني البنات وراثةُ الأعمامِ

فذلك الذي حمله على عداوتي . ثم أنشدته :

كأنّ أمير المؤمنين محمداً   لرأفته بالناس للناس والدُ
على أنه من خالف الحقّ منهمُ   سقته يدَ الموت الحُتوفُ الرّواصد

ثم أنشدته :

أحيا أمير المؤمنين محمدٌ   سُنَنَ النبيّ حرامَها وحلالَها

قال فقال المهديّ : والله ما أعطيك إلا من صُلب مالي فأعذِرني ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم ، وكساني جُبّةً ومُطرَفاً ، وفرَض لي على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفاً أخرى .

مدح معناً فأعطاه عطايا سنية لم يستكثرها عليه ابن الاعرابي :

أخبرني عيسى بن الحسين الورّاق قال حدثنا أحمد بن الحارث الخرّاز قال

---

(١) ان قصر السلام من ابنية الرشيد بن المهدي بالرقة .

(٢) هو يعقوب بن داود السلمي ، كان وزيراً للمهدي ثم غضب عليه وسجنه في المطبق وما زال به حتى ايام هارون الرشيد .

حدثنا ابن الأعرابي أن مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وفد على معن بن زائدة فأنشده قوله :

بنو مطرٍ يومَ اللقاء كأنهم أسودٌ لها في بطن خفّان(١) أشبُلُ
همُ يمنعون الجارَ حتى كأنما لجارهمُ بين السماكين منزل
لهاميمُ(٢) في الإسلام سادوا ولم يكن كأوّلهم في الجاهليّة أوّل
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطَوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالَهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

قال : فأمر لي بصلة سنيّة وخلع عليَّ وحملني وزوّدني . قال ثم قال لنا ابن الأعرابيّ : لو أعطاه كلَّ ما عِلك لما وفاه حقّه . قال : وكان ابن الأعرابي يختم به الشعراء ، وما دوّن لأحدٍ بعده شعراً .

أخبرني حبيب بن نصر قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال أخبرني أحمد بن موسى بن حمزة قال :

رأيت مروان بن أبي حفصة في أيام محمد بن زُبيدة في دار الخلافة وهو شيخ كبير ، فسألته عن جرير والفرزدق أيُّهما أشعر ، فقال لي : قد سُئلتُ عنهما في أيام المهدي وعن الأخطل قبل ذلك ، فقلتُ فيهم قولًا عقدتُه في شعر ليَثبتَ . فسألته عنه فأنشدني :

ذهب الفرزدقُ بالهجاء وإنما حُلوُ القريض ومُرُّه لجريرِ
ولقد هجا فأمضّ أخطلُ تغلبٍ وحوى النُّهى ببيانه المشهور

(١) خفان كحسان : موضع كثير الغياض قرب الكوفة وهو مأسدة .

(٢) اللهاميم : جمع لهميم وهو السابق الجواد .

كلُّ الثلاثة قد أجاد فمدْحُه وهجاؤه قد سار كلَّ مَسيرِ
ولقد جَرَيتُ ففُتُّ غيرَ مُهلِّلٍ[١] بجراء لا قَرِفٍ[٢] ولا مبهور
إني لآنَفُ أن أحَبِّر مِدحةً أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرَّني حَسَد اللئام ولم يَزَل ذو الفضل يحسُده ذوو التقصير

قال : فلم يرَ أن يقدّم على نفسه غيرَها . وكتبتُ الأبيات عن فيه .

أخبرني محمد بن الحسن بن دُرَيد قال حدثني أبو حاتم السِّجِستاني قال حدثني العَنسي قال :

لمّا قدِم مَعن بن زائدة من اليمن ، دخل عليه مروان بن أبي حفصة والمجلس غاصٌّ بأهله ، فأخذ بعِضادَتَي[٣] الباب وأنشأ يقول :

وما أحجَم الأعداء عنك بَقيَّةً[٤] عليك ولكن لم يَرَوْا فيك مَطْمَعا
له راحتان الجودُ والحتفُ فيهما أبى الله إلا أن تَضُرَّ وتَنفَعا

قال فقال له مَعن : احتكم ، قال : عشرة آلاف درهم . فقال مَعن : رِبحنا عليك تسعين ألفاً . قال : أقِلني . قال : لا أقال الله من يُقيلك .

رمى محرز معناً بالظلم فرد عليه بما أخجله :

أخبرني عمي قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال حدثني أبي قال :

---

(١) هلل الرجل : جبن وفرّ .

(٢) القرف : الشديد الحمرة ولعله يعني به الهجين .

(٣) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .

(٤) البقية : الإبقاء .

لما قدِم مَعن بن زائـدة من اليمن أستقبله الناس ، وتلقّاه مروان بن أبي حفصة ، فأنشده قصيدةً يهنّئه فيها بقدومه وبرأي المنصور فيه ، وتلقّاه فيمن تلقّاه أبو القاسم[1] مُحرز فجعل يقول له : سفَكتَ الدماء وظلمتَ الناس ، وتعدّيت طورَكَ بذلك . فلما أكثر على مَعن ألتفت اليه ثم قال له : يا مُحرِز أخبِرني بأي خُفَّيْكَ تضرب اليوم : أبالسُّباعي أم بالثُّماني ؟ قال : فأنقطع وسكت خَجَلًا .

ودخل مَعن على المنصور ، فلما سلّم عليه وسأله قال له : يا مَعنُ ، أعطيتَ آبن حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك :

مَعنُ بن زائدةَ الذي زِيدَتْ به شرفاً الى شرفٍ بنو شَيبـان

فقال له : كلّا يا أميرَ المؤمنين ! بل أعطيتُه لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميّة مُعلِماً بالسيف دون خليفة الرحمن

فأستحيا المنصورُ من تَهجينه إيّاه فتبسم وقال : أحسنتَ يا مَعن في فعلك .

أخبرني الحسن بن علي المصري قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني علي بن ثَوْر قال حدثني أبو العبّاس العَدَوي قال :

لمّا وَلِيَ مَعن بن زائدة اليمنَ كان يحيى بن منصور الذُّهليّ قد تنسّك وترك الشعر . فلما بلغته أفعال مَعن وفَد اليه ومدحه ، فقال مروان بن أبي حفصة :

لا تَعـدَموا راحتَيْ مَعنٍ فإنهما بالجود أفتَنَتـا يحيى بنَ منصورِ
لما رأى راحتَيْ مَعن تدفّقتـا بنائلٍ من عطاء غـيرِ مَنزُورِ[2]

---

(١) هو ابو القاسم محرز بن ابراهيم احد قواد ابي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية .

(٢) يقال : اعطاه عطاء غير منزور : اذا لم يلح عليه فيه بل أعطاه عفواً .

ألقى المُسوحَ التي قد كان يَلبَسها وظـلّ للشعر ذا رَصفٍ وتحبيرِ

تزوجت امرأة من أهله في بني مطر فلم يرضهم :

أخبرني محمد بن مَزيَد وعيسى بن الحسين قالا حدثنا الزُّبير بن بكّار قال حدثني عبد الملك بن عبد العزيز قال :

ورد على مروان بن أبي حفصة كتاب وهو بالمدينة أن امرأة من أهله تزوّجت في قوم لم يَرْضَ صِهرَهم يقال لهم بنو مطر ؛ فقال في ذلك لأخيها :

لو كنتَ أشبهتَ يحيي في مناكحه لما تَنَقَّيتَ خلًا جـدُّه مَطَرُ
لله درّ جيـادٍ كنتَ سائسَها ضيَّعتها وبهـا التَّحجيلُ والغُرَرُ
نُبِئتُ خَولَةَ قالت يوم أنكحَها قد طالما كنتُ منك العارَ أنتظر

تهكم بالجني الشاعر فهجاه :

أخبرني الحسن بن علي الخفّاف قال حدثنا الحسن بن علي المعروف بحدّان[1] عن محمد بن حفص بن عمرو بن الأيهم الحنفيّ قال :

مرّ مروان بن أبي حفصة برجل من تَيم اللّات بن ثَعلبة يُعرَف بالجنيّ ؛ فقال له مروان : زعموا أنك تقول الشعر . فقال له : إن شئتَ عرّفتُك ذلك . فقال له مروان : ما أنت والشعر ، ما أرى ذلك من طريقتك ولا مذهبك ولا تقوله ! فقال الجنيّ : اجلس واسمع فجلس ؛ فقال الجنيّ يهجوه .

ثوَى اللؤمُ في العَجلان يوماً وليلةً وفي دار مروانٍ ثوى آخرَ الدّهرِ

---

(١) سمي بحدان وحدان بضم اوله وفتحه .

غـدا اللؤمُ يبغي مَطرَحاً لرِحاله فنقَّب في بَرِّ البلاد وفي البحرِ
فلمّا أتى مروانَ خيّم عنـده وقال رضِينا بالمُقـام الى الحشر
وليست لمروانٍ على العِرْس غَيرةٌ ولـكنَّ مرواناً يَغار عـلى القِدْر

فقال له مروان : ناشدتُك الله إلّا كففتَ ، فأنت أشعر الناس . فحلف الجنبيّ بالطلاق ثلاثاً أنه لا يكُفّ حتى يصير اليه بنفر من رؤساء أهل اليمامة ثم يقول بحضرتهم : قاق في أستي بيضة . فجلَبهم اليه مروان وفعل ذلك بحضرتهم ، وكان فيهم جدّي يحيي بن الأيهم ، فانصرفوا وهم يضحكون من فعله .

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمّار قال حدثني أبو عبد الله بن سليمان بن زيد الدَّوْسي قال حدثني الفضل بن العباس بن سعيد بن سَلْم بن قُتَيبة الباهلي قال حدثنا محمد بن حرب بن قَطَن بن قَبيصة بن مخارق الهلالي قال :

لمّا مات المهديّ وفدت العرب على موسى يهنّئونه بالخلافة ويعزُّونه عن المهدي؛ فدخل مروانُ بن أبي حفصة فأخذ بعِضادَتَيِ الباب ثم قال :

لقد أصبحتْ تختال في كلّ بلدةٍ بقبر أمـير المؤمنين المقابرُ
ولو لم تُسكَّنْ بابنه في مكانه لما برِحت تبـكي عليـه المنابر

قال فخرج الناس بالبيتين .

مدح عمرو بن مسعدة في مرضه :

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويَه قال حدثني إبراهيم بن المُدَبِّر قال :

مَرِض عمرو بن مَسعَدَة ، فدخل عليه مروان بن أبي حفصة وقد أبلّ من مرضه فأنشأ يقول :

صحّ الجسمُ يا عمرو لك التّمحِيصُ والأجرُ
ولله علينا الحمدُ والمِنّةُ والشكر
فقد كان شكا شوقاً اليك النّهيُ والأمر

قال فنحا نحوَه مُسلِم بن الوليد فقال :

قالوا أبو الفضل محمومٌ فقلت لهم نفسي الفِداء له من كل محذورِ
يا ليت عِلّته بي غير أن له أجرَ العليل وأنّي غير مأجور

رأى الغول في بعض سفراته ففزع :

أخبرني حبيب بن نصر المهلّبي قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثنا أبو حُذَيفة قال حدثني رجل من بني سُلَيم في مسجد الرّصافة قال أخبرني مروان بن أبي حفصة قال :

وفدتُ في ركب الى الرشيد فصِرنا في أرض مُوحشةٍ قَفرٍ ، وجنّ علينا الليل فسِرنا لنقطعها ، فلم نشعر إلّا بامرأة تسوق بنا إبلَنا وتحدو في آثارنا ، فاذا هي الغول . فلما لاح الفجر عدلتْ عنّا وأخذتْ عُرضاً[1] وجعلت تقول :

يا كوكبَ الصبح اليكَ عنّي فلستُ من صبح وليس مِنّي

قال : فما أذكر أني فزعت من شيء قطّ فزعي ليلتئذٍ .

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني علي بن الحسن الكوفي قال حدثني محمد بن يحيي بن أبي مُرّة التغلبيّ قال :

(١) العرض : الناحية .

مررت بجعفر بن عَفّان الطائيّ يوماً وهو على باب منزله، فسلّمت عليه، فقال لي: مرحباً يا أخا تَغلِب، إجلس فجلست: فقال لي: أمَا تَعجَب من ابن أبي حفصة لعنه الله حيث يقول:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البنات وِراثةُ الأعمامِ

فقلت بلى والله إني لأتعجّب منه وأُكثِر اللّعنَ له، فهل قلتَ في ذلك شيئاً؟ فقال: نعم قلت:

لِمَ لا يكون وإنّ ذاك لكائنٌ لبني البنات وِراثةُ الأعمامِ
للبنت نصفٌ كاملٌ من ماله والعمُّ متروكٌ بغير سِهام
ما للطّليق وللتُّراث وإنّما صلى الطليقُ مخافةَ الصَّمصام

لازمه صالح بن عطية الأضجم اياماً ثم قتله:

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عَمّار قال حدثني عليّ بن محمد بن سليمان النَّوفليّ قال حدثني صالح بن عطية الأضجَم قال:

لما قال مروان:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البنات وراثةُ الأعمام

لزِمتُه وعاهدتُ الله أن أغتاله فأقتلَه أيّ وقتٍ أمكنني ذلك، وما زلت ألاطفُه وأبِرُّه وأكتب أشعاره، حتى خُصِصتُ به، فأنِس بي جداً، وعرفتْ ذلك بنو حَفصة جميعاً فأنِسوا بي، ولم أزل أطلب له غِرّةً حتى مرِض من حُمّى أصابته، فلم أزل أظهر له الجزَع عليه وألازمه وألاطِفه، حتى خلا لي البيت يوماً فوثبتُ عليه فأخذتُ بحَلقه فما فارقتُه حتى مات، فخرجتُ وتركته، فخرج اليه أهله بعد ساعة

فوجدوه ميتاً، وارتفعت الصَّيحةُ فحضرتُ وتباكيت وأظهرتُ الجزعَ عليه حتى دُفن، وما فطن بما فعلت أحد ولا اتهمني به.

* * *

نشأته ونسب أمه شكلة :

ثم نعود الى ذكر ابراهيم بن المهديّ وأمّه شِكلة[١]. ويكنى أبا اسحاق. وشكلةُ أمّه مولّدة، كان أبوها من أصحاب المازيار، يقال له شاه أفرَند، فقُتِل مع المازيار وسُبيَتْ بنتُه شكلة، فحُملت الى المنصور، فوهبها لُمحيَّاةَ أمّ ولده فربّتها وبعثتْ بها الى الطائف فنشأت هناك وتفصّحت؛ فلما كبِرتْ رُدّت اليها. فرآها المهديّ عندها فأعجبته، فطلبها من مُحيَّاةَ فأعطته إياها، فولدت منه ابراهيم. وكان رجلاً عاقلاً فهماً دَيّناً أديباً شاعراً راويةً للشعر وأيامِ العرب خطيباً فصيحاً حسنَ العارضة. وكان إسحاق الموصليّ يقول: ما ولد العبّاس بن عبد المطّلب بعد عبد الله ابن العباس: رجلاً أفضل من ابراهيم بن المهديّ. فقيل له: مع ما تبذَّل له من الغِناء؟ فقال: وهل تمّ فضلُه إلا بذاك! حدثني بذلك محمد بن يزيد عن حمّاد عن أبيه. وكان أشدّ خلق الله إعظاماً للغِناء، وأحرصهم عليه، وأشدّهم منافسةً فيه. وكانت صنعته ليّنة، فكان اذا صنع شيئاً نسبه الى شاريةَ وريّق، لئلا يقع عليه فيه طعن أو تقريع، فقلّت صنعتُه في أيدي الناس مع كثرتها لذلك. وكان اذا قيل له فيها شيء، قال: إنما أصنع تطرُّباً لا تكسُّباً، وأغنّي لنفسي لا للناس فأعمل ما أشتهي. وكان حُسنُ صوته يستر عَوار ذلك كلِّه. وكان الناس يقولون لم يُرَ في جاهليّة ولا إسلام أخٌ وأختٌ أحسنُ غِناء من ابراهيم بن المهديّ وأخته عُليَّة.

---

(١) ضبط في القاموس بالقلم بفتح اوله. وفي الطبري بفتح اوله وكسره.

وكان يُماظُ(١) اسحاق ويُجادله، فلا يقوم له ولا يفي به، ولا يزال اسحاق يغلبه ويُغِصُّه بريقه ويَغُضُّ منه بما يظهر عليه من السَّقطات ويبيِّنه من خطئه في وقته وعجزِه عن معرفة الخطإ الغامض اذا مرَّ به؛ وقصورِه عن أداء الغناء القديم فيفضحه بذلك . وقد ذكرتُ قطعةً من هذه الأخبار في اخبار اسحاق وأنا أذكر هاهنا منها ما لم أذكر هناك .

ومما خالف ابراهيمُ بن المهديّ ومَن قال بقوله على اسحاق فيه : الثَّقيلان وخفيفُهما؛ فإنه سمَّى الثقيل الاول وخفيفَه الثقيلَ الثاني وخفيفَه، وسمَّى الثقيلَ الثاني وخفيفه الثقيلَ الاول وخفيفه؛ وجرت بينهما في ذلك مناظراتٌ ومجادلاتٌ ومراسلة ومكاتبة ومشافهة، وحضرهما الناس، فلم يكن فيهم مَن يفي بفصل ما بينهما والحكم لأحدِهما على صاحبه . ووضع لذلك مكاييلَ لتُعرَف بها أقدارُ الطرائق، وأمسكَ كلَّ واحد منهما الى آخر أقداره، فلم يصحّ شيء يُعمل فيه، إلّا أن قول ابراهيم بن المهديّ أضمحلّ وبطَل وتُرِك، وعمِل الناس على مذهب إسحاق؛ لأنه كان أعلم الرجلين وأشهرهما . وأوضح اسحاق أيضاً لذلك وجوهاً فقال : إنّ الثقيل الاول يجيء منه قدْران، الثقيل الاول التام، والقَدرُ الأوسط من الثقيل الاول، وجميعاً طريقتُه واحدةٌ لاتساعه والتمكُّنِ منه، والثقيل الثاني لا يجيء هذا فيه ولا يُقاربه . والثقيل الاول يمكن الإدراج في ضَربه لثِقَله، والثقيل الثاني لا يندرج لنقصه عن ذلك . ولهما في هذا كلام كثير ومخاطبات قد ذكرتُها في أخبارهما، وشرحتُ العِلَلَ مبسوطةً في كتابِ ألّفتُه في النَّغم شرحاً ليس هذا موضعَه ولا يصلُح فيه . وأما التَّجزئةُ والقسمةُ فإنهما أفنيا أعمارَهما في تنازعهما فيهما، حتى كان يمضي لهما الزمانُ الطويلُ لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما في قسمةِ وتجزئةِ صوتٍ واحدٍ فيه، وحتى كانا يخرجان الى كلّ قبيح، وحتى إنهما ماتا جميعاً وبينهما منازعة في هذا الصوت وقِسمَتِه :

---

(١) يماظ : ينازع .

حيّيا أمْ يعمرا قبل شحطٍ من النوى

لم يُفصَل بينهما فيها الى أن افترقا . ولو ذهبتُ الى ذكر ذلك وشرح سائر أخبار ابراهيم بن المهديّ وقصصه لمّا وَلِيَ الخلافة وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان، وحسنِ البيان، وجَودةِ الشعر، وروايةِ العلم، والمعرفة بالجدَل، وجزالةِ الرأي، والتصرُّف في الفقه واللغة، وسائر الآداب الشريفة، والعلوم النفيسة، والأدوات الرفيعة، لأطلتُ . وإنما الغرض في هذا الكتاب الأغاني أو ما جرى مجراها، لاسيما لمن كثُرت الروايات الحكايات عنه؛ فلذلك اقتصرتُ على ما ذكرتُه من أخباره دون ما يستحقّه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل .

كلمة لابراهيم بن المهدي عن نفسه في صنعة الغناء :

أخبرني عمي رحمه الله قال حدثني عليّ بن محمد بن بكر عن جدّه حمدون بن اسماعيل قال قال لي ابراهيم بن المهديّ :

لولا أنّي أرفَع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يعلم الناس معه أنهم لم يرَوْا قبلي مِثلي .

أخبرني عمي قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثني أحمد بن القاسم ابن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال حدثني أحمد بن ابراهيم بن المهديّ عن أبيه قال:

دخلتُ يوماً الى الرشيد وفي رأسي فَضلةُ خُمار، وبين يديه ابن جامع وإبراهيم الموصليّ . فقال : بحياتي يا ابراهيم غنِّي . فأخذتُ العود ولم ألتفت اليهما لما في رأسي من الفَضلة فغنّيتُ :

أسرى بخالدةَ الخيالُ ولا أرى شيئاً ألذَّ من الخيالِ الطارقِ

فسمعتُ ابراهيمَ يقول لابن جامع : لو طلَبَ هذا بهذا الغناء ما نَطلُب لَمَا أكلنا خبزاً أبداً . فقال ابن جامع : صدقتَ . فلمّا فرَغتُ من غنائي وضعتُ العودَ ثم قلت : خُذا في حقِّكما ودعا باطلَنا .

نسبة هذا الصوت

صوت

أسرى بخالدةَ الخيالُ ولا أرى شيئاً ألذَّ من الخيال الطارقِ
إنّ البليّةَ مَن تَملُّ حديثَه فانقع فؤادَك من حديث الوامق
أهواكِ فوق هوى النفوس ولم يزل مُذ بِنتِ قلبي كالجناح الخافق
طَرَباً إليكِ ولم تُبالي حاجتي ليس المُكاذِب كالخليل الصادق

الشعر لجرير . والغناء لابن عائشة رَمَلٌ بالوسطى عن عمرو .

غنى الرشيد وعنده سليمان بن أبي جعفر وجعفر بن يحيى :

أخبرني جَحظة قال أخبرني هِبَةُ الله بن ابراهيم بن المهديّ قال حدثني أبي ، وحدثني الصوليّ قال حدثني عَون بن محمد قال حدثني هبة الله — ولم يذكر عن أبيه — قال :

كان الرشيد يحبّ أن يسمع أبي . وقال جحظة عن هبة الله عن ابراهيم قال : كان الرشيد يحب أن يسمعني ، فخلا بي مرّاتٍ الى أن سمعني . ثم حضَرتُه مرّةً وعنده سليمان بن أبي جعفر ؛ فقال لي : عمُّك وسيّد ولدِ المنصور بعد أبيك وقد أحبّ أن يسمعك ؛ فلم يتركني حتى غنّيتُ بين يديه :

إذ أنتِ فينا لمن يَنهاكِ عاصيةٌ وإذ أجُرُّ اليكم سادراً رَسَني

فأمر لي بألف ألف درهم، ثم قال لي ليلةً ولم يَبق في المجلس إلا جعفر بن يحيى : أنا أحِبّ أن تشرّفَ جعفراً بأن تغنّيه صوتاً . فغنّيتُه لحناً صنعتُه في شعر الدّارميّ :

كأنّ صورتَها في الوصف اذ وُصِفَتْ دينارُ عينٍ من المصريّة العُتُق

نسبة هذين الصوتين، منهما :

صوت

سَقياً لرَبعِك من رَبع بذي سَلَمٍ وللزمان بـه إذ ذاك من زَمَنِ
إذ أنتِ فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ وإذ أُجرُّ اليكم سادراً رَسَني

الشعرُ للأحوص . والغناء لابن سُرَيج ثقيلٌ أوّلُ بالوسطى عن عمرو .

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني أحمد بن زُهير عن مُصعَب قال : أنشد منشِدٌ وابنُ أبي عُبيدةَ عندنا قولَ الأحوص :

إذ أنتِ فينا لمن يَنهاكِ عاصيةٌ وإذ أُجرُّ اليكم سادراً رَسَني

فوثب قائماً وألقى طرَف ردائه وجعل يخطو الى طرَف المجلس ويجرُّه . ثم فعل ذلك حتى عاد الينا . فقلنا له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : إني سمعتُ هذا الشعرَ مرّةً فأطربني ، فجعلت على نفسي ألّا أسمعه أبداً إلّا جررتُ رَسَني .

والآخر من الصوتين :

صوت

كأنّ صورتَها في الوصف إذ وُصِفَتْ دينارُ عَينٍ من المصريّة العُتُقِ

أو دُرّةٌ أعيت الغوّاصَ في صَدَفٍ　　أو ذَهَبٌ صاغه الصّوّاغُ في وَرِقِ

الشعرُ للدّارِميّ. والغناء لمرزوق الصّوّاف رَمَلٌ بالبنصر عن ابن المكيّ. وذكر عمرو أن هذا اللحنَ للدّارميّ أيضاً. وذكر الهشاميّ أنه لابن سُرَيج. وفي هذا الخبر أنه لإبراهيم بن المهديّ. وفيه خفيفُ رَمَلٍ يقال إنه لحنُ مرزوق الصّوّاف، ويقال إنه لمتيَّمَ ثاني ثقيل عن الهشاميّ وابنِ المعتزّ.

غنى صوتاً على أربع طبقات:

أخبرني يحيى بن المنجِّم قال ذكر لي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن اسحاق ابن عمر بن بَزِيع قال:

كنتُ أضرب على ابراهيم بن المهديّ صوتاً ذكره فغنّاه على أربع طبقات، على الطبقة التي كان العود عليها، وعلى ضِعفها، وعلى إسجاحها، وعلى إسجاح الإسجاح. قال أبو أحمد قال عبيد الله: وهذا شيء ما حُكِيَ لنا عن أحد غيرِ إبراهيم، وقد تعاطاه بعضُ الحُذّاق بهذا الشأن، فوجده صعباً متعذِّراً لا يُبلَغ إلا بالصوت القويّ وأشدِّ ما في إسجاح الإسجاح؛ لأن الضِّعف لا يُبلَغ إلا بصوت قويّ مائل الى الدقة، ولا يكاد ما اتّسع مَخرَجُه يبلُغ ذلك. فإذا دَقّ حتى يبلُغ الإضعاف لم يَقدِر على الإسجاح فضلًا عن إسجاح الإسجاح. فاذا غَلُظ حتى يتمكن من هذين لم يقدر على الضِّعف.

غنى صوتاً لمعبد:

أخبرني عمي قال حدثني ابن أبي سعد قال حدثني أحمد بن القاسم بن جعفر ابن سليمان الهاشميّ قال حدثني محمد بن سليمان بن موسى الهادي قال:

دعاني ابراهيم بن المهديّ يوماً فصرت اليه، وغنّى صوتاً لمعبد:

أَفي الحقّ هذا أنّني بكِ مُولَعُ   وأنّ فؤادي نحوكِ الدّهرَ نازعُ

فقال لي : لمن هذا الغناء ؟ فقلت : يا سيدي يقولون إنه لمعبد ، ولا غنّى والله معبد كذا قطّ ، ولا سمعتُ أحداً يقول كذا ، لا والله ما في الدنيا كذا . قال : فضحك ثم قال : والله يا بُنيّ ما قمتُ بنصف ما كان يقوم به معبد .

نسبة هذا الصوت

أمّا اللّحن فمن الثقيل الثاني ، وقد ذكر في هذا الخبر أنه لمعبد ، وما وجدتُه في شيء من الكتب له . وذكر الهشامي أنه لابن المكيّ .

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن محمد عَمّار قال حدثني يعقوب بن نُعَيم قال حدثني اسحاق بن محمد قال حدثني عيسى بن محمد القُحطيّ قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال :

لمّا قدِم المأمون من خُراسان لم يظهر لمغنٍّ بالمدينة مدينةِ السلام غيري ، فكنتُ أنادمه سرّاً ، ولم يظهر للنّدماء أربعَ سنين ، حتى ظفِر بابراهيم بن المهدي . فلمّا ظفِر به وعفا عنه ظهر للندماء ثم جمعنا ؛ ووجّه الى ابراهيم فحضر في ثياب مُبتذَلة . فلما رآه المأمون قال : ألقى عمي رِداء الكِبر عن مَنكِبَيه ، ثم أمر له بخِلَع فاخرة وقال : يا فَتح[1] غدِّ عمي ؛ فتغدّى ابراهيم بحيث يراه المأمون ثم تحوّل الينا ، وكان مُخارق حاضراً ، فغنّى مخارق :

هذا ورُبَّ مُسوّفين[2] صَبَحْتُهم   من خمر بابلَ لذّةً للشارب

(١) هو فتح خادم بن المأمون .

(٢) المسوفان : الصبر .

فقال له إبراهيم: أسأتَ فأعِدْ؛ فأعاده، فقال: قارَبْتَ ولم تُصِبْ. فقال له المأمون: إن كان أساء فأحسِنْ أنت. فغنّاه ابراهيم ثم قال لمخارق: أعِدْه فأعاده، فقال: أحسنت. فقال للمأمون: كم بين الأمرين؟ فقال: كثير. فقال لمخارق: إنما مَثَلُكَ كمَثَل الثوب الفاخر إذ غفل عنه أهلُه وقع عليه الغبار فأحال لونَه، فاذا نُفِض عاد الى جوهره. ثم غنّى ابراهيمُ:

يا صاحِ يا ذا الضّامِرِ العَنسِ والرَّحلِ ذي الأقتادِ والحِلسِ[1]
أمّا النّهارُ فـما تُقَصِّره رَتَكاً[2] يزيدك كلما تُمسي

قال: وكانت لي جائزة قد خرجت، فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر سيّدي بإلقاء هذا الصوت عليَّ مكان جائزتي فهو أحبُّ إليَّ منها. فقال: يا عمّ ألقِ هـذا الصوتَ على مُخارق، فألقاه عليّ، حتى إذا كدت أن آخذه قال: اذهب فأنت أحذق الناس به فقلت: إنه لم يصلُح لي بعد. قال: فاغْدُ عليّ. فغدوت عليه فغنّاه متلوّياً؛ فقلت: أيها الأمير، لك في الخلافة ما ليس لأحد، أنت ابن الخليفة وأخو الخليفة وعمُّ الخليفة، تجود بالرّغائب وتبخَل عليّ بصوت! فقال: ما أحمقك! ان المأمون لم يَستَبْقِني محبّـةً فيَّ ولا صِلَةً لرَحِمي ولا رباءً للمعروف عندي، ولكنه سمع من هذا الجِرْم[3] ما لم يَسمع من غيره. قال: فأعلمتُ المأمون مقالتَه؛ فقال: إنّا لا نكدِّر على أبي اسحاق عَفوَنا عنه، فدَعْه. فلما كانت أيامُ المعتصم نَشِط للصَّبوح يوماً فقال: أحضِروا عمي. فجاء في دُرّاعة من غير طيلَسان. فأعلمتُ المعتصمَ خبرَ الصَّوت سرّاً. فقال: يا عمّ غنّني:

---

(١) يقال جمل ضامر، وناقة ضامر (بغير هاء) وضامرة. والعنس: الناقة الصلبـة القوية. والحلس: كل شيء ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج.

(٢) الرتك: سير للابل سريع.

(٣) الجرم هنا: الحلق او الصوت.

يا صاحِ يا ذا الضَّامرِ العَنْسِ

فغنّاه ؛ فقال : ألقِه على مُخارق . فقال : قد فعلتُ ، وقد سبق منّي قولٌ ألّا أعيده عليه . ثم كان يتجنَّب أن يغنّيَه حيث أحضُرُه .

نسبة ما في هذا الخبر من الغناء

صوت

هذا ورُبَّ مُسوَّفين صَبَحْتُهم من خمر بابـلَ لَذَّةً للشاربِ
بكَروا علـيَّ بسُحْرةٍ فصَبَحْتُهم بإناء ذي كَرَمٍ كقَعْبِ الحـالب
بزُجاجةٍ مِـلءِ اليدين كأنّها قِنديلُ فِصحٍ(١) في كنيسة راهب

الشعرُ لعديّ بن زيد . والغناء لحُنَينٍ خفيفُ ثقيلٍ أول بالسبّابة في مجرى البنصر عن اسحاق .

صوت

يا صـاحِ يا ذا الضَّامرِ العَنْسِ والرَّحل ذي الأقتاد والحِلْسِ
أمّا النهار فـا تُقصِّره رَتكاً يزيـدك كلَّما تُمسي

الشعرُ لخالد بن المُهاجر بن خالد بن الوليد .

(١) الفصح : عيد الفصح عند النصارى .

طلبت اليه أخته أسماء سماع غنائه :

وذكر أحمد بن أبي طاهر عن أَثِيرَ مولاةِ منصور بن المهديّ عن ذُؤابة مولاته أيضاً قالت قالت لي أسماء بنت المهديّ :

قلت لأخي إبراهيم : يا أخي أشتهي والله أن أسمع من غنائك شيئاً . فقال : إذاً والله يا أختي لا تَسمعين مثلَه ، عليّ وعليّ ، وغلّظ في اليمين ، إن لم يكن إبليسُ ظهر لي وعلّمني النَّقرَ والنَّغمَ وصافحني وقال لي : اذهَب فأنت مني وأنا منك .

غضب عليه الأمين ثم رضي عنه :

أخبرني عمي قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال حدثني هِبَةُ الله بن ابراهيم ابن المهديّ عن أبيه قال :

غَضِب عليّ محمد الأمين في بعض هَناته ، فسلّمني الى كَوْثَر[١] ، فحبسني في سِرداب وأغلقه عليّ فمكثت فيه لياتي . فلما أصبحتُ اذا أنا بشيخ قد خرج عليّ من زاوية السِّرداب ، ودفع إليّ وسطاً وقال : كُلْ فأكلتُ ، ثم أخرج قِنّينة شراب فقال : اشرَبْ فشربت ، ثم قال لي : غنِّ :

لي مُدّةٌ لا بُدَّ أبلغها معلومةٌ فإذا انقضتْ مُتُّ
لو ساورتني الأسْدُ ضاريةً لغلَبتُها ما لم يَجِ الوقتُ

فغنّيته . وسمعني كوثر فصار الى محمد وقال : قد جُنّ عمك وهو جالس يغني بكيت

(١) هو كوثر خادم محمد الامين .

وكيت. فأمر بإحضاري فأحضِرتُ وأخبرته بالقصّة، فأمر لي بسبعمائة ألف درهم ورضيَ عنّي.

طارح أخته عليّة فأطربا المأمون وأحمد بن الرشيد:

أخبرني عمي قال حدثني ابن أبي سعد قال سمعت يَنشو يحدّث عن أبي أحمد ابن الرشيد قال:

كنتُ يوماً بحضرة المأمون وهو يشرب، فدعا بياسرٍ وأدخله فسارّه بشيء ومضى وعاد. فقام المأمونُ وقال لي: قم، فدخل دار الحُرَم ودخلتُ معه، فسمعت غناء أذهل عقلي ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر. وفطن المأمون لِما بي فضحك ثم قال: هذه عمّتك عُلَيّة تُطارح عمّك ابراهيم:

ما لي أرى الأبصارَ بي جافِيَه

نسبة هذا الصوت

ما لي أرى الأبصارَ بي جافِيَهْ ... لم تَلتفِت منّي الى ناحيـهْ
لا ينظر الناسُ الى المُبتَـلى ... وإنما الناسُ مـع العافيَه
وقـد جفاني ظالماً سيّدي ... فأدمُعي مُنهلَـةٌ هامِيَه
صَحبي سَلوا ربَّكمُ العافيه ... فقد دهتني بعدكُم داهِيَه

الشعر والغناء لعُلَيّة بنت المهديّ خفيفُ رَمَلٍ. وأخبرني ذُكاء وجه الرُّزّة أن لعَريبَ فيه خفيفَ رمل آخر مَزموراً، وأنّ لحن عُلَيّة مُطلَق.

أخبرني يحيى بن عليّ بن يحيى قـال حدثني أبي عن ابراهيم عن عليّ بن هشام أنّ اسحاق كتب الى ابراهيم بن المهديّ بجنس صوت صنَعه وإصبعِه ومَجراه وإجراء لحنه؛ فغنّاه ابراهيم من غير أن يسمعه فأدّى ما صنعه. والصوت:

حَيِّيا أمَّ يَعمَرًا قبل شَحطٍ من النَّوى
قلت لا تُعجِلوا الرَّوا حَ فقالوا ألا بَلى
أجمع الحيُّ رحلةً ففؤادي كذي الأسى

نسبة هذا الصوت

الشعر لعمر بن أبي ربيعة . والغناء لابن سُرَيج، ولحنُه من القَدْر الأوسط من الثقيل الاول مطلقٌ في مجرى الوُسطى . وذكر عمرو بن بانة أنه لمالك . وفيه للهُذَليّ خفيفُ ثقيلٍ اول بالبنصر عن ابن المكيّ، وزعم الهشاميّ أنه لحن مالك . وفيه لحنان من الثقيل الثاني أحدُهما لإسحاق وهو الذي كتب به إسحاق الى ابراهيم بن المهدي . والآخر زعم الهشامي أنه لابراهيم، وزعم عبد الله بن موسى ابن محمد بن ابراهيم الإمام أنه لابن مُحرِز .

أخبرني عمي قال حدثني الحسين بن يحيي أبو الجُمان : أنّ اسحاق بن ابراهيم لمّا صنع صوتَه :

قُل لِمَن صَدّ عاتِباً

إتّصل خبرُه بإبراهيم بن المهديّ فكتب يسأله عنه ؛ فكتب اليه بشعره وإيقاعِه وبسيطِه ومجراه وإصبعِه وتجزئتِه وأقسامِه ومخارجِ نَغمه ومواضعِ مقاطعه ومقادير أدواره وأوزانه، فغنّاه . قال : ثم لَقِيني فغنّانيه، ففضَلني فيه بحُسن صوته .

نسبة هذا الصوت

قل لمن صَدّ عاتِباً ونأى عنك جانِباً
قد بلغتَ الذي أرد تَ وإن كنتَ لاعبا

الشعر والغناء في هذا اللحن لإسحاق، ثاني ثقيل بالبنصر في مجراها . وفيه لغيره ألحان .

أخبرني ابن عَمّار قال حدثني يعقوب بن نُعَيم قال حدثني اسحاق بن محمد عن أبيه قال :

سمعت أحمد بن أبي دُواد يقول : كنتُ أعِيبُ الغِناء وأطعن على أهله، فخرج المعتصم يوماً الى الشمَّاسيَّة في حَرّاقةٍ يشرب، ووجّه في طلبي فصرت اليه ؛ فلما قَرُبتُ منه سمعت غناءً حيّرني وشغلني عن كلّ شيء، فسقط سَوطي من يدي ؛ فالتفتُّ الى زنقطة غلامي أطلب منه سوطه، فقال لي : قد والله سقط سوطي . فقلت له : فأيّ شيء كان سبب سقوطه ؟ قال : صوت سمعتُه شغلني عن كلّ شيء فسقط سوطي من يدي؛ فإذا قِصّته قِصّتي . قال : وكنت أنكر أمرَ الطرَب على الغناء وما يستَفِزّ الناسَ منه ويغلِب على عقولهم ، وأناظر المعتصمَ فيه . فلما دخلت عليه يومئذٍ أخبرته بالخبر ؛ فضحك وقال : هذا عمي كان يغنّيني :

إنّ هذا الطويلَ من آلِ حفصٍ نَشَر المجدَ بعد ما كان ماتا

فإن تُبتَ مماّ كنتَ تناظرنا عليه في ذمّ الغناء سألتُه أن يُعيده . ففعلتُ وفعل ، وبلغ بي الطربُ أكثر مما يَبلُغني عن غيري فأُنكره ؛ ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليوم . وقد أخبرني بهذا الخبر ابو الحسن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيي المنجم عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فذكر هذه القصة أو قريباً منها لزيادة اللفظ ونُقصانه ، وذكر أنّ الصوت الذي غنّاه ابراهيم :

طرَقتكَ زائرةً فحيِّ خيالَها بيضاءُ تَخلِط بالحياء دلالَها
هل تَطمِسون من السماء نجومَها بأكُفِّكم أو تَستُرون هلالَها

اتخذ لنفسه حراقة بحذاء داره :

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني الحسن بن عُلَيل قال :

سمعتُ هِبةَ الله بن ابراهيم بن المهديّ يقول : اتّخذ أبي حَرّاقةً فأمر بشدّها

في الجانب الغربي بحذاء داره ، فمضيتُ اليها ليلةً فكان أبي يُخاطبنا من داره بأمره ونَهيه ، فنسمعه وبَيننا عَرْض دِجلة وما أجهدَ نفسه .

ثناء ابن ابي ظبية عليه :

أخبرني عمي قال سمعت عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة يقول حدثني ابن أبي ظَبية قال : كنت أسمع ابراهيم بن المهديّ يتنحنح فأطرَبُ .

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويَه قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال حدثني القِطراني المُغنّي عن محمد بن جبر عن عبد الله بن العباس الرَّبيعي قال :

كنّا عند ابراهيم بن المهدي ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ مُطرِبٍ مُحسِن من المغنين يومئذٍ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشِطْرَنج . فترَنّم بصوت فريدة :

قال لي أحمدُ ولم يَدرِ ما بي أتُحِبّ الغداةَ عُتبةَ حقّاً

وهو مُتّكئٌ . فلما فرَغ منه ترَنّم به مُخارق فأحسنَ فيه وأطربنا وزاد على ابراهيم ، فأعاده ابراهيم وزاد في صوته فعَفّى على غناء مُخارق . فلما فرغ ردّه مخارق وغنّى فيه بصوته كلِّه وتحفّظ فيه ، فكِدنا نَطير سروراً . وأستوى ابراهيمُ جالساً وكان مُتّكئاً فغنّاه بصوته كلِّه ووفّاه نَغَمه وشُذورَه ، ونظرتُ الى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمع يتحرّك حتى فرغ منه ، ومُخارقٌ شاخصٌ نحوَه يُرعَد وقد أمتُقِع لونُه وأصابعه تختلج ؛ فخُيِّل لي والله أنّ الايوان يسير بنا . فلما فرغ منه تقدّم اليه مخارق فقبّل يده وقال : جعلني الله فِداك أين أنا منك ! ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقيّةَ يومه في غنائه ، والله لكأنما كان يتحدّث .

نسبة هذا الصوت

قال لي أحمدُ ولم يَدرِ ما بي أتُحِبّ الغداةَ عُتبةَ حقّاً
فتنفّستُ ثم قلت نعم حـبّاً جرى في العروق عِرْقاً فعِرْقا
ما لدمعي عَدِمتُه ليس يَرْقا[1] إنما يَستهلّ غَسْقاً فَغَسْقا[2]
طَرَباً نحوَ ظبيةٍ تركتْ قلبي من الوجد قَرْحةً ما تَفقّا[3]

الشعر لأبي العتاهية . والغناء لفريدة خفيفُ رمل بالوسطى . وفيه لإبراهيم ابن المهدي خفيفُ رملٍ آخر . ولفريدة ايضاً لحنٌ من الثقيل الثاني في أبيات من هذه القصيدة وهي :

قد لَعَمْري ملّ الطبيبُ وملّ الأهل منّي مما أداوَى وأرْقى
ليتني مُتّ فاسترحتُ فإنّي أبداً ما حَييتُ منها مُلَقّى[4]

غنى الأمين فأطربه :

أخبرني عمي قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال حدثني هِبَةُ الله بن ابراهيم ابن المهديّ قال حدثني عمي منصور بن المهديّ :

أنه كان عند أبي في يوم كانت عليه فيه نَوبةٌ لمحمد الأمين، فتشاغل أبي

(١) يرقا : يجف وينقطع .

(٢) الغسق : الانصباب .

(٣) تفقا : تنفلق وتنشقّ .

(٤) الملقّى : الممتحن الذي لا يزال يلقاه مكروه إثر مكروه .

بالشُرب في بيته ولم يَمضِ، وأرسل اليه عِدّةَ رُسل فتأخر. قال منصور: فلما كان من غدٍ قال: ينبغي أن تعمل على الرّواح اليّ لنمضي الى أمير المؤمنين فنترضّاه؛ فما أشُكّ في غضبه عليّ. ففعلتُ ومضينا. فسألنا عن خبره فأعلمنا أنه مشرف على حَير[1] الوحش وهو مخمور، وكان من عادته ألاّ يشرب اذا لحقه الخُمار. فدخلنا؛ وكان طريقُنا على حجرة تُصنع فيها الملاهي. فقال لي أخي: اذهب فاختَرْ منها عوداً ترضاه، وأصلحه غاية الإصلاح حتى لا تحتاج الى تغييره البتّةَ عند الضرب؛ ففعلت وجعلته في كمّي. ودخلنا على الأمين وظهرُه الينا. فلما بَصُرنا به من بعيد قال: أخرج عودك فأخرجتُه، واندفع يغنّي.

وكأسٍ شَربتُ على لذّةٍ — وأخرى تداويتُ منها بها
لكي يعلم الناسُ أني امرؤٌ — أتيتُ الفُتوّةَ من بابها
وشاهِدُنا الجُلُّ والياسمينُ — والمُسمِعاتُ بقُصّابها
وبَربَطُنا دائمٌ مُعمَلٌ — فأيُّ الثلاثة أزرى بها

فاستوى الأمين جالساً وطرب طرباً شديداً وقال: أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لي طرباً، ودعا برطل فشربه على الرّيق وامتدّ في شربه. قال منصور: وغنى ابراهيم يومئذٍ على أشدّ طبقة يُتناهى اليها في العود، وما سمعتُ مثل غنائه يومئذٍ قطّ. ولقد رأيتُ منه شيئاً عجيباً لو حُدّثت به ما صدّقت، كان اذا ابتدأ يغني أصغتِ الوحشُ اليه ومدّت أعناقَها، ولم تزل تدنو منّا حتى تكاد أن تضع رؤوسها على الدُكّان الذي كنّا عليه، فاذا سكتَ نَفرتْ وبَعُدت منّا حتى تنتهي الى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنّا، وجعل الأمين يَعجَبُ من ذلك، وانصرفنا من الجوائز بما لم ننصرف بمثله قطّ.

---

(١) الحير: الحظيرة والبستان.

أخبرني عمي والصولي قالا حدثنا الحسين بن يحيى الكاتب أبو الجمان أن إسحاق كتب الى ابراهيم بن المهدي بصوت صنعه في شعر له وهو :

قل لِمَن صدَّ عاتِبا ونأى عنك جانِبا
قد بلغتَ الذي أردتَ وإن كنتَ لاعِبا

وبيّن له شعرَه وإيقاعَه وبساطَه ومَجراه وإصبعَه وتجزئتَه وقسمتَه ومخارجَ نغمه ومواضعَ مقاطعه ومقاديرَ أوزانه، فغنّاه ابراهيم، ثم لقيه بعد ذلك فغنّاه إياه فما خرم منه شَذرةً ولا نغمةً . قال : ووافقني فيه بحسن صوته .

نسبة هذا الصوت

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانِبا
قد بلغتَ الذي أردتَ وإن كنتَ لاعبا
واعترفنا بما ادّعيتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآنَ ما أردتَ فقد جئتُ تائبا

يقال : إنّ الشعر لإسحاق، ولم أجده في مجموع شعره . ووجدتُ فيه لحناً لحَكَم الواديّ في ديوان أغانيه ولحنه من الماخوريّ، وهو خفيفٌ من خفيف الثقيل الثاني بالبِنصر . وكذلك ذكرتْ دنانيرُ أنه لحَكَم الواديّ ؛ ويُشبه أن يكون الشعرُ لغيره . ولحن اسحاق الذي كتب به الى ابراهيم بن المهديّ ثاني ثقيل بالبنصر في مجراها . وفيه ثقيلٌ اول مطلق في مجرى البنصر لم يقع اليّ نسبتُه الى صانعه، وأظنّه لحن حَكَم .

أخبرني عمي قال حدثنا أبو عبد الله المَرزُبان قال حدثني ابراهيم بن أبي دُلَف العِجليّ قال :

كنا مع المعتصم بالقاطول[١]، وكان ابراهيم بن المهديّ في حَرّاقته بالجانب الغربيّ وأبي وإسحاقُ الموصليّ في حرّاقتيهما في الجانب الشرقيّ، فدعاهما يوم جمعة فعبرا اليه في زلال[٢] وأنا معهما وأنا صغير وعليّ أقبيةٌ ومِنطقةٌ. فلما دنونا من حرّاقة ابراهيم نهض ونهضنا ونهضتْ بنهوضه صبيّة له يقال لها غضَّة، واذا في يديه كأسان وفي يديها كأس. فلما صعِدنا اليه أندفع فغنى:

حيّاكما الله خليليّاً إن ميّتاً كنتُ وإنْ حيّاً
إن قلتما خيراً فأهلٌ له أو قلتما غيّاً فلا غيّاً

ثم ناول كلّاً منهما كأساً وأخذ هو الكأسَ التي كانت في يد الجارية وقال: أشربا على ريقكما، ثم دعا بالطعام فأكلوا وشربوا، ثم أخذوا العيدانَ فغنّاهما ساعةً وغنّياه؛ وضرب وضربا معه، وغنّت الجارية بعدهم. فقال لها أبي: أحسنتِ مراراً. فقال له: إن كانت أحسنتْ فخذها اليك، فما أخرجتُها إلّا اليك.

أخبرني عمي قال حدثنا عليّ بن محمد بن نصر قال حدثني أبو العُبَيس بن حمدون قال: لمّا صنع مخارق لحنه في شعر العتّابي:

أَخضني المُقامَ الغمرَ إن كان غرّني سَنا خُلَّبٍ أو زلّتِ القَدَمان

غنّاه ابراهيمَ بنَ المهديّ؛ فقال له: أحسنت وحياتي ما شئت! فسجد مُخارق سروراً بقول ابراهيم ذلك له.

أخبرني عمي قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال حدثني القِطرانيّ عن عمرو ابن بانة قال: غنى ابراهيم بن المهديّ يوماً:

---

(١) القاطول: اسم نهر.

(٢) ظاهر أنه نوع من السفن ولم نقف عليه.

أداراً بحُزوى هِجتِ للعين عَبرةً   فماءُ الهوى يَرفَضُّ أو يترقرقُ

فاستحسنتُه وسألتُه إعادتَه عليَّ حتى آخُذَه عنه ففعل . ثم قال لي : إنّ حديث هذا الصوت أحسن منه . قلت : وما حديثُه أعزّك الله ؟ قال : غنّانيه ابنُ جامع والصنعة فيه له، فلما أخذتُه عنه غنّيته إياه ليسمعه منّي، فاستحسنه جداً وقال : كأنّي والله ما سمعتُه قطُّ إلّا منك ثم كان صوتَه بعد ذلك على نسبة هذا الصوت .

أخبرني عليّ بن ابراهيم الكاتب قال حدثنا عُبيد الله بن عبد الله بن خُرداذبه قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال :

وجّه إليّ ابراهيم بن المهديّ يوماً يدعوني ، وذلك في اول خلافة المعتصم، فصرتُ اليه وهو جالس وحدَه وشاريةُ جاريتُه خلفَ السِّتارة، فقال : إني قلتُ شعراً وغنّيت فيه وطرحتُه على شارية فأخذتْه وزعمت أنّها أحذق به منّي، وأنا أقول إني أحذق به منها، وقد تَراضينا بك حَكَماً بيننا لموضعك من هذه الصناعة ، فاسمعه منّي ومنها واحكم ولا تَعجَل حتى تَسمَعَه ثلاثَ مرّات. فقلت نعم . فاندفع يغنّي بهذا الصوت :

أَضنّ بلَيلى وهي غيرُ سَخيَّةٍ   وتَبخَل ليلى بالهوى وأَجودُ

فأحسن وأجاد . ثم قال لها : تَغنّيْ ، فغنّتْه فبرّزت فيه حتى كأنه كان معها في أبيجاد ، ونظر إليّ فعرف أنّي قد عرفتُ فضلَها عليه، فقال : على رِسلِك ! وتحدّثنا ساعةً وشَرِبنا . ثم اندفع فغنّاه ثانية فأضعف في الإحسان ، ثم قال لها : تغنّيْ ، فغنّت فبرعت وزادت أضعافَ زيادتَه ، وكدتُ أُشقّ ثيابي طرباً . فقال لي : تثبّتْ ولا تَعجَل . ثم غنّاه ثالثة فلم يُبقِ غايةً في الأحكام، ثم أمرها فغنّت ، فكأنه إنما كان يلعب . ثم قال لي : قل ، فقضيتُ لها ؛ فقال : أصبتَ ، فكم تُساوي عندك ؟ فحملني الحسدُ له عليها والنفاسة بمثلها أن قلتُ : تُساوي مائة

ألف درهم . فقال : أوَ ما تُساوي على هذا الإحسان وهذا التفضيل إلّا مائة ألف! قبح الله رأيك! والله ما أجد شيئاً أبلَغ في عقوبتك من أن أصرفك، ثم فأنصرف الى منزلك مذموماً . فقلت له : ما لقولك أخرُج من منزلي جواب، وقمت وأنصرفت، وقد أحفَظني كلامُـه وأرمَضني . فلمّا خطوت خُطواتٍ التفتُ اليه فقلت له : يا إبراهيم! أتطرُدني من منزلك! فوالله ما تُحسن أنت ولا جاريتُك شيئاً . وضرَب الدّهرُ ضرَبانه ، ثم دعانا المعتصمُ بعد ذلك وهو بالوزيريّة في قصر التلّ ، فدخلتُ أنا ومخارق وعلّويه ، واذا أميرُ المؤمنين مُصطبحٌ وبين يديه ثلاثُ جاماتٍ : جامُ فضّة مملوءةٌ دنانيرَ جُدُداً ، وجامُ ذهب مملوءة دراهم جُدُداً ، وجامُ قواريرَ مملوءةٌ عنبراً ، فظننّا أنها لنا بل لم نَشُكّ في ذلك ، فغنّيناه وأجهدنا أنفسنا ، فلم يطرب ولم يتحرّك لشيء من غنائنا . ودخل الحاجبُ فقال : ابراهيم بن المهديّ . فأذِن له فدخل ، فغنّاه أصواتاً أحسنَ فيها ، ثم غنّاه بصوت من صنعته وهو :

ما بالُ شمسِ أبي الخطّاب قد غرَبتْ   يا صاحبيّ أظنّ الساعةَ أقـتربتْ

فأستحسنه المعتصمُ وطرِب له، وقال : أحسنتَ والله! فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين فإن كنتُ أحسنتُ فهَبْ لي إحدى هذه الجامات ؛ فقال : خذ أيّتها شئتَ، فأخذ التي فيها الدنانير ؛ فنظر بعضُنا الى بعض . ثم غنّاه ابراهيم بشعر له وهو :

فما مُزّةٌ قهوةٌ قرقَفٌ   شَمولٌ تَروق براوُوقِها[1]

فقال : أحسنتَ والله يا عمّ وسررتَ . فقال : يا أمير المؤمنين إن كنتُ أحسنتُ فهَب لي جاماً أخرى ؛ فقال : خذ أيّتها شئتَ ، فأخذ الجامَ التي فيها الدراهم ؛ فعند ذلك أنقطع رجاؤنا منها . وغنّاه بعد ساعة :

---

(١) المزة والقهوة والقرقف والشمول : من اسماء الخمر . والراووق : باطية الخمر .

أَلا ليتَ ذاتَ الخالِ تَلقى من الهوى   عَشيرَ[١] الذي أَلقى فيَلتَئمَ الحبُّ

فأَرتجَّ بنا المجلسُ الذي كنا فيه، وطرب المعتصمُ واستخفَّه الطربُ فقام على رجليه، ثم جلس فقال: أحسنتَ والله يا عمّ ما شئتَ! قال: فإن كنتُ قد أحسنتُ يا أمير المؤمنين فهَب لي الجام الثالثة؛ فقال: خُذها فأخذها. وقام أمير المؤمنين، ودعا ابراهيمُ بمنديل فثناه طاقَتَين ووضع الجامات فيه وشَدّه، ودعا بطين فختَمه ودفَعه الى غلامه، ونهضنا الى الانصراف، وقُدّمتْ دوابُّنا. فلما ركِب ابراهيم التفتَ اليّ فقال: يا محمد بن الحارث، زعمتَ أنّي لا أحسن أنا وجاريتي شيئاً، وقد رأيتَ ثمرة الإحسان. فقلتُ في نفسي: قد رأيتُ، فخُذها لا بارك الله لك فيها! ولم أُجبه بشيء.

نسبة هذه الأصوات

صوت

ما بالُ شمسِ أبي الخطّاب قد غَرَبتْ   يا صاحبيّ أظنّ الساعة أقتربتْ
أم لا فما بالُ ريحٍ كنتُ آمُلها   غدتْ عليّ بصِرٍّ[٢] بعد ما خُبِلَت
أشكو اليك أبا الخطّاب جاريةً   غريرةً بفؤادي اليوم قد لَعِبت
رأيتُ قَيّمها يوماً يحدِّثها   يا ليتَها قَرُبتْ منّي وما بَعُدَت

الشعر والغناء لإبراهيم بن المهديّ رَمَلٌ بالبنصر: وفيه هزَج بالبنصر، ذكر عمرو ابن بانة أنه لإبراهيم الموصلي، وذكر غيرُه أنه لإبراهيم بن المهدي.

---

(١) العشير: جزء من عشرة كالعشر.

(٢) ريح صر: شديدة الصوت والبرد.

صوت

ألا ليتَ ذاتَ الخالِ تَلقى من الهوى   عشيرَ الذي ألقى فيلتئمَ الحبُّ
وِصالُكُمُ صَـدٌّ وقربُكُمُ قِلًى   وعطفكُمُ سُخطٌ وسِلمكُمُ حَرب

الشعر للعباس بن الأحنف . والغناء لإبراهيم .

وقال ابن أبي طاهر حدثني المؤمّل بن جعفر قال : سمعتُ أبي يقول : كانت في يد المعتصم باقةُ نرجس فقال لإبراهيم بن المهدي : يا عمّ قل فيها أبياتاً فغنِّ فيها . فنكَتَ في الأرض بقضيبٍ في يده هنيهةً ثم قال :

صوت

ثلاثُ عيونٍ من النَّرجسِ   على قائمٍ أخضرٍ أملسِ
يُذكِّرنني طيبَ ريّا الحبيب   فيمنَعنني لَـذَّةَ المجلس

وصنع فيه لحناً وغنّاه به ، فأعجبه وأمرَ له بجائزة . لحنُ ابراهيم في هذين البيتين خفيفُ رَمَل بالبنصر ، ذكر لي ذكاءٌ وغيرُه ذلك .

غضب عليه المأمون وسجنه فاستعطفه حتى عفا عنه :

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد النّحوي عن الجاحظ ، وأخبرني به محمد بن يحيي الصولي قال حدثنا يَموتُ بن المُزرّع عن الجاحظ قال :

أرسل إليّ ثُمامة[١] يوم جلس المأمونُ لإبراهيمَ بن المهديّ وأمرَ بإحضار الناس

(١) ثمامة : هو ثمامة بن اشرس ابو معن النميري احد المعتزلة البصريين .

على مراتبهم فحضروا فجيء بإبراهيم ، وأخبرني عمي قال حدثنا الحسن بن عُلَيل قال حدثني محمد بن عمرو الأنباري من أبناء خُراسان قال :

لمّا ظَفِر المأمون بإبراهيم بن المهدي أحبَّ أن يوبّخه على رؤوس الناس . قال : فجيء بابراهيم يَحجُل في قيوده ، فوقف على طرَف الإيوان وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه . فقال له المأمون : لا سلّم الله عليك ولا حفِظك ولا رعاك ولا كَلأك يا ابراهيم . فقال له ابراهيم : على رِسلك يا أمير المؤمنين ! فلقد أصبحتَ وليَّ ثأري ، والقدرةُ تُذهِبُ الحفيظةَ ، ومن مَدَّ له الاغترارُ في الأمل هجَمتْ به الأناةُ على التَّلَف . وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو – وقال الحسن بن عُلَيل في خبره : وقد أصبحت فوق كل ذي ذنب ، كما أصبح كلُّ ذي عفو دونك – فإن تُعاقب فبحقك ، وإن تَعفُ فبفضلك . قال : فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه فقال : إنّ هذين أشارا عليّ بقتلك . فالتفتَ فاذا المُعتصم والعبّاس بن المأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أمّا حقيقة الرأي في مُعظَم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وما غشّاك اذ كان ما كان منّي ، ولكنّ الله عوّدك من العفو عادةً جريتَ عليها دافعاً ما تخافُ بما ترجو ، فكفاك الله . فتبسم المأمون وأقبل على ثُمامة ثم قال : إنّ من الكلام ما يفوق الدرّ ويغلِب السِّحر ، وإن كلام عمي منه ، أَطلِقوا عن عمي حديدَه وردُّوه إليّ مُكرَّماً . فلما رُدَّ اليه قال : يا عمّ صِرْ الى المنادمة وارجع الى الأُنس ، فلن ترى منّي أبداً إلّا ما تحبّ . فلمّا كان من الغد بعث اليه بدَرْجٍ[1] فيه :

يا خيرَ مَن ذَمَلت يمانِيَةٌ به ... بعد الرسول لآيسٍ أو طامعِ
وأبرَّ مَن عبد الإله على الهُدى ... نفساً وأحكمَه بحقٍّ صادع
عَسَلُ النوارع ما أطعتَ فإن تُهَجْ ... فالموتُ في جُرَع السِّمام النّاقع
متيقّظاً حَذِراً وما يَخشى العدا ... نَبهانَ من وَسَنات ليلِ الهاجع

(١) الدرج (بالفتح ويحرّك) : ما يكتب فيه .

والله يعلم ما أقول فإنها جهدُ الألِيَّة من حنيفٍ راكعِ
قَسَماً وما أُدلي اليكَ بحجَّةٍ إلّا التضرُّعَ من محبٍّ خاشع
ما إن عصيتُك والغُواةُ تمدّني أسبابُها إلّا بنيّة طائع
حتى إذا عَلِقتْ حبائلُ شِقوتي بِرَدًى على حُفَرِ المهالك هائع[1]
لم أدرِ أنّ لمثل ذنبي غافراً فأقتُ أرقب أيَّ حتفٍ صارعي
رَدّ الحياةَ إليّ بعد ذهابها وَرَعُ الإمام القاهر المتواضع
أحياك مَن ولّاك أطولَ مدّةٍ ورمى عدوّك في الوَتين بقاطع
إن الذي قَسَمَ الفضائلَ حازها في صُلبِ آدم للإمام السابع
كم من يدٍ لك لا تحدّثني بها نفسي إذا آلتْ إليّ مطامعي
أسديتَها عفواً إليّ هنيئةً فشكرتُ مُصطنِعاً لأكرم صانع
ورَحِمتَ أطفالاً كأفراخ القَطا وعويلَ عانسةٍ كقوس النازع
وعفوتَ عمّن لم يكن عن مثله عفوٌ ولم يشفَع اليك بشافع
إلّا العُلوّ عن العقوبة بعد ما ظفِرت يداك بمستكينٍ خاضع

قال : فبكى المأمون ثم قال : عليّ به ، فأُتي به فخلعَ عليه وحمله وأمر له بخمسة آلاف دينار ، ودعا بالفرّاش فقال له : اذا رأيتَ عمي مُقبلًا فاطرَحْ له تُكَأَةً ، فكان يُنادمه ولا يُنكر عليه شيئاً . ورُوي بعضُ هذا الخبر عن محمد بن الفضل الهاشميّ فقال فيه : لمّا فرغ المأمونُ من خطابه دفعه الى ابن أبي خالد الأحول وقال : هو صديقك فخُذه اليك . فقال : وما تُغني صداقتي عنه وأميرُ المؤمنين ساخطٌ عليه ! أما إني وإن كنتُ له صديقاً لا أمتنع من قول الحقّ فيه . فقال له : قُلْ فإنك غيرُ متّهم . قال وهو يُريد التسلّقَ على العفو عنه : إن قتلتَه فقد قتلتِ الملوكُ قبلَك أقلَّ جُرْماً منه ، وإن عفوتَ عنه عفوتَ عمّن لم يُعفَ قبلك عن مثله . فسكت المأمونُ ساعةً ثم تمثّل :

---

(١) الهائع هنا : المنتشر .

فلئن عفوتُ لأعفُوَنْ جَلَلًا ولئن سطوتُ لأُوهِنَنْ عظمي
قومي هُمُ قتلوا أُميمَ أخي فإذا رميتُ أصابَني سهمي

خذه يا أحمد اليك مُكرّماً ، فانصرفَ به . ثم كتب الى المأمون قصيدته العينية . فلما قرأها رقّ له وأمر بردّه الى منزله وردّ ما قُبض منه من أمواله وأملاكه . وفي خبر عمي عن الحسن بن عُلَيل قال : حدثني محمد بن إسحاق الأشعريّ عن أبي داود : أن المأمون تقدّم الى محمد بن مزداد لمّا أطلقَ إبراهيمَ أن يمنعه داريِ الخاصة والعامة ، ويُوكِّل به رجلًا من قِبَله يَثِق به ليعرّفه أخبارَه وما يَتكلَّم به . فكتب اليه الموكَّل به أنّ إبراهيم لمّا بلغه منعُه من داريِ الخاصّة والعامّة تمثّل :

يا سَرحةَ الماء قد سُدّت مَوارِدُه أَمَا اليكِ طريقٌ غيرُ مَسدُودِ
لحائمٍ حامَ حتى لا حِيامَ له مُحلّأٍ عن طريق الماء مَطرودِ

فلما قرأها المأمون بكى وأمر بإحضاره من وقته مكرّماً وإنزاله في مرتبته؛ فصار اليه محمد فبشّره بذلك وأمره بالرّكوب فركِب . فلما دخل على المأمون قبّل البساط ثم قال :

البِرُّ بي منك وَطّا العُذرَ عندك لي دون اعتذاري فلم تَعذِلْ ولم تَلُمِ
وقام علمُك بي فاحتجّ عندك لي مقامَ شاهدِ عَدلٍ غيرِ مُتّهمِ
رددتَ ما لي ولم تَمنُن عليّ به وقبل رَدّك ما لي قد حقنتَ دمي
تعفو بعَدلٍ وتسطو إن سطوتَ به فلا عَدِمناك من عافٍ ومُنتقمِ
فبؤتُ منك وقد كافأتها بيدٍ هي الحياتان من موت ومن عَدَمِ

فقال له : أجلس يا عمّ آمناً مطمئناً، فلن ترى أبداً منّي ما تكره، إلا أن تُحدِثَ حَدَثاً أو تتغيّر عن طاعة؛ وأرجو ألّا يكون ذلك منك إن شاء الله .

أخبرني أحمد بن جعفر جحظة قال حدثني ابن حمدون عن أبيه قال :

كنت أُحِبّ أن أجمع بين ابراهيم بن المهديّ وأحمد بن يوسف الكاتب بما كنت أراه من تقدُّم أحمد وَغلبته الناسَ جميعاً بحفظه وبلاغته وأدبه في كل مَحضر ومجلس . فدخلتُ يوماً على ابراهيم بن المهديّ وعنده أحمد بن يوسف وأبو العالية الجَزَريّ، فجعل ابراهيم يحدّثنا فيُضيف شيئاً الى شيء، مرّةً يُضحكنا ومرّةً يعظنا ومرّةً يُنشدنا ومرة يُذكِّرنا، وأحمد بن يوسف ساكت . فلما طال بنا المجلسُ أردتُ أن أُخاطب أحمد، فسبقني اليه أبو العالية فقال :

ما لكَ لا تَنبح يا كلب الدَّوْمْ قد كنتَ نَبّاحاً فما لك اليومْ

فتبسّم ابراهيم ثم قال : لو رأيتني في يد جعفر بن يحيى لرَحِمتني كما رَحِمتَ أحمدَ منّي .

أخبرني يحيى بن عليّ قال حدثني أبي قال قال لي اسحاق : ليس فيمن يدّعي العلمَ بالغناء مثلُ ابراهيم بن المهديّ وأبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجليّ . فقيل له : فأين محمد بن الحسن بن مُصعَب منهما؟ فقال : لو قيل لك إن محمد بن الحسن يُبصر الغناء لكان ينبغي لك أن تقول : وكيف يُبصر الغناء من نَشأ بخُراسان لا يَسمع من الغناء العربيّ إلا ما لا يفهمه !

أخبرني يحيى قال حدثني أبو العُبيس بن حَمدون عن عمرو بن بانة قال :

رأيت اسحاق الموصليّ يُناظر ابراهيم بن المهديّ في الغِناء، فتكلّما فيه بما فَهِماه ولم نفهم منه شيئاً . فقلت لهما : لئن كان ما أنتما فيه من الغناء ما نحن منه في قليل ولا كثير .

فضل المأمون غناءه على غناء اسحاق في شعر للأخطل :

أخبرني عمي عن عليّ بن محمد بن نصر عن جدّه حمدون : أنّ المأمون قال لإسحاق : غنّني لحنَك في شعر الأخطل :

يا قَلَّ خيرُ الغَواني كيف رُغْنَ به فشِرْبُهُ وَشَلٌ منهنّ تَصريدُ[١]

فغنّاه إيّاه فاستحسنه، ثم قال لإبراهيم بن المهديّ : هل صنعتَ في هذا الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : فهاته؛ فغنّاه فاستحسنه المأمون وقدّمه على صنعة اسحاق، ولم يدفع اسحاقُ ذلك .

علمه إسحاق لحنا فطرب له الأمين :

أخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى الموصليّ قال ذكر أبي عن جدّي عن عبد الله بن عيسى الماهانيّ قال :

دخلتُ يوماً على اسحاق بن ابراهيم الموصليّ في حاجة، فرأيتُ عليه مُطرَف خَزّ أسود ما رأيت قطُّ أحسن منه؛ فتحدّثنا الى أن أخذنا في أمر المِطرف فقال : لقد كانت لكم أيامٌ حسنة ودولةٌ عجيبةٌ ، فكيف ترى هذا ؟ فقلت له : ما رأيتُ مثله. فقال : إن قيمته مائة ألف درهم ، وله حديث عجيب . فقلت له : ما أقوّمه إلّا نحواً من مائة دينار . فقال اسحاق : اسمع حديثه : شربنا يوماً من الأيام ، فبتّ وأنا مُثخَن ، فانتبهت لرسول محمد الأمين ، فدخل عليّ فقال لي : يقول لك أمير المؤمنين عجّل إليّ — وكان بخيلاً على الطعام فكنتُ آكُل قبل أن أذهب اليه — فقمتُ فتسوّقتُ وأصلحتُ أمري ، وأعجلني الرسول عن الغداء. فدخلت عليه وإبراهيم بن المهدي جالس عن يمينه وعليه هذا المطرف وجُبة خزّ دَكناء . فقال لي محمد : يا اسحاق تَغدَّيتَ ؟ فقلت : نعم يا سيّدي . فقال : إنّك لَنَهِمٌ ، أهذا وقت غَداء ! فقلت : أصبحتُ يا أمير المؤمنين وبي خُمار ، فكان ذلك مما حداني على الأكل . فقال لهم : كم شَربنا ؟ فقالوا : ثلاثة أرطال . فقال : أسقوه مثلَها .

---

(١) الشرب (بالكسر) هنا : الحظ من الماء . والوشل هنا : القليل . والتصريد : السقي دون الري . يريد بهذا الشطر أن حظه منهن قليل .

فقلت: إن رأيتَ أن تفرّقها عليّ! فقال: تُسقى رِطلين ورِطلًا. فدُفع إليّ رِطلان فجعلتُ أشربها وأنا أتوهّم أن نفسي تسيل معها، ثم دُفع إليّ رطلٌ آخر فشربتُه فكأنّ شيئًا انجلى عنّي. فقال غنّني:

كُلَيبٌ لَعَمْري كان أكثرَ ناصِراً وأيسرَ جُرْماً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

فغنّيتُه؛ فقال: أحسنتَ وطرِب، ثم قام فدخل. وكان يفعل ذلك كثيراً، يدخل الى النساء ويدَعُنا. فقمتُ في أثر قيامه فدعوتُ غلاماً لي فقلت: اذهب الى منزلي وجئني بِبزْماوَرْدتَين[1] ولُفَّهما في منديل واذهب ركضاً وعجِّل. فمضى الغلام فجاءني بهما. فلما وافى الباب ونزل الدابّة انقطع البِرذَون فنفَق من شدّة ما ركضه، فأدخلَ إليّ البزماوَردتَين فأكلتُهما ورجعتْ إليّ نفسي وعُدتُ الى مجلسي. فقال لي ابراهيم: ان لي اليك حاجة أحبّ أن تقضيها لي. فقلت: إنما أنا عبدُك وابن عبدِك، قل ما شئتَ. قال: تَرُدّ عليّ:

كُلَيبٌ لَعَمْري كان أكثرَ ناصراً

وهذا المِطرفُ لك. فقلت: أنا لا آخُذ منك مِطرفاً على هذا ولكني أصير اليك الى منزلك فألقيه على الجواري وأردّه عليك مراراً. فقال: أحِبّ أن تردّه عليّ الساعةَ وأن تأخذَ هذا المطرفَ فإنه من لُبسك ومن حاله كذا وكذا. فرددتُ عليه الصوتَ مراراً حتى أخذه. ثم سمعنا حركة محمد فقمنا حتى جاء فجلس ثم قعدنا، فشرب ثم تحدّثنا. فغنّاه ابراهيم:

كُلَيبٌ لَعَمْري كان أكثرَ ناصراً

فكأني والله أسمعه قبل ذلك حسناً، وطرب محمد طرباً عجيباً وقال: أحسنتَ

---

(١) البزماورد: طعام يسمى «فخذ الست» وهو مصنوع من اللحم المقلي بالزبد والبيض.

والله يا عمّ! أعطِ يا غلام عشرَ بِدَرٍ لعمّي الساعةَ ، فجاءوا بها . فقال : يا أمير المؤمنين ان لي فيها شريكاً . قال : ومن هو ؟ قال : إسحاق . قال : وكيف ؟ قال : إنما أخذتُه الساعةَ منه لمّا قمتَ . فقلت له : ولمَ ! أضاعت الأموال على أمير المؤمنين حتى يُشركك فيما تُعطاه ! قال : أمّا أنا فأشركك وأميرُ المؤمنين أعلم . فلما انصرفنا من المجلس أعطاني ثلاثين ألفاً وأعطاني هذا المطرف . فهذا أخذ به مائة ألف درهم وهي قيمتُه .

حج مع الرشيد، وقصته مع جارية رآها :

أخبرني محمد بن خلف بن المرزُبان قال حدثنا حمّاد بن اسحاق عن أبيه قال قال لي ابراهيم بن المهدي :

حَججتُ مع الرشيد ؛ فلما صرنا بالمدينة خرجتُ أدور في عَرَصاتها ، فانتهيت الى بئر وقد عَطِشتُ وجاريةٌ تستقي منها ، فقلت : يا جارية ، امتحي لي دَلواً . فقالت : أنا والله عنك في شُغل بضريبة مَواليّ عليّ . فنقرتُ بسوطي على سَرجي وغنّيتُ :

صوت

رام قلبي السُّلوَّ عن أسماء   وتَعزّى وما به من عَزاء
سُخنةٌ في الشتاء باردةُ الصيـــف سِراجٌ في الليلة الظلماء
كفِناني إن مُتُّ في دِرع أروى   وامتحا لي من بئر عُروةَ مائي

— الشعر للأحوص . والغناء لمعبد رَمَلٌ مُطلق في مجرى الوسطى عن اسحاق — وتمام هذه الأبيات :

إنني والذي تَحُجّ قريشٌ بيتَه سالكين نَقبَ كَداء[1]
لَمُلِمٌّ بها وان أبتُ منها صادراً كالذي وَرَدتُ بداء
ولها مَرْبَعٌ ببُرْقَةِ خاخٍ[2] ومَصيفٌ بالقصر قصرِ قُباء
قلبتْ لي ظهرَ المِجَنّ فأمستْ قد أطاعت مقالةَ الاعداء

ولمعبد أيضاً في البيت الأخير من هذه الأبيات ثم الأول والثاني خفيفُ ثقيلٍ عن الهشامي . ولابن سُرَيج في :

ولها مَربَعٌ ببُرْقة خاخٍ
وكَفِّناني ان متّ في درع أروى

رَمَلٌ عن الهشامي أيضاً . ولإبراهيم في : « رام قلبي » وما بعده ثاني ثقيلٍ عن حبش – قال ابراهيم بن المهدي في الخبر : فرفعتِ الجاريةُ رأسها إليّ فقالت : أتعرفُ بئر عُروةَ ؟ قلت لا . قالت : هذه والله بئر عُروة، ثم سَقَتني حتى رَويت، وقالت : إنْ رأيتَ أن تُعيده فَعلتُ ، فطربت وقالت : والله لأحملنّ قِربةً الى رَحلك ! فقلت : أفعلي ، ففعلَتْ وجاءت معي تحملها . فلما رأتِ الجيشَ والخدمَ فزِعتْ . فقلت لها : لا بأس عليكِ ! وكسوتُها ووهبتُ لها دنانيرَ وحبستُها عندي ، ثم صِرت الى الرشيد فحدّثته حديثَها ؛ فأمر بأبتياعها وعِتقها ؛ فما برِحت حتى أشتُرِيتْ وأعتقت ، وأخذتُ لها منه صلةً وأفترقنا .

حواره مع المأمون :

حدثني علي بن سليمان الأخفش ومحمد بن خلف بن المَرزُبان قالا حدثنا محمد ابن يزيد النحوي قال حدثنا الفضل بن مروان قال :

(١) كداء بأعلى مكة عند المحصب .

(٢) برقة خاخ : قرب المدينة، وكذلك قباء .

لمّا أُدخِل ابراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظَفِر به ، كلّمه ابراهيم بكلام كان سعيد بن العاص كلّم به معاوية بن أبي سفيان في سَخطةٍ سخِطها عليه وأستعطفه به . وكان المأمون يحفظ الكلام ، فقال له المأمون : هيهاتَ يا ابراهيم ! هذا كلامٌ سبقك به فَحْلُ بني العاص بن أُميَّة وقارِحُهم سعيد بن العاص وخاطب به معاوية . فقال له ابراهيم : مَهْ يا أمير المؤمنين ؟ ! وأنت أيضاً ان عفوتَ فقد سبقك فَحْلُ بني حَرْبٍ وقارِحُهم الى العفو ؛ فلا تكن حالي عندك في ذلك أبعدَ من حال سعيد عند معاوية ، فإنك أشرفُ منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب اليك من سعيد الى معاوية ، وان أعظم الهُجنة أن تسبق أميّةُ هاشماً الى مَكرُمة . فقال : صدقتَ يا عمّ ، وقد عفوتُ عنك .

غضب عليه الأمين فاستعطفه :

أخبرني محمد بن خلف بن المرزُبان قال حدثنا حمّاد بن اسحاق عن أبيه قال :

جرى بين محمد الأمين وبين ابراهيم بن المهدي كلامٌ على النّبيذ ، فوجد عليه محمد . فلما كان بعد أيام بعث اليه ابراهيم بألطافٍ فلم يقبلها ؛ فوجّه اليه وصيفةً مليحة مغنّية معها عود معمول من عود هندي ، وقال هذه الأبيات وغنّى فيها وألقاها عليها حتى أخذت الصنعةَ وأحكمَتْها ، ثم وجّه بها اليه . فوقفت الجارية بين يديه وقالت له : عمُّك وعبدُك يا أمير المؤمنين يقول لك — وأندفعتْ تغنّي بالشعر وهو — :

هَتكتَ الضميرَ بردَ اللّطفْ ... وكشّفتَ هجرك لي فأنكشفْ
وإن كنتَ تُنكر شيئاً جرى ... فَهَبْ للخلافة ما قد سَلَف
وجُدْ لي بصفحك عن زلّتي ... فبالفضل يأخذ أهلُ الشرف

قال : فسُرّ محمدٌ بها ، وبعث الى ابراهيم فأحضره ورضي عنه وأمر له بخمسة آلاف دينار ونَعِم يومَه معه .

صالح جاريته صدوف :

أخبرني محمد بن خلف بن المَرزُبان قال أخبرني سعيد بن صالح الأسديّ قال حدثني جعفر بن محمد الهاشمي قال حدثني بعض خدم ابراهيم بن المهدي قال :

كانت لإبراهيم بن المهدي جارية يقال لها صدوف، وكان لها من نفسه موضع. فحسدها جواريه على محلّها منه ، فلم يَزَلنَ يُبلغنه عنها ما يَكره حتى غضِب عليها وجفاها أياماً ؛ ثم شقّ ذلك عليه واغتمّ به ، ولم يطِب نفساً بمراجعتها وصُلحِها. فدخل عليه الأعرابي أخو مُعلّلة صاحبة الفضل بن الربيع ، وكان حسنَ الشِعر حُلوَ اللفظ فصيحاً ، وكان ابراهيم يأنس به ، فقال له : ما لي أرى الأمير منكسراً منذ أيام ؟ فأمسك . فقال : قد عرفتُ حالَ الأمير وقلتُ في أمره أبياتاً إن أذِن لي أنشدتُه إياها . فتبسم وقال : هاتِ ؛ فأنشده :

أعَتَبتَ أم عتبتْ عليك صَدوفُ وعِتابُ مثلِك مثلَها تشريفُ
لا تَقعُدنّ تلومُ نفسَك دائباً فيها وأنتَ بحبّها مشغوف
إن الصَّريعة لا يَنُوء بحملها إلّا القوي بها وأنت ضعيف

فاستحسن ابراهيم الأبيات وأمر له بمائتي دينار ، وبعث الى صَدوفَ فخرجت اليه ورضي عنها ، وبعثتْ اليه صدوفُ بمائة دينار .

قيل له تب واحرق دفاتر الغناء :

أخبرني الحسين بن القاسم الكوكبي قال حدثني أحمد بن علي بن حُمَيدة قال حدثتني رَيّقُ قالت :

مَرِض ابراهيم بن المهدي مَرْضَةً أشرفَ منها على الموت ، فجعل يتذكر شغفه

بالغناء وما سلَف له فيه ويتندّم عليه . فقال له بعض مَن حضر : فتُبْ وأحرِقْ دفاترَ الغناء . فحرّك رأسه ساعة ثم قال : يا مجانين ! فهَبْني أحرقتُ دفاتر الغناء كلّها ، رَيّقْ أيشِ أعمَل بها ؟ أأقتُلها وهي تحفَظ كلّ شيء في دفاتر الغناء !! .

رأى علياً في النوم :

أخبرني جعفر بن قُدامة والحسين بن القاسم الكوكبي قال حدثني المُبرّد عن أحمد بن الربيع عن ابراهيم بن المهديّ قال :

رأيتُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم ، فقلت له : ان الناس قد أكثروا فيك وفي أبي بكر وعمر ، فما عندك في ذلك ؟ فقال لي : إخسأ ! ولم يَزِدني على ذلك . وأخبرني الكوكبي بهذا الخبر عن الفضل بن الرّبيع عن أبيه قال :

كان ابراهيم شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ فحدّث المأمونَ يوماً أنه رأى علياً في النوم ، فقال له : من أنت ؟ فأخبره أنه علي بن أبي طالب . قال : فمشَينا حتى جئنا قنطرةً فذهب يتقدّمني لعبورها ؛ فأمسكتُه وقلت له : إنما أنت رجلٌ تَدّعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحقّ به منك ! فما رأيتُ له في الجواب بلاغةً كما يُوصف عنه . فقال : وأي شيء قال لك ؟ فقال : ما زادني على أن قال سلاماً سلاماً . فقال له المأمون : قد والله أجابك أبلغ جواب . قال : وكيف ؟ قال : عرّفك أنك جاهلٌ لا يُجاوَب مثلُك ؛ قال الله عز وجل : (وإذَا خاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قَالُوا سَلاماً) . فخجِل ابراهيم وقال : ليتني لم أحدّثك بهذا الحديث .

أخبرني الكوكبي قال حدثنا المفضّل بن سَلَمة عن هبة الله بن ابراهيم بن المهدي عن أبيه قال :

قلت للأمين يوماً : يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك ! فقال : بل جعلني الله فداءك ؛ فأعظمتُ ذلك . فقال يا عمّ لا تُعظِمْه فإنّ لي عمراً لا يَزيد ولا يَنقُص ، فحياتي مع الأحبّة أطيبُ من تجرُّعي فقدَهم ، وليس يضرّني عيش من عاش بعدي منهم :

غنى للأمين لحناً فطرب وطلب اليه أن يلقنه إحدى جواريه :

حدثني جَحظة قال حدثني هبة الله بن ابراهيم بن المهدي قال حدثني أبي قال :

كنت يوماً بين يدي الأمين أغنيه ؛ فغنّيته :

صوت

أقوَتْ منازلُ بالهضابِ من آل هندٍ والرَّبابِ
خطّارة بزِمامها وإذا وَنَتْ ذُلُلُ[1] الرِّكاب
تَرمي الحصا بمَناسِمٍ صُمٍّ صَلادِمةٍ صِلاب

قال : فاستحسن اللّحنَ وسألني عن صانعه ؛ فعرّفته أنّ ابن جامع حدثني عن سِياط أنه لابن عائشة ؛ فلم يزل يشرب عليه لا يتجاوزه ، ثم انصرفنا ليلتنا تلك . ووافاني رسوله حين انتبهت من النوم وأنا أستاك ، فقال لي : يقول لك : بحياتي يا عمّ لا تشتغل بعد الصلاة بشيء غير الركوب إليّ . فصلّيتُ وتناولتُ طعاماً خفيفاً وأنا ألبسُ ثيابي خوفاً من رجوع رسوله ، وركِبتُ اليه . فلما رآني من بعيد صاح بي : يا عمّ بحياتي :

(١) ذلل : جمع ذلول وهو السهل المنقاد من الناس والدواب .

خطّارة بزمامها

فلمّا دخلت المجلس أبتدأته وغنّيته؛ فأمر باحضار صَبيَّةٍ كان يتحظّاها، فأخرجتْ إليّ صبيَّةٌ كأنها لؤلؤة في يدها العود. فقال: بحياتي يا عمّ ألقِه عليها! فأعدتُه مراراً وهو يشرب؛ حتى إذا ظننتُ أنها قد أخذته أمرتُها أن تغنّيه فغنّته، فإذا هو قد أستوى لها إلّا في موضع كان فيه وكان صعباً جداً فجهدتُ جهدي أن يقع لها طلباً لمسرّته، وكان حقيقاً منّي بذلك، فلم يقع لها البتّة. ورأى جهدي في أمرها وتعذُّرَه عليها، فأقبل عليها وقد سَكِر ثم قال: نُفِيتُ من الرشيد وكلّ أمةٍ لي حُرّة وعليّ عهدُ الله لئن لم تأخذيه في المرّة الثالثة لآمرنّ بالقائك في دِجلة! قال: ودِجلة تطفَح وبيننا وبينها نحو ذراعين وذلك في الرّبيع، فتأمّلتُ القصّة، فاذا هو قد سَكِر، وإذا الجارية لا تقوله كما أقوله أبداً. فقلت: هذه والله داهية، ويتنغص عليه يومُه وأشرَكُ في دمها، فعدلتُ عمّا كنتُ أغنّيه عليه وتركتُ ما كنت أقوله، وغنّيته كما كانت هي تقوله، وجعلتُ أردّده حتى أنقضت الثلاثُ مرّات أعيده فيها على ما كانت هي تقوله، وأريتُه أني أجتهد. فلما أنقضت الثلاث المرّات قلت لها: هاتيه الآن، فغنّته على ما كان وقع لها فقلت: أحسَنْتِ يا أمير المؤمنين، وردّدْتُه معها ثلاث مرّات، فطابت نفسُه وسكَن، وأمر لي بثلاثين ألف درهم. قال جَحظةُ: وقد لحقني مثلُ هذا؛ فإنّ طَرْخانَ بن محمد بن اسحاق بن كنداجيق أستحسن صوتاً غنّيته وهو:

أعيانِيَ الشّادِنُ الرَّبيبُ   أكتُبُ أشكو فلا يُجيبُ
من أين أبغي شفاءَ دائي   وإنّما دائِيَ الطّبيبُ

— ولحنُه رَمَلٌ — فقال: أُحِبّ أن تطرَحه على زُهرةَ جاريتي، فمكثتُ أتردّدُ اليها شهراً وأكثر وأردّده عليها وهو يَصِلني ويخلَع عليّ ويُعطيني كلّ شيء حسن يكون في مجلسه، فلا تأخذه مني ولا يقع لها. فلمّا كان بعد شهر قلت له: أيّها الأمير قد والله أستحييتُ من كثرة ما تُعطيني بسبب هذا الصوت، وقد أيِسْتُ

أن تأخذه زُهرةُ ؛ ثم حدثته حديثَ ابراهيم بن المهدي وقلت له : لولا أني آمَنُك عليها لقلتُه أنا كما تقوله هي حتى نتخلّص جميعاً . وليس وحياتِك تأخذه أبداً كما أقوله ولا فيه حيلة . فقال لي : فدَعْهُ إذاً .

حدثني جَحظةُ قال حدثني هبة الله بن ابراهيم قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال :

غنى ابراهيم بن المهديّ يوماً بحضرة المأمون :

صوت

يا صاح يا ذا الضامرِ العَنسِ   والرَّحلِ ذي الأنساعِ والحِلسِ
أمّا النهارُ فأنت تقطعُه   رَتْكاً وتُصبح مثلَ ما تُمسي

— في هذين البيتين لحن لمالكٍ خفيفُ ثقيلٍ عن يونسَ والهشاميّ . قال : ولمعبد فيه ثقيل اول، وقد نسب قومٌ لحنَ كلٍّ واحد منهما الى الآخر . قال محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر في الخبر : واللحن لمالك بن أبي السَّمح وهو من قِصاره . هكذا في الخبر — قال : فاستحسنه المأمون، وذهبتُ آخذه، ففطِن لي ابراهيم فجعل يزيد فيه مرّةً وينقص منه أخرى بزوائده التي كان يعملها في الغنـاء ، وعلِمتُ ما هو يصنع فتركتُه . فلمّا قـام قلت للمأمون : يا سيّدي إن رأيتَ أن تأمر ابراهيم أن يُلقي عليّ :

يا صاح يا ذا الضامرِ العَنسِ

قال : أفعَلُ . فلما عاد قال له : يا ابراهيم ألقِ على محمد :

يا صاحِ يا ذا الضامرِ العَنسِ

فألقاه عليّ كما كان يغنّيه مُغيّراً، ثم انقضى المجلس وسكِر المأمون. فقال لي إبراهيم: قم الآن فأنت أحذقُ الناس به، فخرجتُ وخرج. ثم جئتُه الى منزله فقلت له: ما في الأرض أعجبُ منك! أنت ابن الخليفة وأخو الخليفة وعمُّ الخليفة تبخل على وليّ لك مثلي لا يُفاخرك بالغناء ولا يكاثرك بصوت!! فقال لي: يا محمد ما في الدنيا أضعف عقلاً منك! والله ما استبقاني المأمون محبّةً لي ولا صلةً لرَحِمي، ولكنه سمع من هذا الجِرم شيئاً فقده من سواه فاستبقاني لذلك. فغاظني فعله. فلما دخلت على المأمون حدّثتُه بما قال لي. فقال المأمون: يا محمد هذا أكفر الناس لنعمةٍ! وأطرق ملياً ثم قال لي: لا نكدّرُ على أبي اسحاق عَفوَنا عنه ولا نقطع رَحِمَه، فدعْ هذا الصوتَ الذي ضَنَّ به عليك الى لعنة الله.

قال بيتاً يكيد به لدعبل:

حدثني الحسن بن عليّ قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني محمد ابن يزيد قال:

قلت لدِعبِل: بالله أسألك أنت القائل:

كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ   اذا حُسِبوا يوماً وثامنهُم كلبُ

فقال: لا والله! فقلت: مَن قاله؟ قال: مَن حشا الله قبره ناراً ابراهيمُ بن المهديّ، كافأني بذلك عن هجائي إياه ليُشيط[1] بدمي.

أخبرني محمد بن مَزيَد قال حدثنا حمّاد بن اسحاق قال حدثني محمد بن الحارث ابن بُسخُنَّر قال:

---

(١) اشاط دمه وبدمه: أذهبه.

لمّا رضي المأمون عن ابراهيم بن المهديّ ونادمه، دخل عليه متبذّلاً في ثياب المغنّين وزيهم . فلما رآه ضحك وقال : نزع عمي ثيابَ الكِبر عن منكبيه . فدخل وجلس، وأمر المأمونُ بأن يُخلَع عليه فأُلبِس الخِلَعَ . ثم ابتدأ مُخارق فغنى :

صوت

خليليّ من كعبٍ ألِمّا هُديتُما   بزينبَ لا يَفقِدْكُما أبداً كعب
من اليوم زُوراها فإنّ مَطيّنا   غداةَ غدٍ عنها وعن أهلها نُكبُ (١)

فقال له ابراهيم : أسأتَ وأخطأتَ . فقال له المأمون : يا عمّ إن كان أساء وأخطأ فأحسِنْ أنتَ : فغنى ابراهيم الصوت . فلمّا فرغ منه قال لمخارق : أعِده الآن، فأعاده فأحسَنَ . فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين كم بين الصوت الآن وبينه في اول الأمر؟ قال : ما أبعدَ ما بينهما ! فالتفت الى مخارقٍ ثم قال : إنما مَثَلُك يا مُخارق مَثَل الثوب الوَشْيِ الفاخر، اذا تغافل عنه أهله سقط عليه الغبار فحال لونُه، فاذا نُفِضَ عاد الى جوهره .

أخبرني جعفر بن قُدامة قال حدثتني شاريةُ الكبرى مولاة ابراهيم بن المهديّ قالت : سمعت مولاي ابراهيم بن المهديّ يحدّث قال :

كنتُ بين يدي الرشيد جالساً على طَرَف حَرّاقةٍ من حرّاقاته وهو يريد الموصلَ وقد بلغنا الى السودقانية، والمدّادون يمُدّون السفن، والشِّطرَنجُ بيني وبينه، والدَّستُ متوجِهٌ له، إذ أطرق هُنيهةً ثم قال لي : يابنَ أمّ، ما أحسنُ الأسماء عندك؟ قلت : محمدٌ اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ثم أيّ شيءٍ بعده؟ قلت : هارون اسم أمير المؤمنين . قال : فما أسمج الأسماء؟ قلت : ابراهيم

---

(١) نكب : مائلات، واحدها انكب ونكباء .

فزجرني ثم قال : ويحك ! أتقول هذا ! أليس هو اسم ابراهيم خليل الرحمن ! فقلتُ له : بشؤم هذا الاسم لقيَ من نمرُود ما لقي وطُرح في النار . قال : فإبراهيم ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : لا جَرَم أنه لم يُعمَّر من أجله . قال : فإبراهيم الإمام ؟ قلتُ بجرفة أسمه قتله مروان في حَرّان . وأزيدك يا أمير المؤمنين : ابراهيمُ بن الوليد خُلِع ، وإبراهيم بن عبد الله بن حسن قُتل ، وعمُّه إبراهيم بن حسن سقط عليه السجن فمات ، وما رأيتُ والله أحداً يُسمى بهذا الاسم إلا قُتِل أو نُكِب او رأيتُه مضروباً أو مقذوفاً أو مظلوماً . ثم ما انقضى الكلام حتى سمعت مَلّاحاً يَصيح بآخر : مُدّ يا إبراهيم يا عاضّ بَظر أمّه مُدّ . فقلت له : أبَقِيَ لك شيء بعد هذا ! ليس والله في الدنيا اسم أشأم من ابراهيم والسلام . فضحِك والله حتى أشفقتُ عليه .

غنى المأمون لحناً عرض فيه بالحسن بن سهل :

حدثني جَحظة قال حدثني أبو عبد الله الهشاميّ عن أبيه قال :

دخل الحسن بن سَهل على المأمون وهو يشرَب ؛ فقال له : بحياتي وبحقّي عليك يا أبا محمد إلّا شربتَ معي قدَحاً ، وصبّ له من نبيذه قدَحاً . فأخذه بيده وقال له : مَن تُحِبّ أن يغنّيك ؟ فأومأ الى ابراهيم بن المهديّ فقال له المأمون : غنِّه يا عمّ ؛ فغنّاه :

تَسمعُ للحَلي وَسواساً اذا انصرفتْ

يعرِّض به لِما كان لَحِقه من السوداء والاختلاط . فغضِب المأمون حتى ظنّ ابراهيم أنه سيُوقع به ، ثم قال له : أبيتَ إلّا كفراً يا أكفرَ خلقِ الله لنِعَمه ! والله ما حقَن دمك غيرُه ! ولقد أردتُ قتلَك فقال لي : إن عفوتَ عنه فعلتَ فعلاً لم يَسبِقك اليه أحد ، فعفوتُ والله عنك لقوله . أخفُّه أن تعرِّض به ولا تدَع كيدَك

ولا دَغَلك! أوَ أَنِفتَ من إعانته اليك بالغِناء! فوثب ابراهيم قائماً وقال: يا أمير المؤمنين، لم أذهب حيث ظننتَ، ولستُ بعائد؛ فأعرض عنه.

أخبرني الحسين بن القاسم الكوكبيّ قال حدثني جرير بن أحمد بن أبي دُواد قال حدثني أخي عن أبي قال:

كنت أتجنّب الغناء وأطعن على أهله وأذمّ لَهَجهم به؛ فوجّه المعتصم اليّ عند خروجه من مدينة السلام: إلحق بي؛ فلحِقتُ به بباب الشمّاسيّة ومعي غلامي زنقطة، فوجدته قد ركِب الزورق، وسمعت عنده صوتاً أذهلني حتى سقط سوطي من يدي ولم أشعر به، ثم احتجتُ وقد أعنق لي بِرذَوني أن أكُفّه بسوطي. فقلت لغلامي: هاتِ سوطَك؛ فقال: سقط والله من يدي لمّا سمعتُ هذا الغناء. فغلبني الضَّحِكُ حتى بان في وجهي. ودخلتُ الى المعتصم بتلك الحال. فلما رآني قال لي: ما يُضحكك يا أبا عبد الله؟ فحدّثته، فقال: أتتوب الآن من الطعن علينا في السماع؟ فقلت له: قَبلَ ذلك مَن كان يُغنّيك؟ قال: عمي ابراهيم، كان يُغنّيني:

إنّ هذا الطويلَ من آل حَفصٍ أنشر المجدَ بعد ما كان ماتا

ثم قال: أعِده يا عمّ ليسمعه أبو عبد الله فإني أعلم أنه لا يدعُ مَذهبَه. فقلت: بلى والله لأدعَنّه في هذا ولا ألُمتك عليه. فقال: أمّا إذ كانت توبتُه على يديك يا عمّ فلقد فزتَ بفخرها وعدلتَ برجل ضخم عن رأيه الى شأننا.

فضله مخارق على نفسه وعلى إبراهيم الموصلي وابن جامع:

حدثني أحمد بن عُبيد الله بن عمّار قال حدثني طلحة بن عبد الله الطّلحيّ قال حدثني الحسين بن ابراهيم قال:

كنت أسأل مُخارقاً : أيُّ الناس أحسنُ غناء ؟ فيُجيبني جواباً مجملاً حتى حقَقت عليه يوماً قال : كان ابراهيم الموصليّ أحسنَ غناء من ابن جامع بعشر طبقات، وأنا أحسن غناء من ابراهيم الموصليّ بعشر طبقات، وإبراهيمُ بن المهديّ أحسنُ غناء منّي بعشر طبقات. قال ثم قال لي : أحسنُ الناس غناء أحسنُهم صوتاً ، وابراهيم بن المهديّ أحسنُ الجنّ والإنس والوحش والطير صوتاً، وحسبُك هذا.

حدثني عليّ بن هارون المُنجّم قال حدثني محمد بن أحمد بن عليّ بن يحيى قال سمعت جدي عليّ بن يحيى يقول حدثني محمد بن الفضل الجرجاني قال :

إنتبهتُ يوماً مُغلِساً، فدخل إليّ الغلامُ فقال لي : اسحاق الموصليّ بالباب قبل أن أصلّي الغداةَ . فقلت : يدخل، في الدنيا إنسان يستأذن لإسحاق ! فدخل فقال : حملني الشوقُ اليك على أن بَكَرتُ هذا البُكور، وقد حملتُ معي نبيذي وعملتُ على المُقام عندك . فقلت : مرحباً بك وأهلاً . ودعوت طبّاخي فسألته عمّا في المطبخ، فذكر أشياء يسيرةً، منها قطعةُ جَدْيٍ وَطباهِجُ ودُرّاجٌ معلّق . فقال : ما أُريد غيرَ ذلك، هاتِه الساعة . فقلت للطبّاخ : عَجّل بإحضاره، وعملت على الأكل معه وعلى أن نأخذ في شأننا . فدخل حاجبي فقال : رسول الأمير اسحاق[١] بن ابراهيم بالباب، واذا فُرانِقُ يذكر أنه وجّه به الى محمد بن الفضل ليُحضِره . قال فقال لي اسحاق : قم في حفظ الله واجتهد في أن تتعجّل . قال : فتقدّمت الى الخادم بإخراج الجواري اليه ووضعِ النبيذ بين يديه، ولبِستُ ثيابي وخرجت وركبت . فلمّا سِرتُ قليلاً قلت في نفسي : أنا أخسرُ الناسِ صفقةً إن تركتُ اسحاقَ بن ابراهيم الموصليّ في منزلي ومضيتُ الى اسحاق بن ابراهيم المُصعَبيّ، ولا أدري ما يريد مني . فقلت لفُرانِق : هل لك في خير ؟ قال : وما

(١) هو اسحاق بن ابراهيم المصعبي حاكم بغداد في ايام المأمون والمعتصم والواثق، وهو من ارباب المكانة العالية في الرواية والأدب ونقد الغناء .

هو ؟ قلت : تأخذ ثلاثين درهماً وتمضي فتقول : إنك وجدتني شاربَ دواء . قال نعم . فدفعتُ اليه ثلاثين درهماً، وختمتُ له خَتماً ورجعت . فقال لي اسحاق : أسرعتَ الكرَّةَ، فأخبرته بما صنعتُ؛ فقال وُفِّقتَ . فجلست وكان يأكل فأكلت معه، فأخذنا في شأننا . وخرج الجواري الينا فغنَّين حتى مرَّ صوت ابراهيم بن المهديّ في شعره وهو :

جدَّدَ الحبُّ بَلايا أمرُها ليس يسيرا

— ولحنه من الثقيل الثاني — قال : فطرب اسحاق طرباً ما رأيتُه طَرِبَ مِثله قطّ ، وعجب من إحسانه في صَنعته وجودة قسمته ، ولم يزل صوتَنا يومَنا أجمع لا نغنّي غيرَه حتى شرب إسحاق قَطرَميزَه[1] ، وفيه من المشمّس الذي كان يشربه ثلاثة عشر رطلاً ، وكلّما حضرتْ صلاةٌ قام إسحاق يصلي بنا ، فصلّى بنا العَتَمةَ وقد فنيَ قَطرَميزُه فشرب من نبيذي رِطلين على الصوت . قال : وكان محمد بن الفضل ينزل بسوقِ الثلاثاء وإسحاق ينزل على نهر المهدي . وقد وُزِّر محمد ابن الفضل للمتوكِّل قبل عبيد الله بن يحيى .

نسبة هذا الصوت

جدَّدَ الحبُّ بلايا أمرُها ليس يسيرا
كبِرَ الحبُّ وقِدْماً كان إذ حلَّ صغيرا
ذلَّلَ الحبُّ رِقاباً كان أدناها عسيرا
ليس لي من حبِّ إلفي غيرُ حرماني السرورا

الشعرُ والغناء لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيل .

(١) القطرميز : قلة كبيرة من الزجاج .

أخبرني محمد بن يحيي الصولي قال حدثني محمد بن مُوسى بن حَمَّاد قال حدثني عبد الوهّاب بن محمد بن عيسى قال:

استتر ابراهيم بن المهدي عند بعض أهله من النساء، فوكَّلتْ بخدمته جاريةً جميلةً وقالت لها: إن أرادكِ لشيء فطاوعيه وأعلميه ذلك حتى يتسعَ له، فكانت تُوَفّيه حقَّه في الخدمة والإعظام ولا تُعلمه بما قالت لها؛ فجلّ مقدارُها في نفسه الى أن قبَّل يوماً يدَها، فقبَّلَتِ الأرضَ بين يديه. فقال:

يا غزالاً لي اليـهِ شافـعٌ من مُقلَتَيْهِ
والذي أجللتُ خَـدَّ يه فقبَّلتُ يَدَيْـهِ
بأبي وجهُـك ما أكـثر حُسَّادي عليـه
أنا ضيفٌ وجزاء الضَّـيف إحسانٌ اليـه

قال: وعمل فيه بعد ذلك لحناً في طريقة الهَزَج.

وقال أحمد بن أبي طاهر:

غنّى ابراهيم بن المهدي يوماً والمأمون مُصطبحٌ، وقد كان خافه وبلغه عنه تنكُّره:

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منّي هَوَى الدهرُ بي عنها وولَّى بها عنّي

فرَقّ له المأمون لمّا سمعه، وقال له: والله لا تذهب نفسُك يا ابراهيم على يد أمير المؤمنين، فَطِبْ نفساً؛ فإن الله قد أمّنك إلّا أن تُحدِث حَدَثاً يشهد عليك فيه عدلٌ، وأرجو ألّا يكون منك حَدَثٌ إن شاء الله.

نسبة هذا الصوت

صوت

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منّي هوى الدّهرُ بي عنها وولّى بها عنّي
فإن أبكِ نفسي أبكِ نفساً نفيسةً وإن أحتَسِبْها أحتَسِبها على ضنّ

الشعر والغناء لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيل بالوسطى . وهذا الشعر قاله ابراهيم ابن المهدي لمّا أخرج الُجندُ عيسى بن محمد ابن أخي خالد من الحبس ، وله في ذلك خبر طويل ، وقد شرَطنا ألّا نذكر من أخباره إلّا ما كان من جنس الغناء . وفي هذه القصيدة يقول :

وأفلَتَني عيسى وكانت خديعةً حَلَلت بها مُلكي وفُلّتْ بها سِنّي

قال ابن أبي طاهر وحدثني أبو بكر بن الخصيب قال حدثني محمد بن ابراهيم قال :

غنّى ابراهيم بن المهدي يوماً عند المأمون فأحسن ، وبحضرة المأمون كاتبٌ لطاهر يُكنى أبا زيد ، فطرِب حتى وثب فأخذ طرَف ثوب إبراهيم فقبّله . فنظر اليه المأمون مُنكِراً لفعله . فقال ما تنظر ! أقبّله والله ولو قُتِلتُ عليه ! فتبسم المأمون ؛ وقال : أبَيتَ إلا ظَرفاً .

قال ابن أبي طاهر وحدثني علي بن محمد قال سمعتُ بعض أصحابنا يقول :

اجتمع ابراهيم بن المهدي والحسن بن سَهل عند المأمون ؛ فأراد الحسنُ أن يَضَع من إبراهيم فقال له : يا أبا اسحاق أيّ صوت تغنّيه العربُ أحسنُ ؟ يريد بذلك أن يُشَهّر ابراهيمَ بالغناء والعلمِ به . فقال ابراهيم : بيت الأعشى :

تَسمَع للحَلي وَسْواساً اذا انصرفتْ

أي إنك مُوَسوِس، وكان بالحَسَن شيءٌ من هذا .

أخبرني عمي عن جدّي عن عليّ بن يحيي المنجِّم قال :

غنّت مُغنّية وإبراهيم بن المهديّ حاضر :

مَن رأى نُوقاً غدَت سَحَرا

فقال ابراهيم : أنا رأيتُ هذا . قيل له : وأين رأيتَه أيها الأمير ؟ قال : رأيتُ ولد عليّ بن رَيطة يَمضون في السَّحَر الى الصيد .

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثني الحسن بن عُلَيل العنَزيّ قال حدثني بعضُ الكتّاب عن رَيّقَ قالت :

خرجتُ يوماً الى سيّدي (تعني ابراهيم بن المهديّ) وقد صنع لحنه في :

وإذا تُباع كريمةٌ أو تُشترى فسواكَ بائعُها وأنت المُشتري
وإذا صنعتَ صنيعةً أتممتَها بيدين ليس نَداهما بمُكدَّرِ

وجاريةٌ لنا روميّة أعجميَّة لا تُفصِح في أقصى الدار تكنُس، وهو يطرح الصوت على شارية، والأعجميَّة تبكي أحرّ بكاء سمعتُه قطّ، فجعلتُ أعجَب من بكائها وأنظر اليها حتى سكَتَ، فلما سكت قطَعَتِ البكاء، فعلمتُ أنّ هذا من غَلَبته بحسن صوته لكل طبعٍ فصيحٍ وأعجميٍّ .

أخبرني الحسين بن يحيي وابن المكيّ وأبن أبي الأزهر عن حمّاد بن اسحاق عن أبيه قال :

غنى ابراهيم بن المهديّ ليلةً محمداً الأمين صوتاً لم أرضَه في شعر لأبي نُواس وهو :

يا كثيرَ النَّوح في الدِّمَنِ لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنَّةُ العُشّاق واحدةٌ فإذا أحببتَ فاستَكِن
ظَنَّ بي من قد كَلِفتُ به فهو يجفوني على الظِّنَن
رَشَأٌ لولا ملاحتُه خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَن

فأمر له بثلثمائة الف درهم . قال اسحاق فقال ابراهيم له : يا أمير المؤمنين قد أجزتَني الى هذه الغاية بعشرين الف درهم، فقال : هل هي إلا خراج بعض الكُوَر! هكذا ذكر اسحاق . وقد روى محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر هذه الحكاية عن ابراهيم فقال : لمّا أردتُ الانصراف قال : أوقِروا زورق عمّي دنانيرَ، فانصرفتُ بمال جليل .

أخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون قال ذكر لي أبو عبد الله الهشاميّ عن أهله قال قال ابراهيم بن المهديّ – وقد خرج الى ذكر الطَّبل والإيقاع به – فقال ابراهيم :

هو من الآلات التي لا يجوز أن تُبلغ نهايتُها . فقيل له : وكيف خُصَّ الطَّبل بذلك ؟ فقال : لأنّ عمل اليدين فيه عملٌ واحد، ولا بُدّ من أن يَلحَقَ اليسارَ فيه نَقصٌ عن اليمين ، ودعا بالطبل ليُرِيَنا كيف ذلك فأوقع إيقاعاً لم نكن نظنّ أن مثله يكون، وهو مع ذلك يرينا موضعَ زيادة اليمين على اليسار. قال وقال له الأمين في بعض خَلَواته : يا عمّ أشتهي أن أراك تَزمُر . فقال : يا أمير المؤمنين، ما وضعتُ على فمي ناياً قطّ ولا أضعُه، ولكن يدعو أمير المؤمنين بفلانة – من موالي المهديّ – حتى تَنفُخ في الناي وأمرّ يدي عليه . فأُحضِرَتْ ووضعت الناي على فيها وأمسكه ابراهيم، فكلما مرّ الهواء أمرّ أصابعه ، فأجمع سائرُ من حضر على أنه لم يسمع مثله قطّ .

وأخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون ايضاً قال حدثني أبي قال حدثني عبيد الله ابن عبد الله وأبو عبد الله الهشاميّ قالا :

كان ابراهيم بن المهديّ اذا غنى لحنه :

هل تَطمِسون من السماء نُجومَها بأكفِّكم أو تَستُرون هلالها

فبلغ الى قوله :

جبريلُ بلّغها النبيّ فقالها

هزّ حلقه فيه ورجّعه ترجيعاً تتزلزل منه الأرضُ .

أخبرني محمد بن ابراهيم قُرَيض قال حدثني عبد الله بن المعتزّ قال حدثني الهشاميّ قال :

كانت متيّم الهشاميّة ذات يوم جالسة بين يدي المعتصم ببغداد وابراهيم بن المهديّ حاضرٌ ، فتغنّت متيّم في الثقيل الاول :

لزينبَ طيفٌ تَعتريني طوارقُه

فأشار اليها ابراهيم أن تُعيده . فقالت متيّم للمعتصم : يا سيّدي إن ابراهيم يَستعيدني الصوتَ وأظنّه يريد أن يأخذه . فقال لها : لا تُعيديه . فلما كان بعد أيام كان ابراهيم حاضراً بمجلس المعتصم وكانت متيّمُ غائبةً عنه ، فانصرف ابراهيم بالليل الى منزله ومتيّم في منزلها بالميدان وطريقُه عليها وهي في مَنظَرةٍ لها مُشرِفةٍ على الطريق وهي تَطرَح هذا الصوتَ على بعض جَواري بني هاشم ، فتقدّم الى المَنظرة على دابّته وتَطاول حتى أخذ الصوتَ ، ثم ضرب بابَ المنظرة بمقرَعته وقال : قد أخذناه بلا حمدك .

نسبة هذا الصوت

لزينبَ طيفٌ تَعتريني طوارِقُهْ ... هُدُوءاً اذا النّجمُ ارجحنّت[١] لواحِقُهْ
سَيُبكيك مِرنانُ[٢] العشيِّ يُجيبُهُ ... لطيفُ بنانِ الكفِّ دُرمٌ مَرافقُهْ
اذا ما بِساطُ اللّهوِ مُدّ وقُرِّبت ... للذّاته أنماطُــه ونمارِقُــه

الشعر للنُّميريّ. والغناء لمعبد، ولحنُه من القَدْر الأوسط من الثقيل الاول بالبنصر في مجراها عن اسحاق. وفيه لمالك خفيفُ ثقيل اول بالبنصر عن يونس والهشاميّ.

أخبرني عليّ بن هارون قال حدثني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال:

كان محمد بن موسى المُنجِّم يقول: حكَمتُ أنّ ابراهيم بن المهديّ أحسنُ الناس كلّهم غناء ببرهان، وذلك أنّي كنتُ أراه بمجالس الخلفـاء مثلِ المأمون والمعتصم يغني المغنون ويغنّي، فإذا ابتدأ الصوت لم يبقَ من الغلمان والمُتصرّفين في الخدمة وأصحاب الصناعات والمِهَن الصِغار والكِبار أحدٌ إلّا تَرَكَ ما في يده وقَرُب من أقرب موضع يمكنه أن يَسمَعَه، فلا يزال مُصغياً اليه لاهياً عمّا كان فيـه ما دام يُغني، حتى اذا أمسك وتَغنّى غيرُه رجَعوا الى التشاغُل بما كانوا فيه ولم يلتفتوا الى ما يسمعون. ولا برهانَ أقوى من هذا في مثل هـذا من شهادة الفِطَن له واتِّفاق الطبائع — مع اختلافها وتشعُّب طُرُقها — على الميل اليه والانقياد له.

حدثني أحمد بن جعفر جَحظة قال حدثني هِبةُ الله بن ابراهيم بن المهديّ قال:

قلتُ للمعتصم: كانت لأبي أشياء لم يكن لأحدٍ مثلها. فقال: وما هي؟

---

(١) ارجحن النجم: مال نحو المغرب.

(٢) المرنان: الكثير الرنين.

قلت : شارية وزامِرتُها مَعمعةُ . فقال : أمَّا شارية فعندنا، فما فعلت الزَّامرة ؟ قلت : ماتت . قال : وماذا ؟ قلت : وساقِيَتُه مَكنونة ، ولم يُرَ أحسنُ وجهاً ولا ألْيَنُ ولا أظرفُ منها . قال : فما فَعَلَتْ ؟ قلت : ماتت . قال : وماذا ؟ قلت : نخلةٌ كانت تحمِل رُطَباً طولُ الرُّطبةِ منها شبر . قال : فما فعلت ؟ قلت : جَمَّرتُها بعد وفاته . قال : وماذا ؟ قلت : قَدَحُه الضَّحْضاح . قال : وما فعل ؟ قلت : الساعةَ والله حَجَمني فيه أبو حَرْملة فسألته أن يَهَبه لي ففعل ، ووَجهتُ به الى منزلي فغُسِلَ ونُظِّفَ وأُعيد الى خِزانتي ، فرأيتُ أبي فيما يَرى النائمُ في ليلتي تلك وهو يقول لي :

أيُنْزَعُ ضَحضاحي دماً بعد ما غَدَتْ عليَّ به مكنونةٌ مُتْرَعاً خمرا
فإن كنتَ منّي أو تحبّ مَسَرَّتي فلا تُغفِلَنْ قبل الصباح له كَسْرا

فأنتبهتُ فَزِعاً وما فَرَق الصبح حتى كسرتُه .

فأمَّا المُماظَّة[1] التي كانت بينه وبين إسحاق فقد مضى في خبر إسحاق منها طَرَفٌ . ونذكر ها هنا منها ما جرى مجرى محاسنِ إبراهيم والقيام بحجّته إن كانت له ، وعذره فيما عيب عليه لأنه بذلك حقيق . فمن ذلك نسختُ من كتابٍ أعطانيه أبو الفضل العباس بن أحمد بن ثَوابة رحمه الله بخطّ اسحاق في قِرْطاس — وأنا أعرف خطّه — وجوابٍ لإبراهيم بن المهدي في ظهره بخطّ ضعيف وأظنّه خطّه ؛ لأنه لو كان خطّ كاتبٍ لكان أجود من ذلك الخطّ ، وقد ذهب أوّلُ الكتاب فذهب منه أوّلُ الابتداء والجواب ، ونسختُ بقيَّته ؛ فكان ما وجدتُه من أبتداء إسحاق :

وكنتَ — جُعِلتُ فِداءك — كتبتَ في كتابك الى محمد بن واضح تذكر أنك مولاي وسيدي . فمتى دفعتُ ذلك ! وهل لي فخرٌ غيره ! أو لأحدٍ عليَّ وعلى

(١) المماظة : المخاصمة والمنازعة .

أبي رحمه الله من قبلي نعمةٌ سواكم!. وأُحِبُّ ذلك أن يكون، وأرجو أن أموت قبل أن يَبتليَني الله بذلك إن شاء الله. فأمّا ذِكرُك – جُعِلتُ فداءك – الصناعةَ فقد أجلّ الله قدرَك عن الحاجة الى دفعها والاعتذار عنها. وأمّا أنا المسكينَ فأنت تعلم أني لم أتّخذ ما نحن فيه صناعةً قطّ، وأني لم أُرِدها إلّا لكم شكراً لنعمتكم وحبّاً للقرب منكم واليكم. فليس ينبغي أن يَعيبني ذلك عندكم، ولا يجوز لأحدٍ أن يعيبني به إذ كان لكم. وقد علمتُ أنك لم تضعني من عَلّويه ومُخارق بحيث وضعتَني إلّا لغضبٍ أحوَجك إلى ذلك، وإلّا فأنت تعلم أنهما لو كانا مملوكَين لي لآثرتُ تعجيلَ الرّاحةِ منهما بعتقهما أو تَخليَةِ سبيلهما على ثمنٍ أُصيبه ببيعهما او حَمْدٍ أكتسبه بثمنهما، فكيف أظنّ أني عندك مثلهما، أو أنك تَقرِنُني اليهما وتذكرني معهما! أوَ تلومني الآن على أن أخرَس فلا أنطِق بحرف، وأن أفِرّ من الغناء فِرارَك من الخطأ فيه، وأمتعضَ منه امتعاضَك ممن يُخفي عليك شيئاً من علومه!. كيف ترى – جُعِلتُ فِداءك – الآن سِبابي وأنت ترى أنّ أحداً لا يُحسن السَّبّ غيرُك!. قد أحدثتَ لي – جعلتُ فداءك – أدباً وزِدتَني بصيرةً فيما أُحِبُّ من تركِه وتركِ الكلام فيه. فإن ظننتَ أنّ هذا فِرارٌ من الحجّة وتعريدٌ[1] عن المناظرة، كما قلتَ، فقد ظفِرت وصرت إلى ما أحببت؛ وإلّا فإنه لا ينبغي للحرّ أن يتلهّى بما لا تقوم لذّته بمعرّته، ولا لعاقلٍ أن يبذل ما عنده لمن لا يحمده، ولعلّه لا يقلّب العينَ فيه حتى يلحقه ما يكره منه. وأمّا ما قاله أبي – رحمه الله – من أنه لم يزل يتمنّى أن يرى من سادته مَن يعرف قدرَه حقّ معرفته ويبلغ علمه بهذه الصناعةِ الغايةَ العظمى حتى رآك، فقد صدَق ما زال يتمنّى ذلك وما زلتُ أتمنّاه. فهل رأيت – جُعِلتُ فِداءك – حظّي منه إلّا بأن ساويتَ به من لم يكن يساوي شِسْعَه، ولعلك لا ترضى في بعض القوم حتى تفضّله عليه، لا تنفعه عندك معرفةٌ به، ولا رعايةٌ لطول الصُّحبة والخِدمة، ولا حفظٌ لآثارٍ محمودةٍ باقيةٍ نذكرها ونحتجّ بها. ثم ها أنا من بعده تضَعُني بالموضع

(١) التعريد: الفرار.

الذي تضعني به ، وتنسُبني الى ما تنسبني اليه ؛ لأني توخّيتُ الصوابَ وأجتهدتُ في البَذْل والمناصحة، لا يدفعك عنّي حِفظٌ لسَلَفٍ، ولا صيانة لخَلَفٍ ولا استدامةٌ لقديم ما نعلم، ولا مصانعةٌ لما تطلب، ولا ولاء مما أكره أن أقوله . فما أرى – جُعِلتُ فِداءك – من معرفتك بنا في أيدينا إلّا تجرُّعَ الحسرات، وتطلُّبك لنا العثرات، واللهُ المستعان . كيف أصنع جُعِلتُ فداءك ! إن سكتُّ لم تقبل ذلك مني ، وإن صدَقتُ كذّبتني ، وإن كذبتُ ظفرتَ بي ، وإن مَزَحتُ لأُطربك وأضحكك وأقرُبَ من أنسِك وآخذَ بنصيبي من كرمك غضِبتَ وسببتَ ، ولو كنتُ قريباً منك لضَرَبْتَ ! وليتك فعلتَ ، فكان ذلك أيسرَ من غضبك . ثم من أعظم المصائب عندي أمرُك إيّايَ أن أسأل محمد بن واضح عن قولٍ قُلتَه فيَّ عند عمرو ابن بانة . فوالله – جُعِلتُ فداءك – إني لأبشَع(١) بذكره فكيف أُحِبُّ أن أذكره وأذكر له ! وإني لأرثي لك من النظر اليه ، وأعجب من صبرك عليه ، مع أني – أعوذ بالله من ذلك – لو رغبتُ في هذا منه ومن مثله لكفيتُك ونفسي ذلك بأن أكسُوَه ثوبين ، أو أهبَ له دينارين ، أو أقول له أحسنت في صوتين ، حتى نبلغ أكثر مما أردت لي او أريده لنفسي . فالحمدُ لله الذي جعل حظِّي منك هذا ! ومثله غير مستَصْغِر لشأنك ولا مستقلٍّ لقليل حسن رأيك . واللهَ أسأل أن يطيل بقاءك ، ويحسن جزاءك ، ويجعلني فداءك . قد طال الكتاب ، وكثر العِتاب . وجملة ما عندي من الإعظام والإجلال اللّذين لا أخاف أن أجعلها عندك ، والمحبة التي لا أمتنع منها ولا أعرف سواها ، والسمع والطاعة في تسليم ما تحب تسليمه والإقرار بما أحببتَ أن أقرّ به ، وسأشهد على ذلك محمد بن واضح وأُشهد لك به من أحببتَ وأؤدّي الخَراج . ولكن لا بدّ من فائدة وإلّا أنكسر ، فهات – جُعِلتُ فداءك – وأوفِ وأستوفِ فإنك واجدٌ صحةً وأستقامةً إن شاء الله . مدّ الله في عمرك ، وصبّرني عليك ، وقدّمني قَبلَك ، وجعلني من كل سوء فداءك .

(١) بشع بالأمر : ضاق به ذرعاً .

نسخة جواب إبراهيم بعد ما ذهب منه

... وأيةُ سلامةٍ أقدِر لك عليها إلّا أسوقها اليك، أعطاني الله ما أُحِبُّ من ذلك لك. فأمّا أن أتكلّم من ورائك بشيء تستثقله متعمّداً؛ فما أنا إذاً بحُرٍّ ولا كريم، معاذَ الله من ذلك! ولئن جمعني وإيّاك وعليَّ بنَ هشام مجلسٌ لأستشهدنّه على أشياء لم أذكرها لك، ولم أكتب بها اليك، إجلالاً لقدْرِ حالِك عندي من أعتدادٍ بمثل ذلك مني، وأنت عنه غافل، والله به عليم. وأما الرشوة فأرجو أن تجيبك على ما تشتهي آتاك الله ما تحب فيما تحب وتكره وجعلك له شاكراً. وأمّا الفوائدُ التي وعدتَ ورودَها علينا فإني لواثقٌ أنك لا تُفيدني شيئاً فأنظر فيه إلّا وجدتُني فيه فَطِناً أجيد تفتيشه وأعرف كُنْهَه وأفيدك فيه وفيما أستنبطتَ منه ما لا تجد عند نفسك أكثر منه، فأما غيرك فالهباء المنثور. ويا رأس المُشْتِعين تقول إني عيَّرتُك بالصناعة ثم تحتج بحِذْقك في تحريف الأقوال واكتساب الحجج، لتُفحِم خَصمك، وتُعلي حُجّتك، فكيف أعيبك بحاجتي اليك، وما أنا داخل فيه معك! لا! ولكني قلت لك: إني لستُ كفلان وفلان ممن لو كان عنده أمرٌ ينازعك به ثَقُل عليك، إنما أنا رجل من مواليك متوسّلٌ اليك بما يسرُّك، او كصاحبٍ لك تناظره بما تحب أن تجد من تناظره فيه، فليكن ذلك بالإنصاف وطلبِ الصواب أصبتَه أو أخطأته، لا بالحَميّة والأنفة والحيلة لتَرُدَّ الحقَّ بالباطل. هذا معنى قولي؛ وقد أستشهدتُ عليك فيه أبا جعفر، وجاءني كتابُك وهو عندي يشهد لي. والكتابُ الذي هذا فيه بخطّي عنده لم يَرُدّه عليّ، فتتبّعْ ما فيه وخُذني به. فلعمري لئن كنتُ قرنتُك بمن ذكرتَ لأعيبَك بالتشبيه لك بهم ما عِبتُ غيرَ رأيي، ولا جهلتُ غيرَ نفسي. ولستُ أعتذر من هذا لأنك تشهد لي بالحقّ فيه، وإنما تريد أن تخصِمني بلا حُجّة، فيكفيني علمك بما عندي، وإلّا فأنت إذاً بي أجهلُ مني بك. وقلتَ: «تذكرني معهما» فقد ذكر الله النارَ مع الجنة، وموسى مع فرعون، وإبليس مع آدم، فلم يَهُن بذلك موسى ولا آدمُ ولا أكرم فرعونُ وإبليس، فأعفني من المغالطة لي والتحريف

لقولي، وأستمتعْ بي وأمتِعْني بالمصادقة . فإن أنت لم تفعل بقيتَ واحداً مستوحشاً ، ولم تجد غيري إن علم ما تعلم لم يَنقُصْكَ ، وإن علم أكثر منك لم يَشِنك ، وإن أفهمته كفاك ، وإن استفهمته شفاك . لا والله ما أردتُ إلا ما ذكرْتُه لك ، ولا أحسَبك ظننتَ فيَّ غير ذلك ؛ لأنك لا تجهلني فأنا عندك غير جاهل . وواحدة هي لك دوني ، ووالله ما كنت أبالي ألّا أسمع من مُخارق وعلّويه شيئاً حتى أسمع بنعيهما ولا أراهما حتى أراهما ميّتَين ، وما في هذا غيرُك والإعظامُ لك والإكرامُ . وذلك أنهما كانا لك غلامين فصيَّرتَهما نِدَّين تقول فيهما ويقولان فيك ، وإنما هما صَنيعتاكَ وخِرّيجا تأديبك وإن كانا غير طائل . فلو أعرضتَ عن انتقاصهما ورفعتَ ما رفع الله من قدرك عن الإفراط في عيبهما ، لكان ذلك أشبهَ بك وأجملَ بمحلّك وخطرك ومكانك . وكذلك الذي تَرثي له منه وصاحبُه محمد بن الحارث ، فوالله ما أُحبُّ لك في أدبك وفضلك ودينك ومحلّك أن تُشْهِر نفسك لهما بهذا ومثلِه ، وأن ينتهيَ اليهما ذلك عنك . أقول يعلم الله في ذلك لك لا لهما . وإنّ ذلك ، لو صرتَ اليه ، لأجملُ بك وأجلُّ لقدرك وإن كنت لَتَتَخَوَّلُهما به . ولو أردتَ ذلك ، وإن زَهِدتَ فيه ، لم تَضَعْ نفسك ومحلّك مع غِلمانٍ أحداثٍ يبسُطون ألسنتهم فيك بما بسطته منهم على نفسك ، ولو لم تفعل لكنتَ أعظمَ في عيونهم من بعض مواليهم الذين تولَّوا مِنّتهم . هذا رأيي لك بما هو أكبرُ لأمرك وأشبه بمحلّك . ووالله ما غشَشْتُك ولا أوطأتُك عَشواء ، فاختر لنفسك ما رأيتَ . ولا والله لا سمِعاً بهذا أبداً ولا بما قلتَه فيَّ إلّا خَزياً حتى يموتا ، ولا أردتُ — يشهد الله — بهذا غيرَك . وأمّا مَن ذكرتَ أنّي أسوّيه بأبي إسحاق رحمه الله وهو لا يساوي شِسْعَه فإنك عَنَيتَ ابنَ جامع . وأنت لا تدخل بيني وبين أبي اسحاق رضي الله عنه ، ولا أظنك والله أشدَّ حبّاً له منّي ، ولا كان لك أشدَّ حبّاً منه لي ، فقد تعلم كيف كان لي ، ولكن لا أظلم ابنَ جامع كما تظلمه أنت يا أظلم البشر . ولئن ضمِنتَ أن تُنصِفَني لأُكلمنّك فيه بما لا تدفعه ، ولكنّي لا أكلّمك في شيء حتى أثِق بهذه منك ، وإلّا وَسِعني من السكوت ما وسعك .

ومن العجب الذي لم أرَ مثله والمكابرة التي لا يشبهها شيء، أعتداؤك عليَّ في التجزئة حيث تقول:

حَيِيَا أمْ يَعمَرا قَبل شَحْطٍ من النَّوى

يا أخي وحبيبَ نفسي فأنظرْ كم في هذا من العيوب!! قولُك: «ييا» ليكون مثل «شَحطٍ» في الوزن، أيكون مثل هذا في الكلام! وقولك في الجزء الثاني «حَيَّ» حتى يكون مثل «قبل»، هل يكون مثل هذا! او ليس في «ييا» المشدّدة أربع ياءات، وفي «حَيَّ» التي عطفتَ بها ثلاثٌ فتصير سبع ياءات، وإنما هي ثلاث في الأصل: الياء المشدّدة وياء الاثنين حيث تقول «حييا»!. والناس في هذا بيني وبينك بهائم، فمَن أستعدي عليك! ولو أنصفتَ لعلمتَ أنه لا يمكن في:

حَيِيَا أمَّ يَعمَرا

غيرُ ما جزأتُ أنا إلّا بهذا الغلط الذي يحول من تحريك ساكنٍ تجعله أوّلَ الكلام فقد زدتَ قبله حرفاً، أو تسكينِ متحركٍ فتزيد بعده حرفاً؛ كقولك «أم يعمرا قابل شحطن» حيث جعلت قبل الباء ألفاً، وكقولك «أم يعمرن قَبلَا» فزدتَ الألف لتسكتَ عليها لأن السكوت على متحرّك لا يمكن. فأيَّةُ حُجَّةٍ هذه! أو مَن يصبر لك على هذا! وإنما أردتُ أنا ما يجوز لجَنْني بتجزئةٍ واحدةٍ، لا أريد غير ذلك منك. ما لَك يا أخي تَنفَس عليَّ الصوابَ فيما لا نَقيصةَ عليك فيه ولا عيب، ثم اتخذتَ تحدّي اليك، بما قلتُ لك أن تسال محمداً عن قولي فيك بظهر الغيب، ذنباً بطبعك على الظلم والتحريف؛ حتى كأني أعلمتُك أن أحداً تنقَّصَك فحَمِيتَ لذلك، ولم يكن غير الردّ عليه. والله ما مثلي يَمُنّ بهذا، ولكنّي كنتُ إذا تحدّثتُ مع محمد خالياً كلّمتُه بمثل ما أكلّمك به من الردِ والجدَل، فلما كان عندنا مَن يُحتَشم كان كلامي بما يجب أن أتكلّم به من الإكرام والتقديم، فقال لي: أيُّ شيء هذا الذي أرى؟ فقلت له: هذا كلام

الحشمة وذلك كلام الأنس . فأردتُ بإعلامك هذا أن تعلم أنّي لا أريد بما أنازعك فيه شيئاً يَزيغ عما تعرف منّي ، وأني أذكرك بما يُشبهك في موضعه . فلو أتقيتَ الله وأبقيتَ على الإخاء لما كنتَ تحرّف هذا بشيء ، وهو جميل أرضاه من نفسي ، فتصيّره قبيحاً تريد أن أعتذر اليك منه .

وأما أداء الخراج والإشهاد ، فهذا شيء لم أطلبه منك ، إنما أنت طلبته مني ظالماً لي . وذلك لأني لم أنازعك إلّا منازعةَ مناظرٍ يُحبّ أن يعرف حسنَ لحصه وثاقبَ نظرهِ .

وأمّا الرّياسةُ فقد جعلها الله لك على أهل هــذا العمل ، ولا رياسة لي عليهم ولا لك عليّ ؛ لأني في العلم مناظر وفي العمل متلذّذ . فلا تظلمني ولا نفسك لي .

ومن بعدُ فإني أُحبُّ أن تخبرني كيف أنت اليوم بعدُ . والله غممتني ، لا غمّك الله ولا غمّني بك . ولو شئتَ أرسلتَ الى يحيى بن خالد طبيبِ أخي عُبيد الله فإنه رفيقٌ مُباركٌ عليم ، وهو منك قريب في دار الروم ، فأخذتَ برأيه ومن علاجه . وهب الله لك العافيةَ ووهبها لي فيك برحمته .

وإنما ذكرتُ هذا الابتداء وجوابَه على طولها ، وهما قليلٌ من كثير من مكاتباتهما ، لتعرف بهما طرَفاً من مقدارهما في المنازعة والمجادلة ، وأن اسحاق كان يريد من ابراهيم التواضُعَ له والخُنوعَ برياسته ويتحامل عليــه في بعض الاوقات ، وينحو ابراهيم نحوَ ما فعله به ؛ لأن نفسه تأبى ما يريده اسحاق منه ، فيستعمل معه من المباينة مثلَ ما أستعمله ، ويكونان في طرَفين من الظلم يُبعِدُ كلٌّ واحدٍ منهما عن إنصاف صاحبه . وقد روى يوسف بن ابراهيم أخباراً فيما جرى بينهما — فوجدتُ كلامَهما مرصوفاً رَصفَ ابراهيم بن المهدي ومنظوماً نَظمَ مَنطِقه — فيها تحاملٌ على اسحاق شديدٌ ، وحكاياتٌ يَنسبُ مَن نقَلَها الى جهلٍ بصناعته كان إسحاق بعيداً من مثله ، فعلمتُ أن ابراهيم عمل ذلك وألّفه وأمر

يوسفَ بنشره في الناس ليدور في أيديهم ذِكْرٌ له يفضُل به . وذلك بعيدٌ وقوعُه، ولن تُدفَع الحقائق بالأكاذيب، ولا يُزيل الخطأُ الصوابَ، ولا الخطلُ السدادَ . وكفى مَن نضَح عن إسحاق بأن أغاني ابراهيم بن المهدي لا يكاد يُعرَف منها صوتٌ ولا يُروى منها إلّا اليسير، وأنّ كلامَه في تجنيس الطرائق أُطرِح، وعُمِل على مذهب اسحاق، وانقضى الصُّنعُ لإبراهيم بذلك مع انقضاء مدّته، كما يضمحلّ الباطلُ مع أهله . فعدَلتُ عن ذكر تلك الأخبار؛ لا لأنها لم تقعْ إليّ، ولكنها أخبار يتبين فيها التحامل والحَنَق؛ وتتضمن من السبّ لإسحاق والشتم والتجهيل ما يعلم أنه لم يكن يقضي على مثله لأحد ولو خاف القتل، فاستبردتُ ذلك واطّرحته، واعتمدتُ من أخبار إبراهيم على الصحيح، وما جرى مجرى هذا الكتاب من خبرٍ مستحسنٍ وحكايةٍ طريفةٍ دون ما يجري مجرى التحامل؛ فقد مضى في صدر الكتاب من أخبارهما وإغصاصِ اسحاق إيّاه بريقه وتجريعه أمرّ من الصبر ما ينبئ عن بطلان غيره .

* * *

وممن صنع من أولاد الخلفاء عُلَيَّةُ بنتُ المهدي، ولا أعلم أحداً منهم بعد ابراهيم أخيها كان يتقدّمها . وكان يقال: ما اجتمع في الجاهلية ولا الإسلام أخٌ وأختٌ أحسنُ غناء من ابراهيم بن المهدي وعُلَيَّة أختِه . وأخبارُها تُذكر بعد هذا تاليةً لما أذكره من غنائها . فمن صنعتها:

صوت

تضحك عمّا لو سَقتْ منه شَفاً ... من أقحوانٍ بَلّهُ قَطرُ النَّدى
أغرُّ يجلو عن غِشا العين العَشا ... حُلوٍ بعَيْنَيْ كلِّ كهلٍ وفتى
إنّ فؤادي لا تسلّيه الرُّقى ... لو كان عنها صاحياً لقد صَحا

الشعرُ لأبي النَّجم العِجليّ . والغناء لعُلَيَّةَ بنتِ المهدي رَمَلٌ بالوسطى .

أخبار أبي النجم ونسبه

أصله ونسبه :

قال أبو عمرو الشَّيباني : اسمه المُفَضَّل ، وقال ابن الأعرابيّ : اسمه الفضل ابن قُدامة بن عُبيد الله بن عبد الله بن الحارث بن عَبدة بن الحارث بن إلياس ابن عَوف بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عِجل بن لُجَيم بن صَعب بن عليّ ابن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَديلة بن أَسد ابن ربيعة بن نِزار . وهو من رُجَّاز الإسلام الفُحول المقدَّمين وفي الطبقة الأولى منهم .

أخبرني أبو خليفة الفضل بن الحُباب الجُمَحيّ إجازةً عن محمد بن سَلَّام وذكر ذلك الأصمعي أيضاً قالا قال أبو عمرو بن العَلاء :

كان أبو النَّجم أبلغَ في النَّعت من العَجَّاج .

أخبرنا محمد بن خلف وكيع قال حدثني أبو أيوب المدينيّ قال حدثني الفضل ابن العبَّاس الهاشمي عن أبي عُبيدة قال :

ما زالت الشعراء تَغلِبُ حتى قال أبو النَّجم :

الحمد لله الوَهوبِ المُجزِلِ

وقال العجَّاج :

قد جبر الدينَ الإلهُ فَجَبَرْ

وقال رُؤبة :

وقاتم الأعماق خاوي المُختَرَق[١]

فانتصفوا منهم .

ووجدتُ في أخبار أبي النّجم عن أبي عمرو الشّيباني قال :

قال له فتيانٌ من عِجل : هذا رؤبةُ بالمِرْبَد[٢] يجلس فيُسمِع شعرَه ويُنشِد الناسَ ويجتمع اليه فتيان من بني تَميم، فما يمنعك من ذلك ؟ قال : أوَ تُحِبُّون هذا ؟ قالوا نعم . قال : فأتوني بعُسٍّ[٣] من نبيذ فأتَوْه به ، فشربه ثم نهض وقال :

إذا أصطبحتُ أربعاً عرَفْتني ثم تجشمتُ الذي جشَّمتني

فلما رآه رؤبة أعظَمه وقام له عن مكانه وقال : هذا رَجّاز العرب . وسألوه أن يُنشِدهم فأنشدهم :

الحمد لله الوَهوبِ المُجزِلِ

وكان إذا أنشد أزبد ووَحش بثيابه (أي رمى بها) . وكان من أحسن الناس إنشاداً . فلما فرَغ منها قال رؤبة : هذه أمُّ الرَّجز . ثم قال : يا أبا النّجم ، قد قرّبت مرعاها إذ جعلتها بين رجل وأبنِه . يُوهم عليه رؤبة أنه حيث قال :

تبقّلَتْ[٤] من أوّل التبقُّلِ بين رِماحَيْ مالكٍ ونَهشَلِ

أنه يريد نَهشَل بن مالك بن حَنظلة بن زيد مَناةَ بن تَميم . فقال له ابو النّجم :

---

(١) المخترق : الممر .

(٢) يعني مربد البصرة وهو من أشهر محالها ، كانت به سوق الابل قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء

(٣) العس : القدح الكبير .

(٤) تبقلت : خرجت لطلب البقل .

هيهاتَ ! الكَمَرُ[١] تَشابَهُ . أي إني إنما أريد مالك بن ضُبَيعة بن قَيس بن ثعلبة ابن عُكابة بن صَعب بن عليّ بن بكر بن وائل . ونهشل قبيلة من ربيعة وهؤلاء يرعَوْن الصَّمّانَ[٢] وعَرَضَ الدَّهناء . قال أبو عمرو : وكان سببُ ذِكرِ هاتين القبيلتين (يعني بني مالك ونهشل) أنّ دماءً كانت بين بني دارمٍ وبني نَهشَل وحروباً في بلادهم ، فتحامى جميعُهم الرَّعيَ فيما بين فَلْجٍ[٣] والصَّمّان مخافةَ أن يُعرَّوا[٤] بشرٍّ حتى عفا[٥] كَلَؤه وطال ، فذكر أنّ بني عجل جاءت لِعزّها الى ذلك الموضع فرَعَتْه ولم تَخَفْ من هذين الحيَّيْنِ ، ففخر به أبو النجم . قال : ويدُلّ على ذلك قول الفرزدق .

أترتع بالأحيـاء سعدُ بن مالكٍ وقد قَتلوا مَثنى بظِنَّـةِ[٦] واحد
فلم يَبْقَ بين الحيّ سعدِ بن مالكٍ ولا نَهشَـلٍ إلا دماء الأساود[٧]

ترتيب الرجاز في رأي بعض الرواة :

وقال الأصمعي : قيل لبعض رُواة العرب : مَن أرجَزُ الناس ؟ قال : بنو عِجل ثم بنو سعد ثم بنو عجل ثم بنو سعد . (يريد الأغلبَ ثم العجّاج ثم أبا النّجم ثم رؤبة) .

أخبرني أبو خليفة عن محمد بن سَلّام قال قال عامر بن عبد الملك المِسمَعيّ :

كان رؤبةُ وأبو النّجم يجتمعان عندي فأطلب لهما النبيذ ، فكان أبو النّجمَ يتسرّع الى رؤبة حتى أكفّه عنه .

---

(١) الكمر : جمع كمرة ، وهي رأس الذكر .

(٢) الصمان : أرض فيها غلظ وارتفاع ، والصمان متاخم للدهناء . والعرض : الوادي .

(٣) فلج . علم على عدة مواضع .

(٤) يعروا : يصابوا .

(٥) عفا : كثر .

(٦) الظنة : التهمة .

(٧) الأساود : شخوص القتلى ، وهو جمع الجمع للسواد .

ناجز العجّاج حتى هرب منه :

ونسختُ من كتاب أبي عمرو الشَّيباني قال حدَّثني بعض البَصْريّين منهم أبو بَرْزَة المَرثدي – قال وكان عالماً راويةً – قال :

خرج العجّاج متحفِلًا[١] عليه جُبَّةُ خَزٍّ وعمامةُ خَزٍّ على ناقةٍ له قد أجاد رَحلَها حتى وقف بالمِربَد والناسُ مجتمعون ، فأنشدهم قولَه :

قد جبر الدِّينَ الإِلهُ فجَبَرْ

فذكر فيها ربيعةَ وهجاهم . فجاء رجل من بكر بن وائل الى أبي النَّجم وهو في بيته فقال له : أنت جالسٌ وهذا العجّاج يهجونا بالمِربَد قد اجتمع عليه الناس !! قال : صِف لي حالَه وزِيَّه الذي هو فيه ، فوصف له . فقال : ابْغِني جَمَلاً طحّاناً قد أُكثِر عليه من الهِناء[٢] ، فجاء بالجمل اليه ، فأخذ سراويلَ له فجعل إحدى رجليه فيها واتَّزَرَ بالأخرى وركِب الجمل ودفع خِطامَه الى مَن يقوده ، فانطلق حتى المِربَد . فلما دنا من العجّاج قال : اخلَعْ خِطامَه فخلَعه ، وأنشد :

تذكّر القلبُ وجَهلاً ما ذكَرْ

فجعل الجملُ يدنو من الناقة يتشمَّمها ويتباعد عنه العجّاج لئلا يُفسِد ثيابَه ورَحْلَه بالقَطِران ، حتى إذا بلغ الى قوله :

شيطانُه أُنثى وشيطاني ذكَرْ

تعلّق الناسُ هذا البيتَ وهرب العجّاجُ عنه .

---

(١) متحفلاً : متزيناً .

(٢) الهناء : القطران .

غلب الشعراء عند عبد الملك بن مروان وظفر منه بجارية :

ونسختُ من كتاب أبي عمرو قال حدثني أبو الأزهر ابن بنت أبي النَّجم عن أبي النجم أنّه كان عند عبد الملك بن مروان – ويقال عند سليمان بن عبد الملك – يوماً وعنده جماعة من الشعراء، وكان أبو النجم فيهم والفرزدقُ، وجاريةٌ واقفةٌ على رأس سليمانَ او عبدِ الملك تَذُبّ عنه، فقال: من صبَّحني بقصيدة يفتخر فيها وصدَق في فخره فله هـذه الجاريةُ . فقاموا على ذلك ثم قالوا: إن أبا النجم يَغلِبنا بقِطَعاته (يعنون بالرَّجز)، قال: فإني لا أقول إلا قصيدةً . فقال من ليلته قصيدَته التي فخر فيها وهي :

عَلِق الهوى بحبائل الشَّعْثاء

ثم أصبح ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده، حتى إذا بلغ الى قوله :

مِنّا الذي ربَعَ[1] الجيوشَ لظهره عشرون وهو يُعَـدّ في الأحياء

فقال له عبد الملك : قِفْ، إن كنتَ صدَقتَ في هذا البيت فلا نُريد ما وراءه . فقال الفرزدق : وأنا أعرف منه ستة عشر، ومن ولَد وَلَدِه أربعة كلُّهم قد ربَع . فقال عبد الملك او سليمان : ولَد ولَدِه هم ولَدُه، ادفع اليه الجارية يا غلام . قال : فغلَبهم يومئذٍ .

قال : وبلغني من وجه آخر أنه قال له : فإذا أقررتَ له بستة عشر فقد وهبتُ له أربعة، ودفع اليه الجارية، فقدِم بها الباديةَ ؛ فكان بينه وبين أهله شرٌّ من أجلها .

(١) ربع الجيوش : أخذ ربع أموالهم .

وصف جارية لخالد بن عبد الله القسري لساعته فوهبها له :

وقال أبو عمرو :

بعث الجُنَيدُ بن عبد الرحمن المُرّيّ الى خالد بن عبد الله القَسْريّ بسَبْيٍ من الهند بِيضٍ ، فجعل يَهَبُ لأهل البيت كما هو للرجل من قريش ومن وجوه الناس، حتى بَقِيَتْ جاريةٌ منهنّ جميلةٌ كان يدّخرها وعليها ثيابٌ أرضُها فُوطتان . فقال لأبي النجم : هل عندك فيها شيءٌ حاضر وتأخذها الساعة؟ قال : نعم أصلحك الله! فقال العُريان بن الهيثم النَّخَعيّ : كذب والله ما يقدر على ذلك . فقال أبو النجم :

عَلِقتُ خَوْداً من بناتِ الزُّطِّ[1] ذاتَ جَهازٍ[2] مُضغَطٍ مُلَطِّ[3]
رابي المَجَسّ جَيِّدِ المحطِّ كأنّما قُطّ على مِقَطِّ
إذا بدا منها الذي تُغَطِّي كأنّ تحت ثوبها المُنعَطِّ[4]
شَطّاً[5] رميتَ فوقه بشَطِّ لم يَنزُ في البطن ولم يَنحَطِّ
فيه شِفاءٌ من أذى التَّمَطِّي كهامةِ الشيخ اليماني الثَّطِّ[6]

وأومأ بيده الى هامة العُريان بن الهيثم . فضحك خالد وقال للعُريان : كيف ترى ! أحتاجَ الى أن يُرَوِّي[7] فيها يا عُريان ؟! قال : لا والله! ولكنه ملعون ابن ملعون :

---

(١) الزط : جيل أسود من السند .

(٢) الجهاز هنا : فرج المرأة .

(٣) ملط : مستور ، من ألط الشيء اذا ستره .

(٤) انعط الثوب : انشق .

(٥) الشط : جانب السنام .

(٦) الثط : الخفيف اللحية .

(٧) يروّي : يتروّى ويفكر .

وقال أبو عمرو في هذه الرواية وأخبرني به عليّ بن سليمان الأخفش قال حدثنا محمد بن يزيد المبرّد قال حدثني محمد بن المغيرة بن محمد عن الزُّبير بن بَكَّار عن فُلَيح بن إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير قال :

غضب عليه هشام ثم سمر معه ليلة فرضي عنه :

ورد أبو النَّجم على هشام بن عبد الملك في الشعراء . فقال لهم هشام : صِفوا لي إبلًا فقَطِّروها[1] وأورِدوها وأصدروها حتى كأني أنظر اليها . فأنشدوه وأنشده أبو النَّجم :

الحمدُ لله الوَهوبِ المُجزِلِ

حتى بلغ الى ذكر الشمس فقال « وهي على الأفق كعين . . . » وأراد أن يقول « الأحولِ » ثم ذكر حَولة هشام فلم يُتمّ البيتَ وأرتج عليه . فقال هشام : أَجِز البيت . فقال « كعين الأحول » وأتم القصيدة . فأمر هشام فوُجِئ عُنُقه وأُخرج من الرُّصافة ، وقال لصاحب شُرطته : يا ربيع إيَّاك وأن أرى هذا ! . فكلم وجوهُ الناس صاحبَ الشُّرطة أن يُقِرّه ففعل ، فكان يُصيب من فُضول أطعمة الناس ويأوي الى المساجد . وقال الزُّبير في خبره قال أبو النجم : ولم يكن أحدٌ بالرُّصافة يُضيف إلا سُليم بنَ كَيسان الكلبيّ وعمرو بن بِسطام التَّغلبي ، فكنتُ آتي سُليماً فأتغدّى عنده ، وآتي عمراً فأتعشّى عنده ، وآتي المسجد فأبيتُ فيه . قال : فأهتمّ هشام ليلةَ وأمسى لَقِسَ النفس وأراد محدِّثاً يحدِّثه ، فقال لخادمٍ له : ابغِني مُحدِّثاً أعرابياً أهوجَ شاعراً يَروي الشعر . فخرج الخادم الى المسجد فإذا هو بأبي النجم ، فضربه برجله وقال له : قُمْ أَجِب أميرَ المؤمنين . قال : إني رجل أعرابي غريب . قال : إيّاك أبغي ، فهل تَروي الشعر ؟ قال : نعم وأقوله . فأقبل به حتى أدخله القصر وأغلَق البابَ ، قال : فأيقن بالشرّ ، ثم مضى به فأدخله على

(١) قطر الابل : قرب بعضها من بعض على نسق .

هشام في بيت صغير، بينه وبين نسائه سِترٌ رقيقٌ والشمعُ بين يديه تَزْهَر (١). فلما دخل قال له هشام: أبو النجم؟! قال: نعم يا أمير المؤمنين طريدُك. قال: اجلس. فسأله وقال له: أين كنتَ تأوي ومن كان يُنزلك؟ فأخبره الخبرَ. قال: وكيف اجتمعا لك؟ قال: كنتُ أتغدّى عند هذا وأتعشى عند هذا. قال: وأين كنت تبيت؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك. قال: وما لكَ من الولد والمال؟ قال: أمّا المالُ فلا مالَ لي، وأمّا الولد فلي ثلاثُ بناتٍ وبُنَيٌّ يقال له شَيبان. فقال: هل زوّجتَ من بناتك أحداً؟ قال: نعم زوّجتُ اثنتين، وبقيَتْ واحدة تَجْمِزُ (٢) في أبياتنا كأنها نعامة. قال: وما وصّيتَ به الأولى؟ — وكانت تسمّى «بَرّة» بالراء — فقال:

أوْصيتُ من بَرّةَ قلباً حُرّا ... بالكلب خيراً والحماةِ شرّا
لا تَسأمي ضَرباً لها وجَرّا ... حتى ترى حُلوَ الحياة مُرّا
وإن كستْكِ ذهباً ودُرّا ... والحيَّ عُمّيهم بشرٍّ طُرّا

فضحك هشام وقال: فما قلتَ للأخرى؟ قال قلت:

سُبّي الحماةَ وابْهَتي (٣) عليها ... وإن دنتْ فازدلِفي إليها
وأوجعي بالفِهْر (٤) ركبتَيْها ... ومِرفقَيْها واضربي جَنبَيْها
وظاهري النَّذرَ لها عليها ... لا تُخبري الدهرَ به ابنتَيْها

قال: فضحك هشام حتى بدتْ نواجذُه وسقط على قفاه. فقال: وَيحك! ما هذه وصيّة يعقوب ولدَه! فقال: وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين. قال: فما قلتَ للثالثة؟ قال قلت:

(١) زهر السراج: تلألأ.

(٢) جمز: عدا وأسرع.

(٣) بهته: قذفه بالباطل.

(٤) الفهر: الحجر يملأ الكف.

أوصيكِ يا بنتي فإني ذاهبُ　　أوصيكِ أن تَحمَدكِ القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريم السَّاغِبُ　　لا يُرجَع المسكينُ وهو خائب
ولا تَني أظفارُك السلاهِبُ[1]　　منهنّ في وجه الحماة كاتب
والزوجَ إنّ الزوج بئس الصاحبُ

قال: فكيف قلتَ لها هذا ولم تتزوّج؟ وأيّ شيء قلتَ في تأخير تزويجها؟ قال قلت فيها:

كأنّ ظَلَّامةَ أختَ شيبانْ　　يَتيمةٌ ووالداها حيَّانْ
الرأسُ قَملٌ كلُّه وصِئبانْ[2]　　وليس في الساقين إلّا خيطانْ
تلكَ التي يَفزَع منها الشيطانْ

قال: فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه، وقال للخَصِيّ: كم بقي من نفقتك؟ قال: ثلثائة دينار. قال: أَعطِه إيّاها ليجعلها في رِجل ظَلّامة مكان الخيطين.

كان أسرع الناس بديهة:

وقال الأصمعي أخبرني عمي وأخبرني ببعض هذا الحديث ابنُ بنت أبي النَّجم أنّ أبا النَّجم قال:

الحمد لله الوَهوبِ المُجزِلِ

في قَدر ما يمشي الإنسان من مسجد الأشياخ الى حاتمِ الجزّار. ومقدار ما بينهما غَلوة[3] أو نحوُها. قال: وكان أسرع الناس بديهةً.

(١) السلاهب: الطويلة.
(٢) الصئبان: جمع صؤابة وهي بيضة القمل.
(٣) الغلوة: رمية سهم أبعد ما يقدر عليه.

أخبرني محمد بن خلف وكيع قال حدثنا أبو أيوب المديني قال حدثنا أبو الأسود النوجشاني قال :

مرّ أبي بالأصمعي وأنا عنده فقال له : يا أبا سعيد أيّ الرّجز أحسن وأجود ؟ قال : رَجزُ أبي النّجم .

سأله هشام بن عبد الملك عن رأيه في النساء فأجابه :

نسخت من كتاب أحمد بن الحارث الخزّاز قال حدثنا المدائني قال :

دخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك وقد أتت له سبعون سنة . فقال له هشام : ما رأيك في النساء ؟ قال : إني لأنظر اليهنّ شَزراً[1] وينظرن إليّ خزراً . فوهب له جاريةً وقال له : أغدُ عليّ فأعلمني ما كان منك . فلما أصبح غدا عليه . فقال له : ما صنعتَ ؟ فقال : ما صنعتُ شيئاً ولا قدرْتُ عليه ، وقد قلتُ في ذلك أبياتاً . ثم أنشده :

نظرتْ فأعجبها الذي في دِرعها من حُسنه ونظرتُ في سِرباليا
فرأتْ لها كفلاً يَميل بخصرها وَعْثاً[2] روادِفُه وأجثمَ[3] جاثِيا
ورأيتُ مُنتشِرَ العِجانِ[4] مُقلِّصاً رِخواً مفاصِله وجِلداً باليا
أدني له الرّكبَ[5] الحليقَ كأنما أدني اليه عقارباً وأفاعيا

---

(١) الشزر : النظر بجانب العين في اعراض . والخزر : هو ان يكون الانسان كأنه ينظر بمؤخر عينه .

(٢) الوعث : اللين .

(٣) الكناية هنا ظاهرة .

(٤) العجان : القضيب الممدود من الخصية الى الدبر .

(٥) الركب : الفرج .

إنَّ الندامـةَ والسَّدامةَ فاْعْلَمَنْ   لو قـد صَبَرْتُكَ للمواسي خاليا
ما بالُ رأسِك من ورائيَ طالعاً   أظننتَ أنَّ حِرَ الفتـاة ورائيا
فاْذهبْ فإنك ميّتٌ لا تُرتَجى   أبدَ الأَبيـدِ ولو عَمِرتَ لياليا
أنت الغَرور إذا خُبِرتَ وربمـا   كان الغَرورُ لمن رجـاه شافيا
لكنَّ أيري لا يُرَجّى نفعُـه   حتى أعود أخـا فَتاءٍ ناشيا

فضحك هشام وأمر له بجائزة أخرى .

حدث هشام بن عبد الملك عن نفسه فأضحكه :

قال أبو عمرو الشَّيباني قال ابن كُناسة :

قال هشام بن عبد الملك لأبي النَّجم : يا أبا النَّجم حدثني . قال : عنّي أو عن غيري ؟ قال : لا بل عنك . قال : إني لمّا كبِرتُ عرَض لي البَولُ ، فوضعتُ عند رجلي شيئاً أبول فيه . فقمتُ من الليل أبول ، فخرج منّي صوتٌ فتشدّدت ، ثم عدتُ فخرج منّي صوتٌ آخر ، فأويتُ الى فراشي ، فقلت : يا أمَّ الخِيار هل سمعتِ شيئاً ؟ فقالت : لا والله ولا واحدةً منهما ! فضحك . قال : وأمّ الخِيار التي يَعني بقوله :

قد أصبحت أمُّ الخِيار تدّعي   عليَّ ذنباً كلّه لم أصنعِ

وهي أرجوزة طويلة .

ذكر فتاة في شعره فتزوجت :

وقال أبو عمر الشَّيباني :

أتت مولاة لبني قَيس بن ثَعلبةَ أبا النجم فذكرتْ له أنّ بنتاً لها أدركتْ

منذ سنتين ، وهي من أجمل النساء ، وأمدّهنّ قامة ولم يخطبها أحدٌ ، فلو ذكرتها في الشعر ! فقال : أفعل ، فما اسمها ؟ قالت : نَفيسة . فقال :

نَفيسَ يا قَتَّالَةَ الأقوامِ أقصدتِ قلبي منكِ بالسّهامِ
وما يُصيبُ القلبَ إلّا رامِ لو يعلَمَ العلمَ أبو هشامِ
ساقَ اليها حاصِلَ الشآمِ وجِزْيَةَ الأهواز كلَّ عامِ
وما سقى النّيلُ من الطعامِ إذ ضاق منها مَوْضِعُ الإدغامِ
أجثَمُ جاثٍ مُستديرٌ حامِ يَعَضُّ في كَيْنٍ(١) له تُؤامِ
عَضَّ النجاريّ(٢) على اللّجامِ

فقالت : حَسبُكَ حَسبُكَ ! ووفد الى الشام ، فلما رجع سمع الزَّمْر والجَلَبة ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : نفيسة تزوّجت .

قال أبو عمرو وذكر عليّ بن المِسوَر بن عمرو عن الأصمعي قال أخبرني بعضُ الرُّواة وحدثني ابن أخت أبي النجم :

أن عبد الملك بن بِشر بن مروان قال لأبي النَّجم : صِفْ لي فُهودي هذه . فقال :

إنا نَزَلنا خيرَ مَنزِلاتِ بين الحُمَيراتِ المُباركاتِ
في لَحم وَحْشٍ وحُبارَياتِ(٣) وإن أردنا الصيدَ ذا اللّذّات
جاء مُطيعاً لمطاوِعاتِ عُلِّمن أو قد كنّ عالِماتِ

(١) الكين : لحم باطن الفرج .

(٢) لم نعثر على هذه النسبة في مظانها .

(٣) حباريات : مفردها حبارى وهو طائر يضرب به المثل في البلاهة والحمق .

فسكّن الطّرفَ بمُطرِفات تُريك آماقاً مخطّطات

ونسختُ من كتاب الخرّاز عن المدائنيّ عن عثمان بن حفص أنّ أبا النجم مدح الحجّاجَ برَجَزٍ يقول فيه :

ويل أمّ دور عِزّةٍ ومجدِ دُورِ ثَقيفٍ بسَواء نَجدِ
أهل الحصون والخيول الجُرْدِ

فأعجبَ الحجّاجَ رَجزُه وقال : ما حاجتك ؟ قال تُقطعني ذا الجبنين . فوجم لها وسكت ، ثم دعا كاتبه فقال : انظر ذا الجبنين ما هو ! فإن ذا الأعرابي سألنيه لعلّه نهر من أنهار العراق . فسألوا عنه فقيل : واد في بلاد بني عِجل أعلاه حَشَفَة[١] وأسفله سَبَخَة يخاصمه فيه بنو عمّ له . فقال : اكتبو له به . قال : فأهله به إلى اليوم .

أخطأ في اشياء أخذت عليه :

أخبرنا يحيى بن عليّ قال حدثني أبو أيّوب المدينيّ قال قال الأصمعي :

أخطأ أبو النجم في أشياء أُخذت عليه ، منها قوله :

وهي على عَذْبٍ رَوِيّ المَنهلِ دَحْلِ أبي المرقال خيرِ الأدْحُلِ
من نحت عادٍ في الزمان الأوّل

قال الأصمعي : الدّحل لا تُورده الإبلُ إنما تورَد الرّكايا[٢] . وقد عِيب بهذا وعيب بقوله في البيت الذي يليه : إنّ هذا الدّحلَ من نحت عاد . قال : والدُّحلان لا

---

(١) الحشفة : صخرة رخوة في سهل من الارض . والسبخة : أرض ذات نز وملح .

(٢) الركايا : جمع ركية وهي البئر .

تُحفَر ولا تُنحَت، إنما هي خروق وشِعاب في الأرض والجبال لا تُصيبها الشمس، فتَبقى فيها المياه؛ وهي هُوّة في الأرض يَضيق فمها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء.

قال الأصمعي: وقال يصف فرسه وقد أجراه في حَلبة:

تسبح أخراهُ ويطفو أوّلُهْ

قال الأصمعي: أخطأ في هذا؛ لأنه إذا سبح أخراه كان حِمارُ الكُسّاح أسرعَ منه. قال الأصمعي: وحدثني أبي أنه رأى فرسه هذا فقوّمه بسبعين درهماً. وإنما يُوصف الجواد بأنه تَسبح أولاه وتَلحق رجلاه. قال: وخير عَدْو الذكور أن تُشرف، وخيرُ عَدْو الإناث أن تَنبسط وتَصغى[1] كعَدْوِ الذئب.

(١) تصغى: تميل.

أخبار علية بنت المهدى ونسبها

ونتف من أحاديثها

عُلَيَّة بنت المهدي أمها أمّ ولد مُغنِّيةٌ يقال لها مَكنونة، كانت من جواري المَروانية المغنِّية.

نسختُ من كتاب محمد بن هارون بن محمد بن عبد الملك الزيّات أن ابن القدّاح[1] حدّثه قال:

كانت مكنونة جاريةُ المروانية – وليست من آل مروان بن الحكم، هي زوجة الحسين بن عبد الله بن عُبَيد الله بن عباس – مغنِّيةً، وكانت أحسن جاريةٍ بالمدينة وجهاً، وكانت رَسحاء[2]، وكان بعض من يمازحها يعبث بها فيصيح: طَسْت طَسْت[3]. وكانت حسنة الصدر والبطن، فكانت توضح بها وتقول: ولكنْ[4] هذا!. فاشتُرِيَتْ للمهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم، فغلبتْ عليه، حتى كانت الخيزُران تقول: ما ملك امرأةً أغلظَ عليَّ منها. واستتر أمرُها عن المنصور حتى مات، فولدتْ له عُلَيَّةَ بنتَ المهدي.

بعض صفاتها:

أخبرني عمي قال حدثني علي بن محمد النَّوفلي عن عمه قال:

---

(١) في ا، م: «أبا القداح».

(٢) الرسحاء: القليلة لحم العجز والفخذين.

(٣) لعل المراد تشبيهها في استواء عجزها مع ظهرها وفخذها باستواء قعر الطست.

(٤) في ب، س: «ويكنّ هذا».

كانت عُليّة بنت المهدي من أحسن الناس وأظرفهم تقول الشِعرَ الجيّد وتصوغ فيه الألحان الحسنة، وكان بها عيب، كان في جبينها فَضلُ سَعَةٍ حتى تسمج[1]، فاتخذت العصائب المكلّلة بالجوهر لتستُر بها جبينها، فأحدثتْ والله شيئاً ما رأيتُ فيما ابتدعته النساء وأحدثته أحسنَ منه.

كانت لا تشرب ولا تغني إلا ايام حيضها :

أخبرني الحسين بن يحيى ووكيع قالا حدثنا حَمّاد بن إسحاق قال سمعتُ إبراهيم بن إسماعيل الكاتب يقول :

كانت عُلَيّةُ حسنةَ الدّين، وكانت لا تغنّي ولا تشرَب النبيذ إلّا إذا كانت معتزلةَ الصلاةِ، فإذا طَهُرَتْ أقبلتْ على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تَلَذُّ بشيءٍ غير قول الشعر في الأحيان، إلّا أن يدعوَها الخليفةُ إلى شيءٍ فلا تَقدِر على خلافه. وكانت تقول : ما حرّم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حَلّل منه عِوَضاً، فبأيِ شيءٍ يحتجُّ عاصيه والمُنتَهِكُ لحُرُماته !. وكانت تقول : لا غفَر الله لي فاحشةً ارتكبتُها قطّ، ولا أقول في شعري إلّا عَبثا.

لم يجتمع في الاسلام أخ وأخت أحسن غناء منها ومن أخيها :

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني عَون بن محمد الكِندي قال سمعت عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الرّبيع يقول :

ما اجتمع في الإسلام قطّ أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عُليّة، وكانت تُقدّم عليه.

---

(١) في ا، م : «تسفّح» (بتشديد الفاء). وفي ح : «تسبح». وعبارة النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ١٩١ طبع دار الكتب المصرية) : «وكان في جبهتها سعة تشين وجهها».

كانت تحب المكاتبة بالشعر :

أخبرني محمد قال حدثنا عَون بن محمد الكِندي قال حدثنا سعيد بن إبراهيم قال :

كانت عليَة تحب أن تُراسل بالأشعار مَن تختصُّه ، فاْختصَّتْ خادماً يقال له « طَلّ » من خَدَمِ الرشيد ، فكانت تراسله بالشعر ، فلم تره أياماً ، فمشَتْ على ميزاب وحدّثته وقالت في ذلك :

قد كان ما كُلِّفتُه زمناً   يا طَلُّ من وَجدٍ بكم يكفي
حتى أتيتُكَ زائراً عَجِلاً   أمشي على حَتفٍ إلى حَتف

فحلف عليها الرشيد ألّا تكلِّم طَلًّا ولا تسمِّيَه باسمه ، فضمِنَتْ له ذلك . واستمع عليها يوماً وهي تَدرُس[1] آخرَ سورة البقرة حتى بلغتْ إلى قوله عزّ وجلّ : (فإن لم يُصِبها وابلٌ فطَلٌّ) وأرادتْ أن تقول : « فطَلٌّ » فقالت : فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين . فدخل فقبَّل رأسها وقال : قد وهبتُ لكِ طَلًّا ، ولا أمنعكِ بعد هذا من شيء تريدينه . ولها في طَلٍّ هذا عِدّةُ أشعارٍ فيها لها صنعة . منها :

صوت

يا ربِّ إني قد غَرِضتُ[2] بهجرها   فإليك أشكو ذاك يا ربّاهْ
مولاةُ سَوْءٍ تستهين بعبدها   نِعْمَ الغلامُ وبئستِ المولاه
« طَلٌّ » ولكنّي حُرِمتُ نعيمَه   ووصالَه إن لم يُغِثني الله
يا ربِّ إن كانت حياتي هكذا   ضراً عليّ فما أريد حياه

الشعر والغناء لها خفيفُ ثقيلٍ مطلق في مجرى الوسطى . وقد ذكر ابن خُرداذْبه

---

(١) كذا في أكثر النسخ ، وفي ا ، م : « تريد » وهي محرفة عن « تدبر » بالذال بمعنى تقرأ .

(٢) غرضت بهجرها أي ضجرت .

أن الشعر والغناء لنُبَيْهٍ الكوفي ، وأنه هوي جارية تُغَنّي ، فتعلّم الغناء من أجلها وقال الشعر ، ولم يزل يتوصّل اليها بذلك حتى صار مُقَدَّماً في المغنّين ، وأنّ هذا الشعر له فيها والصنعة أيضاً .

حجب عنها طل فقالت فيه شعراً :

أخبرني أحمد بن محمد أبو الحسن الأسدي قال حدثني محمد بن صالح بن شيخ ابن عُمَير عن أبيه قال :

حُجِب طَلٌّ عن عُلَيَّةَ فقالت وصَحَّفتِ اسمه في أول بيت :

أيا سَروَةَ[1] البستان طال تشوّقي ... فهل لي إلى ظِلٍّ لديكِ سبيلُ
متى يلتقي مَن ليس يُقضَى خروجه ... وليس لمن يَهوى اليه دخولُ
عسى الله أن نرتاح من كُرْبَةٍ لنا ... فيَلْقى اغتباطاً خُلَّةٌ وخليلُ

عروضه من الطويل . الشعر والغناء لعليّة خفيفُ رَمَلٍ . كذا ذكر ميمون بن هارون ، وذكر عمرو بن بانة أنه لسُلْسُل خفيف رملٍ بالوسطى . وأوّل الصوت :

متى يلتقي مَن ليس يُقضَى خروجه

وذكر حَبَشٌ أنه للهُذَلي خفيفُ رَمَلٍ بالبِنصر .

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثنا أحمد بن محمد بن إسحاق الطّالقاني قال حدثني أبو عبد الله أحمد بن الحسين الهشامي قال :

قالت عُلَيَّةُ في طَلٍّ وصحّفت اسمه في هذا الشعر وغنّتْ فيه :

صوت

سَلِّمْ على ذاكَ الغزالِ ... الأغيدِ الحسنِ الدّلالِ

---

(١) السرو ، شجر حسن الهيئة قويم الساق .

سَلِّمْ عليه وقُلْ له ... يا غُلَّ ألبابِ الرجال
خلّيتَ جسمي ضاحياً ... وسكنتَ في ظلِّ الحِجال[1]
وبلغتَ منّي غايةً ... لم أدرِ فيها ما احتيالي

الشعرُ والغناء لعُلَيَّةَ خفيفُ رَمَلٍ . وذُكِر غير هذا أن الغناء لأحمد بن المكي في هذه الطريقة .

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثني ميمون بن هارون عن محمد بن علي بن عثمان الشِّطْرَنجي :

أن عُلَيَّة كانت تقول الشعر في خادم لها يقال له « رشأ » وتَكني عنه . فمن شعرها فيه وكَنَتْ عنه بزينب :

صوت

وَجد الفؤادُ بزينبا ... وَجداً شديداً مُتعِبَا
أصبحتُ من كَلَفي بها ... أُدعَى سقيماً مُنصَبا
ولقد كَنَيْتُ عن اسمها ... عمداً لكي لا تَغضَبا
وجعلتُ زينبَ سُترَةً ... وكتمتُ أمراً مُعجِبا
قالت وقد عَزَّ الوصا ... لُ ولم أجِدْ لي مذهبا
واللهِ لا نلتَ المودّةَ ... أو تنالَ الكوكبا

هكذا ذكر ميمون بن هارون ، وروايتُه فيه عن المعروف بالشِّطْرَنجي ولم يحصّل ما رواه . وهذا الصوت شعرُه لابن رُهَيمةَ المَدَني . والغناء ليونس الكاتب ، ولحنه من الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى البنصر ، وهو من زَيانِبِ يونس المشهورات وقد ذكرته معها . والصحيح أن عليَّة غنّت فيه لحناً

(١) الحجال : جمع حجلة وهو ستر العروس في جوف البيت .

من الثقيل الأوّل بالوسطى ، حكى ذلك ابن المكي عن أبيه ، وأخبرني به ذُكاء عن القاسم بن زُرزور .

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثني الحسين بن يحيي الكاتب أبو الجماز قال حدثني عُبَيد الله بن العبّاس الرّبيعي قال :

لمّا عُلِم من عُلَيّة أنها تَكني عن رشأ بزينب قالت :

صوت

القلبُ مشتـاقٌ إلى رَيْبِ ... يا رَبِّ ما هذا من العيبِ
قد تَيّمَتْ قلبي فلم أستطع ... إلا البكا يا عـالِمَ الغيب
خبأتُ في شعريَ إسمَ الذي ... أردُته كالخَبْءِ في الجيب

قال : وغنّت فيه لحناً من طريقة خفيفِ الرّمَلِ الأوّل فصحّفَتِ اسمها في ريب .

هجت طغيان حين وشت بها الى رشأ :

قال : وكان لأم جعفر جارية يقال لهـا طُغيانُ ، فوَشَتْ بعُلَيّةَ الى رَشأ وحكَتْ عنها ما لم تقل، فقالت عُلَيّةُ :

لطُغيانَ خُفٌّ مُذْ ثلاثين حِجّةً ... جديدٌ فـلا يَبلى ولا يتخرّقُ
وكيف يِلَى خُفٌ هو الدّهرَ كلّه ... عـلى قدميها في الهواء مُعلّق
فما خَرّقَتْ خُفّاً ولم تُبلِ جَورَباً ... وأمّا سَراويلاتهـا فتُمزّق

قال : وحلَف رَشأ ألّا يشرب النبيذَ سنةً ، فقالت :

صوت

قد ثبت الخـاتمُ في خِنصري ... إذ جاءني منـكِ تَجنّيك

حَرَّمتُ شربَ الراح إذ عِفتِها   فلستُ في شيء أعاصيكِ
فلو تطوّعتِ لعوّضتِني   منه رُضابَ الرّيق من فيكِ
فيا لها عنديَ من نعمةٍ   لستُ بها ما عشتُ أجزيكِ
يا زينباً قد أرّقتْ مُقلتي   أمتعني الله بحُبّيكِ

غنّت فيه عليّةُ هَزَجاً .

أخبرني جَحظة ومحمد بن يحيى قالا حدثنا ميمون بن هارون قال حدثني الحسن ابن ابراهيم بن رَباح قال : قال لي محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي :

كنت عند المعتصم وعنده مُخارق وعلّويه ومحمد بن الحارث وعَقيد ، فتغنّى عَقيد وكنت أضرب عليه :

صوت

نام عُذّالي ولم أنَمِ   واشتفى الواشون من سَقَمي
وإذا ما قلتُ بي ألَمٌ   شكّ مَن أهواه في ألَمي

فطرِب المعتصم وقال : لمن هذا الشعر والغناء ؟ فأمسكوا . فقلت : لعليّة ، فأعرض عنّي ، فعرفت غلَطي وأنّ القوم أمسكوا عمداً ، فقُطِع[1] بي . وتبيّن حالي ، فقال . لا تُرَعْ يا محمد ؛ فإنّ نصيبك فيها مِثلُ نصيبي . الغناء لعليّة خفيفُ رمَلٍ . وقد قال قوم : إنّ هذا اللحن للعبّاس بن أشرَس الطُّنبوري مولى خُزاعة ، وإن الشعر لخالد الكاتب .

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني أحمد بن يزيد قال حدثني أبي قال :

كنّا عند المنتصر ، فغنّاه بَنانٌ لحناً من الرمل الثاني وهو خفيف الرمل :

(١) قطع بي : يريد سدّت عليّ مسالك القول .

صوت

يا رَبَّةَ المنزلِ بالبِرْكِ[١] وربَّةَ السلطانِ والمُلكِ
تَحَرَّجي بالله من قتلنا لسنا من الدَّيلَم والتُّركِ

فضحِكتُ . فقال لي : مِمَّ ضحِكتَ ؟ قلت : من شَرَفِ قائلِ هذا الشعر ، وشرف مَن عَمِلَ اللّحنَ فيه ، وشرف مُستمِعِه . قال : وما ذاك ؟ قلت : الشعرُ فيه للرشيد ، والغناء لعليّة بنتِ المهدي ، وأميرُ المؤمنين مستمعُه . فأعجبه ذلك وما زال يستمعه .

حدثني ابراهيم بن محمد بن بركشة قال سمعت شيخاً يحدّث أبي وأنا غـلام فحفظتُ عنـه ما حدّثه به ولم أعرف اسمه ، قال حدثني اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال :

عَمِلتُ في أيام الرشيد لحناً وهو :

صوت

سَقياً لأرضٍ إذا ما نمتُ نَبَّهني بعد الهدوِّ بهـا قَرْعُ النَّواقيسِ
كأنَّ سَوسَنَهـا في كلِّ شارقةٍ عـلى الميادين أذنابُ الطَّواويس

قال : فأعجبني وعَمِلتُ على أن أباكر به الرشيدَ . فلقِيَني في طريقي خادمٌ لعليّة بنت المهدي ، فقال : مولاتي تأمرك بدخول الدّهليز لتسمع من بعض جواريها غِناءً أخذَته عن أبيك وشكّتْ فيه الآن . فدخلتُ معه الى حجرة قد أفرِدت لي كأنها كانت مُعدّة ، فجلستُ ، وقُدّم لي طعامٌ وشرابٌ فنِلت حاجتي منهما ، ثم خرج إليّ

١) البرك : علم على عدّة مواضع .

خادمٌ فقال لي : تقول لك مولاتي : أنا أعلم أنك قد غدوتَ الى أمير المؤمنين بصوت قد أعددتَه له مُحدَثٍ ، فأسمِعنيه ولك جائزةٌ سنيَّة تتعجلها ، ثم ما يأمر به لك بين يديك ، ولعله لا يأمر لك بشيء، أو لا يقع الصوت منه بحيث توخّيتَ ، فيذهب سعيُك باطلًا . فاندفعتُ فغنّيتُها إياه ، ولم تزل تستعيده مراراً ، ثم أخرجت إليّ عشرين ألف درهم وعشرين ثوباً ، وقالت : هذه جائزتك ، ولم تزل تستعيده مراراً . ثم قالت : اسمعه منّي الآن ؛ فغنّته غِناء ما خرَق سمعي مِثلُه . ثم قالت : كيف تراه ؟ قلت : أرى والله ما لم أرَ مِثلَه . قالت : يا فلانة أعيدي له مِثلَ ما أخذ ؛ فأحضرتْ لي عشرين ألفاً أخرى وعشرين ثوباً . فقالت : هذا ثمنُه ، وأنا الآن داخلةٌ الى أمير المؤمنين ، أبداً أتغنّى به ، وأُخبِرُ أنه من صنعتي . وأعطي الله عهداً لئن نطقتَ أنّ لك فيه صنعةً لأقتلنَّك ! هذا إن نجوتَ منه إن علم بمصيرك إليّ . فخرجتُ من عندها ووالله إني لكالموقن بما أكره من جائزتها أسفاً على الصوت ، فما جسَرتُ والله بعد ذلك أن أتنغّم به في نفسي فضلًا عن أن أظهره حتى ماتت . فدخلتُ على المأمون في أول مجلسٍ جلسه للّهو بعدَها ، فبدأتُ به أول ما غنّيت. فتغيّر لونُ المأمون وقال : من أين لك ويلك هذا ؟ ! قلت : ولِيَ الأمانُ على الصدق ؟ قال : ذلك لك . فحدّثتُه الحديثَ . فقال : يا بغيض ! فما كان في هذا من النفاسة حتى شهرتَه وذكرتَ هذا منه مع ما قد أخذتَه من العوَض ! وهجّنني فيه هُجنةً وَددتُ معها أني لم أذكره . فآليتُ ألّا أغنّيه بعدها أبداً . الشعرُ في هذا الصوت لإسماعيل بن يَسار النِّسائي ، وقيل : إنه لإسحاق . ولحنُه من الثقيل الأوّل مُطلَق في مجرى الوسطى . وذكر حبش أنه للهُذَلي ، ولم يحصّل ما قاله .

أخبرني عمي قال حدثني الحسن بن عُليل العَنَزيّ قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال قال لي يَنشو المغنّي حدثني أبو أحمد بن الرشيد قال :

كنت يوماً عند المأمون والى جانبي منصور وإبراهيمُ عمّاي ، فجاء ياسر دخلة فسارّ المأمونَ . فقال المأمون لإبراهيم : إن شئت يا ابراهيم فانهض ، فنهض . فنظرتُ الى ستر قد رُفع مما يلي دار الحُرَم ، فما كان بأسرع من أن سمعت

شيئاً أقلقني . فنظر إليَّ المأمون وأنا أميـل فقال لي : يا أبا محمد مالك تميل ؟ فقلت : إنّي سمعت شيئاً ما سمعتُ بمثله . فقال : هذه عمّتك عُليّة تطـارح عمّك ابراهيم :

ما لي أرى الأبصارَ بي جافيهْ

نسبة هذا الصوت

صوت

ما لي أرى الأبصارَ بي جافيهْ　　لم تلتفت منّي الى ناحيـهْ
لا ينظر الناس الى المُبتَـلى　　وإنّما الناس مع العافيـهْ
صَحبي سَلُوا ربَّكم العافيه　　فقد دهتني بعدَكم داهيـهْ
صارمَني بعدَكم سيّدي　　فالعينُ من هِجرانه باكيـهْ

الشعر لأبي العتاهية ، وذكر ابن المعتزّ أنه لعليّة وأنّ اللحن لهـا خفيف رمل . وذُكر أنه لغيرها خفيفُ رمل مطلق ، ولحن عُليّة مزمومٌ .

أخبرني عمي قال حدثني أبو العبّاس أن بِشراً المَرثَدي قال قالت لي رَيّق :

كنتُ يوماً بين يدي الرشيد وعنده أخوه منصور وهما يشربان ، فدخلتْ اليه خَلُوبُ (جارية لعُليّةَ) ومعها كأسان مملوءتان وتحيّتان ، ومع خادم يتبعها عودٌ ، فغنّتهما قائمة والكأسان في أيديهما والتحيتان بين أيديهما :

صوت

حيّـاكما الله خليليّاً　　إن ميّتاً كنتُ وإن حيّا
إن قلتما خيراً فخيرٌ لكم　　أو قلتما غيّاً فـلا غيّا

فشربا. ثم دفعتْ اليهما رقعةً فإذا فيها: «صنعتْ يا سيّدي أُختُكما هذا اللّحنَ اليوم، وألقتْه على الجواري، واصطبحتُ فبعثتُ لكما به، وبعثتُ من شرابي إليكما ومن تحياتي وأحذَق جواري لتغنّيَكما. هناكما الله وسرّكما وأطاب عيشكما وعيشي بكما».

أخبرني عمي قال حدثني بنحوٍ من هذا أبو عبد الله بن المرزُبان قال حدثني ابراهيم بن أبي دُلَف العِجلي قال:

كنّا مع المعتصم بالقاطول[1] وكان ابراهيم بن المهدي في حرّاقته بالجانب الغربي، وأبي واسحاق بن ابراهيم الموصلي في حرّاقتيهما بالجانب الشرقي. فدعاهما في يوم جمعة، فعبرا اليه في زلال[2] وأنا معهما وأنا صغير، عليَّ أقبيَةٌ ومِنطقةٌ. فلما دنونا من حرّاقة ابراهيم فرآنا نهض ونهضتْ بنهوضه صبيّة له يقال لها «غَضّةُ» وإذا في يديها كأسان وفي يده كأس. فلما صعِدا اليه اندفع فغنّى:

حيّاكما الله خليليَّاً إن كنتُ ميّتاً وإن حيّاً
إن قلتما خيراً فأهلاً به أو قلتما غَيّاً فلا غَيّاً

ثم ناول كلَّ واحدٍ منهما كأساً، وأخذ هو الكأسَ الثالثَ الذي في يد الجارية وقال: هَلمّ نشرب على ريقنا قَدَحاً. ثم دعا بالطعام فأكلنا، ووُضع النبيذُ فشرِبنا، وغنياه وغنّاهما وضربا معه وضرب معهما، وغنّت الصبيّةُ، فطرِب أبي وقال لها: أحسنتِ أحسنتِ! فقال له ابراهيم: إن كانت أحسنَتْ فخُذْها، فما أخرجتُها إلّا لك.

أخبرني علي بن صالح بن الهيثم وإسماعيل بن يونس قالا حدثنا أبو هِفّان قال:

---

(١) القاطول: اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة.

(٢) زلال: زورق.

أهديتْ الى الرشيد جاريةٌ في غاية الجمال والكمال ، فخلا معها يوماً وأخرج كلَّ قينة في داره واصطبح ، فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخدمة في الشراب زُهاء ألفيْ جاريةٍ في أحسن زيٍّ من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر . واتّصل الخبر بأمِّ جعفر فغلُظ عليها ذلك ، فأرسلت الى عليّة تشكو اليها . فأرسلت اليها عليَّةُ : لا يَهولنَّكِ هذا ، فوالله لأردّنه اليكِ ، قد عزمتُ أن أصنع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريّ ، فلا تبقى عندك جاريةٌ إلّا بعثتِ بها إليّ وألبسيهنّ ألوانَ الثياب ليأخذنَ الصوتَ مع جواريّ ، ففعلتْ أمُّ جعفر ما أمرتها به عليّة . فلما جاء وقت صلاة العصر لم يَشعُرِ الرشيد إلّا وعليّة قد خرجت عليه من حُجرتها ، وأم جعفر من حجرتها معها زُهاء ألفي جاريةٍ من جواريها وسائر جواري القصر ، عليهنّ غرائب اللباس ، وكلهنّ في لحنٍ واحد هَزَجٍ صَنعَتْه عُليَّة :

صوت

منفصلٌ عنّي وما قلبيَ عنه منفصِلْ
يا قاطعي اليومَ لِمَنْ نويتَ بعدي أن تَصِلْ

فطرِب الرشيد وقام على رِجليه حتى استقبل أمَّ جعفر وعُليَّة وهو على غاية السرور ، وقال : لم أرَ كاليوم قطّ . يا مسرور لا تُبقِينّ في بيت المال دِرهماً إلا نثرته . فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستةَ آلاف ألف درهم ، وما سُمِع بمثل ذلك اليومِ قطّ .

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد المبرّد قال :

كانت عُليَّةُ تقول : من لم يُطربه الرمل لم يُطربه شيء . وكانت تقول : من أصبح وعنده طَباهِجةٌ[١] باردةٌ ولم يصطبح فعليه لعنةُ الله .

---

(١) الطباهجة : ضرب من اللحم المقلي .

حدثني عمي قال حدثني هِبةُ الله بن ابراهيم بن المهدي قال حدثني يوسف بن ابراهيم قال قالت لي عَريبُ :

أحسنُ يومٍ رأيتُه وأطيبُه يومٌ أجتمعتُ فيه مع ابراهيم بن المهدي عند أخته عُلَيّة وعندهم أخوهم يعقوب ، وكان أحذَق الناس بالزَّمر . فبدأت عُلَيّة نغنَّتهم من صنعتها وأخوها يعقوب يزُمر عليها :

صوت

تَحَبَّبْ فإن الحبَّ داعيةُ الحُبِ   وكم من بعيد الدّار مستوجبُ القربِ

وغنّى ابراهيم في صنعته وزَمر عليه يعقوب :

صوت

يا واحدَ الحبِّ ما لي منك إذ كَلِفتْ   نفسي بحبِّـك إلا الهمُّ والَحزَنُ
لم يُنسِنِيـك سرورٌ لا ولا حزنٌ   وكيف لا! كيف يُنسَى وجهُك لَحسَنُ
ولا خلا منك قلبي لا ولا جَسدي   كُلِّي بكلِّك مشغولٌ ومُرتَهَنُ
نورٌ تولّد من شمس ومن قمرٍ   حتى تكامل منـه الرُّوح والبَدَنُ

فما سمعتُ مِثلَ ما سمعتُه منها قطّ ، وأعلم أنّي لا أسمع مِثلَه أبداً .

قال ميمون بن هارون قلت لعَريبَ :

رأيتُ في النوم كأني سألت عليّة بنتَ المهدي عن أغانيها فقالت لي : هي نَيِّفٌ وخمسون صوتاً . فقالت لي عَريب : هي كذلك . وقد أخبرني بنحو هذا الخبر عبد الله بن الرَّبيع الرَّبيعي قال حدثني وسواسة وهو أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم قال حدثتني خِشف الواضحيّة أنها تمارت هي وعَريب في غِناء عليّة بحضرة المتوكِّل او غيره من الخلفـاء ، فقالت هي : هي ثلاثةٌ وسبعون صوتاً . فقالت

عَريب : هي اثنان وسبعون صوتاً ، فقال المتوكِّل : غنّيا غِناءها ، فلم تزالا تغنّيان غِناءها حتى مضى اثنان وسبعون صوتاً ، ولم تذكر خِشْف الثالثَ والسبعينَ فقُطِع بها واستولت عَريب عليها وانكسرت . قالت : فلمّا كان الليل رأيت عليَّة فيما يرى النائم فقالت : يا خِشْفُ خالفتْكِ عَريبُ في غِنائي ! قلت : نعم يا سيّدتي . قالت : الصواب معكِ ، أفتدرين ما الصوتُ الذي أُنسِيتِه ؟ قلت : لا والله ! ولَوَدِدتُ أني فَدَيت ما جرى بكل ما أملك . قالت هو :

صوت

بُني الحبُّ على الجورِ فَلَوْ   أنصف المعشوقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُستَحْسَنُ في حكم الهوى   عاشقٌ يُحسن تأليفَ الحُجَج
لا تَعيبنّ من محبٍّ ذِلّةً   ذِلّةُ العاشق مِفتاحُ الفرج
وقليلُ الحب صِرْفاً خالصاً   لك خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِج

وكأنّها قد اندفعت تغنّيني به ، فما سمعتُ أحسنَ مما غنّته ، ولقد زادت لي فيه أشياء في نومي لم أكن أعرفها . فانتبهتُ وأنا لا أعقِل فرحاً به . فباكرتُ الخليفةَ وذكرتُ له القصّةَ . فقالت عَريب : هذا شيء صنعتِه أنتِ لِما جرى بالأمس ، وأمّا الصوت فصحيح . فحلفتُ للخليفة بما رضي به أنّ القصة كما حكَيتُ . فقال : رؤياكِ والله أعجب ، ورحم الله عليَّةَ ! فما تركتْ ظَرفَها حيّةً وميّتةً ، وأجازني جائزة سنيّة . ولعليَّةَ في هذا الصوت أعني :

بُني الحبّ على الجور فلو

لحنان : خفيفُ ثقيلٍ وهَزَج . وقيل إن الهزَج لغيرها .

ونسخت من كتاب محمد بن الحسن الكاتب حدثني أحمد بن محمد الفيرزان قال حدثني بعضُ خَدَمِ السلطان عن مسرور الكبير ، ونسختُ هذا الخبر بعينه من كتاب محمد بن طاهر يرويه عن ابن الفيرزان ، وفيهما خلاف يذكر في موضعه ، قال :

اشتاق الرشيد الى ابراهيم الموصلي يوماً ، فركِب حماراً يقرب من الأرض ، ثم أمر بعض خدم الخاصة بالسعي بين يديه ، وخرج من داره ، فلم يزل حتى دخل على ابراهيم . فلماً أحسَّ به أستقبله وقبَّل رجليه . وجلس الرشيد فنظر الى مواضع قد كان فيها قومٌ ثم مَضَوْا ، ورأى عيداناً كثيرةً ، فقال : يا ابراهيم ما هذا ؟ فجعل يدافع . فقال : وَيلك ! اصدُقني . فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، جاريتان أطرح عليهما . قال : هاتهما . فأحضر جاريتين ظريفتين ، وكانت الجاريتان لعليَّة بنتِ المهدي بعثت بهما يطرّح عليهما . فقال الرشيد لإحداهما : غنّي ، فغنّتْ – وهذا كله من رواية محمد بن طاهر – :

بُني الحبُّ على الجَوْرِ فلو أنصف المعشوقُ فيه لسَمُجْ
ليس يُستحسن في حكم الهوى عاشقٌ يُحسِن تأليفَ الحُجَج
لا تَعِيبنَّ من محبٍّ ذِلَّةً ذِلَّةُ العاشق مفتاحُ الفَرَج
وقليـل الحب صرفاً خالصاً لكَ خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِج

فأحسنتْ جداً . فقال الرشيـد : يا ابراهيم لمن الشعر ؟ ما أملحه ! ولمن اللحن ؟ ما أظرفه ! فقال : لا عِلم لي . فقال للجارية ، فقالت : لستّي . قال : ومَن سِتُّكِ ؟ قالت : عُلَيَّةُ أختُ أمير المؤمنين . قال : الشعرُ واللحنُ ؟ ! قالت نعم ! فأطرق ساعة ثم رفع رأسه الى الأخرى فقال : غنّي ؛ فغنّتْ :

صوت

تَحبَّبْ فإن الحبَّ داعيـةُ الحبِّ وكم من بعيد الدار مستوجبُ القربِ
تَبصَّرْ فإن حُدِّثتَ أنَّ أخا هوى نجا سالماً فارجُ النَّجـاةَ من الحب
إذ لم يكن في الحب سُخطٌ ولا رِضاً فأين حلاواتُ الرسائل والـكُتْب

– الغناء لعليَّة خفيفُ ثقيلٍ . وفي كتاب عَلّويه : الغناء له – فسأل ابراهيمَ عن الغناء والشعر ؛ فقال : لا عِلم لي يا أمير المؤمنين . فقال للجارية : لمن الشعر واللحن ؟

فقالت لستي . قال : ومَن سِتُّك ؟ فقالت : عُليَّة أختُ أمير المؤمنين . فوثب الرشيد وقال : يا ابراهيم احتفظ بالجاريتين . ومضى فركب حماره وأنصرف الى عليَّة . هذا كله في رواية محمد بن طاهر ، ولم يذكره محمد بن الحسن ، ولكنه قال في خبره : إن الرشيد زار الموصلي هذه الزيارة ليلاً ، وكان سببها أنه أنتبه في نصف الليل فقال : هاتوا حماري فأُتي بحمارٍ كان له أسودَ يركبه في القصر قريبٍ من الأرض ، فركبه وخرج في دُرَّاعةٍ[1] وَشيٍ متلثِماً بعمامة وشيٍ مُلتحِفاً برداء وشيٍ ، وخرج بين يديه مائة خادم أبيض سوى الفرّاشين . وكان مسرور الفَرغاني جريئاً عليه لمكانته عنده ، فلما خرج على باب القصر قال : أين يريد أمير المؤمنين في هذه الساعة ؟ قال : أردتُ منزِلَ الموصلي . قال مسرور : فمضى ونحن بين يديه حتى أنتهى الى منزل ابراهيم ، فتلقّاه وقبَّل حافرَ حماره وقال : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداءك ، أفي مثل هذه الساعة تظهر !! قال : نعم ! شوقٌ طرَقَ بي . ثم نزل فجلس في طَرَف الإيوان وأجلس ابراهيم . فقال له ابراهيم : يا سيّدي أتنشَط لشيءٍ تأكله ؟ قال : نعم ، وما هو ؟ قال : خاميزٌ[2] ظبيٍ . فأتي به كأنما كان مُعَدّاً له فأصاب منه شيئاً يسيراً ، ثم دعا بشرابٍ كان حُمِل معه . فقال له ابراهيم الموصلي : أوُغنّيك يا سيّدي أم يغنّيك إماؤك ؟ فقال : بل الجواري . فخرج جواري ابراهيم فأخذْنَ صدرَ الإيوان وجانبيه . فقال : أيضرِبْنَ كلّهن أم واحدةٌ واحدةٌ ؟ فقال : بل تَضرِب أثنتان أثنتان وتغنّي واحدةٌ فواحدةٌ . ففعلن ذلك حتى مرّ صدرُ الإيوان وأحدُ جانبيه والرشيد يسمع ولا يَنشَط لشيءٍ من غِنائهنّ ، الى أن غنّتْ صبيّةٌ من حاشية الصّفّ :

صوت

يا مُوريَ الزّند قد أعيتْ قوادُحه   أقبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمِقباسِ

(١) الدراعة : ضرب من الثياب ، أو هي جبة مشقوقة المقدم .

(٢) الخاميز : مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن .

ما أقبحَ الناسَ في عيني وأسمجَهم إذا نظرتُ فلم أبصِرْكِ في الناسِ

فطرِبَ لغنائها واستعاد الصوتَ مِراراً وشَرِبَ أرطالاً، ثم سأل الجارية عن صانعه فأمسكتْ، فاستدناها فتقاعستْ، فأمر بها فأقيمتْ اليه، فأخبرتْه بشيءٍ أسرَّته اليه. فدعا بحماره فانصرف والتفتَ الى ابراهيم فقال: ما عليك ألّا تكون خليفةً! فكادت نفسُه تخرُجُ، حتى دعا به بعدُ وأدناه. هذا نظمُ رواية محمد بن الحسن في خبره. وقال محمد بن طاهر في خبره: فقال للموصلي: احتفظْ بالجاريتين، وركب من ساعته الى عليَّة فقال: قد أحببتُ أن أشربَ عندكِ اليومَ. فتقدَّمتْ فيا تُصلِحُه، وأخذا في شأنهما. فلمّا أن كان في آخر الوقت حمل عليها بالنبيذ، ثم أخذ العودَ من حِجرِ جارية فدفعه اليها، فأكبرتْ ذلك. فقال: وتُربةِ المهدي لَتُغَنِّنَّ! قالت: وما أُغنّي؟ قال: غَنّي:

بُنيَ الحبّ على الجور فلو

فعلمتْ أنه قد وقف على القصة فغنَّته. فلمّا أتت عليه قال لها غَنّي:

تحبَّبْ فإنّ الحبّ داعيةُ الحب

فلَجْلَجَتْ ثم غنَّته. فقام وقبَّل رأسها وقال: يا سيِّدتي هذا عندكِ ولا أعلم! وتمّم يومَه معها.

حدثني جحظةُ قال حدثني أبو العُبَيس بن حمدون قال قال ابراهيم بن المهدي:

ما خجِلتُ قطّ خجلَتي من عليَّة أختي. دخلتُ عليها يوماً عائداً فقلت: كيف أنت يا أختي جُعِلتُ فِداءكِ وكيف حالُك وجسمُكِ؟ فقالت: بخير والحمد لله. ووقعتْ عيني على جارية كانت تذُبُّ عنها فتشاغلتُ بالنظر اليها فأعجبتني وطال جلوسي، ثم استحيَيتُ من عليَّة فأقبلتُ عليها فقلت: وكيف أنتِ يا أختي جُعِلتُ فِداءكِ وكيف حالُكِ وجسمُكِ؟ فرفعت رأسها الى حاضنةٍ لها

وقالت : أليس هذا قد مضى مرّة وأجبنا عنه ! فخجلتُ خَجَلًا ما خَجِلتُ مِثلَه قَطُّ ، وقمتُ وانصرفتُ .

أخبرني عبد الله بن الرَّبيع الرَّبيعي قال حدثني أحمد بن إسماعيل عن محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد قال :

شَهِدتُ أبي جعفراً وأنا صغيرٌ وهو يحدِّث يحيى بن خالد جدّي في بعض ما كان يخبره به من خَلَواته مع الرشيد ، قال : يا أبتِ ، أخذ بيدي أمير المؤمنين ثم أقبل على حُجرة يخترقها حتى انتهى الى حُجرة مُغلقة فَفُتِحتْ له ، ثم رجع مَن كان معنا من الخَدَم ، ثم صرنا الى حُجرة مغلقة ففتحها بيده ودخلنا جميعاً وأغلقها من داخلٍ بيده ، ثم صرنا الى رِواقٍ ففتحه وفي صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس ، فنقَر هارون الباب بيده نَقَراتٍ فسمِعنا حسًّا ، ثم أعاد النَّقرَ فسمِعنا صوتَ عود ، ثم أعاد النَّقرَ ثالثةً فغنَّتْ جارية مـا ظننت والله أنّ الله خلق مثلها في حُسْن الغناء وجودة الضَّرب . فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتاً : غنّي صوتي، فغنّتْ صوته ، وهو :

صوت

وُمُخَنَّثٍ شَهِد الزِّفافَ وَقبلَه ... غَنَّى الجواريَ حاسراً ومُنَقَّبا
لبِس الدَّلالَ وقام يَنقُر دُفَّهُ ... نَقراً أقرَّ به العيونَ وأطرَبا
إنّ النساء رأينــه فعشِقنَه ... فشكونَ شدّةَ ما بهنّ فأكذبا

— في هذا اللحن خفيفُ رمَلٍ نسبه يحيى المكيّ الى ابن سُريج ولم يَصِحّ له ، وفيه خفيفُ ثقيل في كتاب عليّة أنه لها ، وذكر عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزّيات أنه لرَيِّقَ . واللّحن مأخوذٌ من :

إنّ الرجالَ لهم اليكِ وسيلةٌ

وهو خفيفُ ثقيلٍ للهُـذَليّ، ويقال إنه لابن سُرَيج، وهو يأتي في موضع آخر – قال: فطربتُ والله طرباً هممتُ معه أن أنطح برأسي الحائطَ. ثم قال غنّي:

طال تكذيبي وتصديقي

فغنّت:

صوت

طال تكذيبي وتصديقي ... لم أجِدْ عهـداً لمخلوقِ
إنّ ناساً في الهوى غَدَروا ... أحدثوا نَقضَ المواثيق
لا تَراني بعدَهم أبـداً ... أشتكي عِشقاً لمعشوق

– لحنُ عليّة في هذا الصوت هَزَجٌ. والشعرُ لأبي جعفر محمد بن حُمَيد الطُّوسيّ وله فيه لحنٌ خفيفُ ثقيلٍ. ولعَريبَ فيه ثقيلٌ أوّل وخفيفُ ثقيلٍ آخر – قال: فرقَص الرشيد ورقصتُ معه، ثم قال: امْضِ بنا فإني أخاف أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمَضينا. فلما صرنا الى الدّهليز قال وهو قابض على يدي: أعرفتَ هذه المرأة؟ قال قلت: لا يا أميرَ المؤمنين. قال: فإني أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتُم ذلك، وأنا أُخبرك أنها عليّةُ بنتُ المهدي. ووالله لئن لَفَظتَ به بين يَدَي أحدٍ وبلغني لأقتلنّك. قال: فسمِعتُ جدّي يقول له: فقـد والله لفظتَ به، ووالله ليقتلنّك! فاصنعْ ما أنت صانع.

نسبة الصوت الذي أُخذ منه

ومُخَنَّثٍ شهد الزِّفافَ وقبلَه

صوت

إنّ الرجال لهم اليـكِ وسيلةٌ ... إن يأخذوكِ تكحّلي وتخضّبي

وأنا آمرؤٌ إن يأخذوني عَنوَةً أُقرَن الى سَيْرِ الرِّكاب وأُجنَب
ويكون مركبُكِ القعودَ[1] وحِدجَه وأبنُ النَّعامةِ يومَ ذلك مَركبي

الناس يَرْوُون هذه الأبيات لعنترة بن شدّاد العَبْسي ، وذكر الجاحظ أنها لخُزَز ابن لَوذان ، وهو الصحيح . وخُزَزُ شاعرٌ قديم يقال إنه قبل أمرئ القيس . وقد آختُلِف في معنى قوله « أبن النعامة » فقال أبو عُبيدة والأصمعي : النعامةُ فرسه وأبنُها ظِلُّها . يقول : أقاد في الهاجرة الى جَنبها فيكون ظِلّي كالراكب لظِلّها : وقال أبو عمرو الشَّيباني : ابن النَّعامة مُقدَّم رِجله مما يلي الأصابع . يقول : فلا يكون لي مركبٌ إلّا رِجلي . وقال خالد بن كُلثوم : ابن النعامة الخشبة التي يُصلَب عليها . يقول : أُقتَلُ وأُصلَبُ فتكون الخشبة مركبي . وآحتجَّ مَن ذكر أنه يعني ظِلَّ فرسه وأنه يكون كالراكب له بقول الشاعر :

إذ ظَلَّ يحسَب كلَّ شيءٍ فارساً ويَرى نعامةَ ظِلِّه فيَحُولُ

قال : وأبن النعامة : ظِلُّ كلّ شيء . وقد مضى هذا الصوت مفرداً مع خبره في موضع آخر .

أمرها الرشيد بالغناء فنظمت فيه شعراً وغنته به فطرب :

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا أحمد بن يزيد المهلّبي قال حدثنا حمّاد بن إسحاق قال :

زار الرَّشيدُ عليّةَ فقال لها : بالله يا أُختي غنّيني . فقالت : وحياتِك لأعملنّ فيك شعراً ولأعملنّ فيه لحناً ، فقالت من وقتها :

---

(١) القعود : من الإبل ما اتخذه الراعي للركوب وحمل الزاد والمتاع . والحدج : مركب من مراكب النساء نحو الهودج والمحفة .

صوت

تَفديك أُختُك قد حَبَوْتَ بنعمةٍ لسنا نَعُدُّ لها الزمانَ عديلا
إلّا الخلودَ ، وذاك قربُك سيّدي لا زال قربُك والبقاء طويلا
وحَمِدتُ ربّي في إجابة دعوتي فرأيتُ حمدي عند ذاك قليلا

وعَمِلتْ فيه لحناً من وقتها في طريقة خفيفِ الرَّمَلِ ، فأطربَ الرّشيد وشرِب عليه بقيّةَ يومه .

قال : وقالت للرشيد أيضاً وقد طلب أُختها ولم يطلبها .

صوت

مالي نُسِيتُ وقد نُودي بأصحابي وكنتُ والذِّكرُ عندي رائحٌ غادي
أنا التي لا أُطيق الدّهرَ فُرقَتَكم فَرِقّ لي يا أخي من طول إبعاد

قال : وغَنّتْ فيه لحناً من الثقيل الثاني ، وبعثت مَن غنّاه للرشيد ، فبعث فأحضرها .

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثني عَون بن محمد قال حدثني زُرزور الكبير غلام جعفر بن موسى الهادي :

أنّ عليّةَ حجّت في أيام الرّشيد ، فلمّا انصرفتْ أقامت بطِيزَناباذَ[1] أياماً ، فانتهى ذلك الى الرشيد فغضِب . فقالت عليّةُ :

صوت

أيُّ ذنبٍ أذنبتُه أيّ ذنبِ أيّ ذنبٍ لولا رجائي لربّي

(١) طيزناباذ : موضع بين الكوفة والقاسية ، كان من الموضع المقصودة للهو والبطالة .

بمُقامي بطِيزَناباذَ يوماً بعدَه ليلةٌ على غيرِ شُربِ
ثم باكرتُها عُقاراً شَمولا تَفتِنُ النَّاسِكَ الحليمَ وتُصبي
قَرقَفاً قهوةً تراها جَهولا ذاتَ حِلمٍ فَرَّاجةً كلَّ كَربِ

قال: وصنعتُ في البيتين الأولين لحناً من خفيف الثقيل، وفي البيتين الأخيرين لحناً من الرَّمَل. فلما جاء وسمع الشعر واللحنين رضي عنها.

اشتاقها الرشيد وهو بالرقة فطلبها فجاءته:

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني عبد الله بن المعتز قال حدثني عبد الله بن ابراهيم بن المهدي قال:

اشتاق الرّشيد الى عمّتي عليّة بالرَّقة، فكتب الى خالها يزيدَ بنِ منصور في إخراجها اليه فأخرجها. فقالت في طريقها:

صوت

إشرَبْ وغَنِّ على صوت النَّواعيرِ ما كنتُ أعرِفها لولا ابنُ منصورِ
لولا الرجاء لمن أمَّلتُ رُؤيتَه ما جُزتُ بغدادَ في خوف وتغريرِ

وعَمِلتْ فيه لحناً في طريقة الثقيل الأوّل.

كانت مع الرشيد في الري فحنت الى العراق بشعر فردها:

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني أحمد بن محمد بن اسحاق قال حدثنا الهشامي أبو عبد الله قال:

لمّا خرج الرشيد الى الرَّيّ أخذ أختَه عليّة معه. فلما صار بالمَرْج[١] عمِلتْ شعراً وصاغت فيه لحناً في طريقة الرمل وغنَّتْ به، وهو:

---

(١) المرج: يريد به مرج القلعة، بينه وبين حلوان منزل الى جهة همذان.

صوت

ومُغتَرِبٍ بالمَرْج يَبكي لِشَجْوِهِ　　وقد غاب عنه المُسعِدون على الحبِّ
إذا ما أتاه الرَّكب من نحو أرضه　　تنشَّق يَستشفي برائحة الرَّكب

فلمَّا سمِع الصَّوتَ علِم أنها قد اشتاقت الى العراق وأهلِها به فردَّها.

غنت الرشيد في يوم فطر :

ونسختُ من كتاب هارون بن محمد الزَّيات حدثني بعضُ موالي أبي عيسى بن الرشيد عن أبي عيسى : أن عليَّة غنَّتِ الرشيدَ في يوم فِطر :

صوت

طالتْ عليَّ ليالي الصَّومِ واتَّصلتْ　　حتى لقد خِلتُها زادتْ على الأبَدِ
شوقاً الى مجلس يُزهَى بصاحبه　　أعيذُه بجلال الواحد الصَّمَدِ

الغناء لعليَّة ثاني ثقيل لا يُشكّ فيه ، وذكر بعضُ الناس أنه للواثق ، وذكر آخرون أنه لعبد الله بن العبَّاس الرَّبيعي . والصحيحُ أنه لعليَّة . وفيه لعريب ثقيلٌ أوّل غنَّته المُعتَمِدَ يومَ فِطر فأمر لها بثلاثين ألف درهم .

وقال ميمون بن هارون حدثني أحمد بن يوسف أبو الجَهْم قال :

كان لعليَّة وكيل يقال له سِباعٌ ، فوقفتْ على خيانته فضربته وحبسته ، فاجتمع جيرانه اليها فعرّفوها جميلَ مذهبه وكثرةَ صِدْقه ، وكتبوا بذلك رقعة ، فوقّعتْ فيها :

ألا أيُّهذا الرَّاكبُ العيسَ بَلِّغَنْ　　سِباعاً وقُلْ إن ضمَّ دارَكمُ السَّفْرُ[1]

(١) السفر : القوم المسافرون .

أتسلبني مالي وإن جاء سائلٌ رَقَقْتَ له إن حطَّه نحوكَ الفقر
كشافيةِ المَرضى بعائدة الزّنا تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر

تركت الغناء لموت الرشيد فألح عليها الأمين فغنته :

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني ميمون بن هارون قال حدّثتني عَلَمُ السّمراء جارية عبد الله بن موسى الهادي أنها شَهدتْ عُليّة غنّت الأمين في شعر لها، وهو آخر شعر قالته فيه، وطريقته من الثقيل الثاني. وكانت لمّا مات الرّشيد جَزِعَتْ جَزَعاً شديداً وتركت النّبيذَ والغناء. فلم يزل بها الأمينُ حتى عادت فيهما على كرهٍ. والشعر :

صوت

أَطلتِ عاذِلتي لَوْمي وتَفنيدي وأنتِ جاهلةٌ شوقي وتَسهيدي
لا تَشربِ الراح بين المُسمِعاتِ وزُرْ ظَبياً غريراً نَقِيَّ الخدّ والجيد
قد رنّحته شَمولٌ فهو مُنجدِلٌ يَحكي بوجنته ماء العناقيد
قام الأمينُ فأغنى الناس كلَّهمُ فما فقيرٌ على حال بموجود

لحنُ عليّةَ في هذا الشعر ثاني ثقيل. ولعريبَ فيه هَزَجٌ، وقيل إنّ الهزجَ لإبراهيم بن المهدي.

وقال ميمون بن هارون حدثني محمد بن أبي عَون قال حدثتني عَريبُ أن عليّة قالت في لُبانةَ بنتِ أخيها عليّ بن المهدي شعراً وغنّت فيه من الثقيل الأول :

صوت

وحدّثني عن مجلس كنتِ زَيْنَه رسولٌ أمينٌ والنساء شُهودُ
فقلت له كُرّ الحديثَ الذي مَضى وذِكْرُكِ من ذاك الحديث أريد

وقد ذكر الهشاميّ أن هذا اللحنَ لإسحاق غنّاه بالرّقة. وليس ذلك بصحيح.

أَخبرني محمد بن يحيى عن عَون بن محمد عن أبي أحمد بن الرشيد، ونسخت هذا الخبر من كتاب محمد بن الحسن عن عَون بن محمد عن أبي أحمد بن الرشيد واللفظُ له قال:

دخل يوماً إسماعيل بن الهادي الى المأمون، فسمع غناء أذهله. فقال له المأمون: ما لكَ؟ قال: قد سَمِعتُ ما أذهلني، وكنتُ أُكذِّب بأن الأُرغن الرُّومي يقتُل طرباً، وقد صدّقتُ الآن بذلك. قال: أوَ لا تَدري ما هـذا؟ قال: لا والله! قال: هذه عَمَّتُك عليَّةُ تُلقي على عَمِّك إبراهيمَ صوتاً من غِنائها. الى هاهنا رواية محمد بن يحيى. وفي رواية محمد بن الحسن قال: هذه عَمَّتُك تُلقي على عَمِّك إبراهيم صوتاً أستحسنه من غِنائها. فأصغيتُ اليه فإذا هي تُلقي عليه:

صوت

ليس خَطْبُ الهوى بخطبٍ يسيرِ ليس يُنبيك عنـه مِثلُ خبيرِ
ليس أمرُ الهوى يُـدَبَّر بالرأ ي ولا بالقيـاس والتفكيرِ

اللّحنُ في هذا لعليَّةَ ثقيلٌ أوّل. وفيه لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيلٍ عن الهِشامي.

توفيت ولها خمسون سنة:

أَخبرني جَحظةُ قال حدثني هِبةُ الله بن إبراهيم بن المهدي عن أبيه:

أنّ عليَّةَ بنتَ المهدي وُلِدتْ سنة ستين ومائة، وتُوفِيَتْ سنةَ عشر ومائتين ولها خمسون سنة. وكانت عند موسى بن عيسى بن موسى بن محمـد بن علي بن عبد الله بن عبأس. وأخبرني محمد بن يحيى عن عَون بن محمد قال حدثني محمد بن علي بن عثان قال: ماتت عُليَّةُ سنةَ تسعٍ ومائتين، وصلَّى عليها المأمون. وكان

سبب وفاتها أنّ المأمون ضمّها اليه وجعل يقبّل رأسها، وكان وجهُها مُغطًى فشرِقت من ذلك وسعلت ثم حُمّت بعقب هذا أيّاماً يسيرةً وماتت.

وممن صنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن الرشيد

فمن صنعته:

صوت

قام بقلبي وقَعَدْ ظبيٌ نَفى عنّي الجَلَدْ
خلّفني مُدَلّهاً أهيمُ في كلِّ بَلَدْ
أسهرني ثم رَقَدْ ومارثى لي من كَمَدْ
ظبيٌ إذا ازددتُ له تذلّلا تاه وصَدّ
واعَطَشا الى فَمٍ يَمُجُّ خمراً من بَرَدْ

عروضه من مجزوء الرَّجز. والشعرُ والغناء لأبي عيسى بن الرّشيد، ولحنُه فيه ثقيل أول مطلق في مجرى الوسطى من روايتي عبد الله بن المعتزّ والهشامي. وذكر الهشاميّ أن له أيضاً فيه لحناً من ثقيل الرَّمل، وذكر حَبَشٌ أنّ الرَّمَلَ لحسين بن مُحرز. وفيه لأبي العُبَيس بن حمدون خفيفُ ثقيلٍ.

أخبار أبي عيسى بن الرشيد ونسبه

اسمه أحمد، وقيل بل اسمه صالح بن الرشيد. وهـذا النَّسبُ أشهر من أن يُشرَح. وأمه أمُّ ولدٍ بَرْبَريَّة. وكان من أحسن الناس وجهاً ومُجالسةً وعِشرَةً، وأمجنهم وأحدّهم نادرةً وأشدّهم عَبثاً. وكان يقول شعراً ليّناً طيّباً من مِثلِه.

كان جميل الوجه:

أخبرني الحسن بن علي الخَفَّاف قال حدثنا عبدُ الله بن أَبي سعد الورّاق قال حدثني محمـد بن عبد الله بن طاهر أنه سمع أباه يقول: سمعتُ أَبي (يعني طاهر ابن الحسين) يحدّث أنه سمع الرشيدَ يقول للمأمون: أنت تعلم أنك أحبّ الناس إليّ، ولو أستطيع أن أجعل لك وجه أبي عيسى لفعلت.

كان اذا ركب جلس له الناس لرؤية حسنه:

أخبرني محمد بن يحيي الصُّولي قال حدثني مُسَبّح بن حاتم العُكليّ قال حدثنا إبراهيم بن محمد قال:

كان يقال: انتهى جَمالُ وَلَد الخلافة الى أولاد الرشيد، ومن أولاد الرشيد الى محمد وأبي عيسى. وكان أبو عيسى إذا عزَم على الركوب جلس الناس له حتى يَرَوْه أكثر مما يجلسون للخلفاء

مدحت عريب حسنه وغناءه:

حدثني محمد قال حدثني يعقوب بن بُنان قال حدثني عـليّ بن الحسين الإسكافي قال:

كنتُ عند أبي الصَّقر إسماعيلَ بنِ بُلبُل وعنده عريبُ، فسمِعتُها تقول: انتهى جمالُ الرشيد الى محمد الأمين وأبي عيسى، ما رأى الناس مثلَهما، وكان المعتزّ في طِرازهما. قال: وسمعتُها تقول لأبي العبّاس بن حمدون: ما غناؤك من غِناء أبي عيسى بن الرشيد! وما سمِعتُ قطُّ غِناء أحسنَ من غِنائه، ولا رأيت وجهاً أحسن من وجهه.

أخبرني محمد قال حدثني الغلابيّ قال حدثنا يعقوب بن جعفر قال:

قال الرشيد لأبي عيسى ابنه وهو صبيّ: ليت جمالك لعبد الله (يعني المأمون). فقال له: على أنّ حظّه منك لي. فعجِب من جوابه على صِباه وضمّه اليه وقبّله.

سخط من رؤية هلال شهر رمضان:

وأخبرني الحسن بن علي وأحمد بن عُبَيد الله بن عَمّار قالا حدثنا عبدُ الله بن أبي سعد عن محمد بن عبد الله بن طاهر عن أبيه قال:

حدثني مَن شَهد المأمونَ ليلةً وهم يتراءَونَ هلالَ شهرِ رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مُستلقٍ على قفاه، فرأوْه وجعلوا يَدعون. فقال أبو عيسى قولاً أنكِر عليه في ذلك المعنى. كأنه كان متسخِّطاً لورود الشهر، فما صام بعده.

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثنا الحسين بن فَهم قال: قال أبو عيسى بن الرشيد:

دهانيَ شهرُ الصَّومِ لا كان من شهرِ ... وما صُمتُ شهراً بعدَه آخِرَ الدّهرِ
فلو كان يُعديني الإمامُ بقُـدرةٍ ... على الشهر لاستعدَيتُ جهدي على الشّهر

فناله بعقب قوله هذا الشعر صَرْعٌ، فكان يُصرَع في اليوم مرّاتٍ الى أن مات، ولم يبلغ شهراً آخر.

مدح ابراهيم بن المهدي غناءه :

وذكر علي بن الهشامي عن جدّه ابن حمدون قال : قلت لإبراهيم بن المهدي : مَن أحسن الناس غناء ؟ قال : أنا . قلت : ثم مَن ؟ قال : أبو عيسى بن الرشيد . قلت : ثم مَن ؟ قال : مُخارق .

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني ابن أبي سعد قال حدثنا محمد بن عبد الله ابن طاهر قال حدثنا محمد بن سعيد أخو غالب الصَّعديّ قال :

كان أبو عيسى بن الرشيد وطاهر بن الحسين يتغدّيان مع المأمون ، فأخذ أبو عيسى هِندَباءة (١) فغمَسها في الخلّ وضرب بها عين طاهر الصحيحة . فغضِب طاهرٌ وشَقّ ذلك عليه وقال : يا أمير المؤمنين إحدى عينيَّ ذاهبة ، والأخرى على يَدَيْ عَدْل ، يُفعَل هذا بي بين يدَيكَ ! ! فقال له المأمون : يا أبا الطَّيِّب إنه والله لَيعبَث بي أكثر من هذا العَبَث .

عرّض بيعقوب بن المهدي فضحك المأمون ونهاه :

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن أبي سعد قال حدثني محمد بن عبد الله ابن طاهر قال حدثني أبو عيسى بن علي بن عيسى بن ماهان قال :

بينا المأمون يخطُب يومَ الجمعة على المنبر بالرُّصافة وأخوه أبو عيسى تِلقاءَ وجهِه في المقصورة ، إذ أقبل يعقوب بن المهدي وكان أفسى الناس ، معروفاً بذلك . فلما أقبل وضع أبو عيسى كمّه على أنفه ، وفَهِم المأمونُ ما أراد فكاد أن يضحَك . فلمّا انصرف بعَث الى أبي عيسى فأحضره وقال له : والله لَهمَمْتُ أن أبطحَك فأضربك مائةَ دِرّة ! ويلَك ! أردتَ أن تفضَحني بين أيدي الناس يوم جمعة وأنا على المنبر !

---

(١) الهندباء : صنفان من النبات .

إيّاك أن تعود لمثل هذه! قال: وكان يعقوب بن المهدي لا يقدِر أن يُمسك الفُساء إذا جاءه. فاتّخذت له داية مُثلّثةً وطيّبتها وتنوّقت فيها. فلمّا وضعتها تحته فَسا، فقال: هذه ليست بطيّبة. فقالت له الداية: فديتُك! هذه قد كانت طيّبة وهي مثلثة، فلما ربّعتها فسدتْ. قال: وكان يعقوب هذا مُحمّقاً، كان يخطُر بباله الشيء فيشتهيه فيُثبِتُه في إحصاء خزائنه. فضَجّ خازنُه من ذلك، فكان يُثبتُ الشيء ثم يثبت تحتَه أنه ليس عنده، وإنما أثبته ليكون ذكرُه عنده الى أن يُملكه. فوُجد في دفتر له فيه ثَبَتُ ثيابٍ: «ثَبَتُ ما في الخزانة من الثياب المثقَّلة الإسكندرانية والهِشاميّة، لا شيء — أستغفر الله — بل عندنا منها زرحية كانت للمهدي. الفصوص الياقوت الأحمر التي من حالها كذا وكذا لا شيء — أستغفر الله — بل عندنا منها دُرجٌ كان فيه للمهدي خاتمٌ هذه صفته». فحُمِل ذلك الدفتر الى المأمون، فضحِك لمّا قرأه حتى فحص برجله وقال: ما سمعتُ بمثل هذا قطّ!

كان المأمون يحبه ويتمنى أن يلي الأمر بعده:

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا سليمان بن داود المهلّبي قال حدثني الهيثَم بن محمد بن عَبّاد عن أبيه قال:

كان المأمون أشدّ الناس حبّاً لأبي عيسى أخيه، كان يُعِدُّه للأمر بعدَه، وتذاكرنا ذلك كثيراً. وسمِعتُه يقول يوماً: إنه ليَسهُل عليّ أمرُ الموت وفَقدُ المُلك، وما يسهل شيء منهما على أحد، وذلك لمحبّتي أن يَليَ أبو عيسى الأمرَ من بعدي لشدّة حُبي إيّاه.

أخبرني محمد بن علي قال حدثني عبد الله بن المُعتزّ قال:

كان سبب موت أبي عيسى بن الرشيد أنه كان يحب صيدَ الخنازير، فوقع عن دابّتِه فلم يَسلَم دماغُه، فكان يتخبّط في اليوم مرّاتٍ الى أن مات.

عزاء محمد بن عباد المأمون فيه :

حدثني محمد قال حدثنا أبو العَيناء قال حدثنا محمد بن عَبّاد المهلّبي قال : لمّا مات أبو عيسى بن الرشيد دخلتُ الى المأمون وعِمامتي عليّ ، فخلعت عِمامتي ونبذتُها وراء ظهري – والخلفاء لا تُعزَّى في العمائم – ودنوتُ . فقال لي : يا محمد ، حال القَدَرُ دون الوَطر . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كلُّ مصيبةٍ أخطأتْك تهون ، فجعل الله الحزنَ لك لا عليك .

مات سنة تسع ومائتين :

أخبرني محمد قال حدثنا عَون بن محمد قال سَمِعت هِبَة الله بن إبراهيم يقول : مات أبو عيسى بن الرّشيد سنةَ تسعٍ ومائتين ، وصلّى عليه المأمون ونزل في قبره ، وامتنع من الطعام أياماً حتى خاف أن يَضُرَّ ذلك به :

وجد عليه المأمون وجداً شديداً :

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن عَمّار قال حدثني أبو العَيناء قال سمعت محمد بن عَبّاد يقول :

لمّا تُوفّي أبو عيسى بن الرشيد وجدَ المأمون عليه وَجداً شديداً ، وكان له مُحبّاً واليه مائلاً . فركب الى داره حتى حضر أمرَه وصلّى عليـــه ، وحضره الناس ، وكنتُ فيمن حضر ، فما رأيتُ مُصاباً حزيناً قطّ أجمل أمراً في مُصيبةٍ ولا أحرَقَ وجداً منه من رجل صامت تجري دموعه على خدّيه من غير كلح ولا أستِئثارٍ .

بكاه المأمون :

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن أبي سعد الورّاق قال حدثني محمد بن عبد الله ابن طاهر قال حدثني أبي قال قال أحمد بن أبي دُواد :

دخلتُ على المأمون في أول صحبتي إياه وقد توفّيَ أخوه أبو عيسى وكان له محبًا وهو يبكي ويَمسحُ عينيه بمنديل، فقعَدتُ الى جنب عمرو بن مَسعدَةَ وتمثّلتُ قولَ الشاعر :

نَقصٌ من الدنيا وأسبابها   نقصُ المنايا من بني هاشم

ولم يزل على تلك الحال ساعة يبكي، ثم مسح عينيه وتمثّل :

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تَغِضْ   فحسبُك مني ما تَجِنُّ الجوانح
كأنْ لم يَمُتْ حيٌّ سِواك ولم تَنُحْ   على أحدٍ إلا عليك النوائح

ثم التفت إليّ فقال : هِيهِ يا أحمد! فتمثّلتُ قولَ عبدةَ بن الطَّبيب :

عليك سلامُ الله قيسَ بنَ عاصمٍ   ورحمتُه ما شاء أن يترحَّما
تحيّةَ مَن أوليتَه منك نعمةً   إذا زار عن شحطٍ بلادَك سلّما
وما كان قيسٌ هُلكُه هُلكَ واحدٍ   ولكنّه بنيانُ قومٍ تهدّما

فبكى ساعةً ثم التفتَ الى عمرو بن مَسعَدة فقال: هِيهِ يا عمرو! قال: نعم يا أمير المؤمنين.

بَكُوا حُذَيفَةَ لم تُبكُوا مِثلَه   حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخلَقِ

فإذا عَريبُ وجوارٍ معها يَسمعنَ ما يدور بيننا، فقلن: اجعلوا لنا معكم في القول نصيباً. فقال لها المأمون: قُولي، فربَّ صوابٍ منكِ كثير. فقالت:

كذا فَليَجِلَّ الخطبُ وليَفدَحِ الأمرُ   وليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذرُ
كأنَّ بني العبأس يومَ وفاته   نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البدر

فبكى وبكينا. ثم قال لها المأمون: نوحي، فناحت وردَّ عليها الجواري. فبكى المأمون حتى قلتُ: قد خرجتْ نفسُه، وبكينا معه أحرَّ بكاء، ثم أمسكتْ.

فقال لها المأمون : اصنعي فيه لحناً وغَنّي به . فصنعتْ فيه لحناً على مذهب النَّوح وغنَّته إيّاه على العود . فوالذي لا يُحلَفُ بأَجلَّ منه لقد بَكَينا عليه غِناء أكثر مما بَكَينا عليه نَوحاً .

طلب المأمون من أبي العتاهية أن يسليه عنه :

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا الطَّيِّب بن محمد الباهليّ قال حدثني موسى بن سعيد عن أخيه عمرو قال :

لمّا مات أبو عيسى بن الرشيد وجد عليه المأمون وَجداً شديداً حتى امتنع من النوم ولم يَطعَم شيئاً . فدخل عليه أبو العتاهية ، فقال له المأمون : حدِّثني يا أبا اسحاق بحديث بعض الملوك ممن كان في مثل حالنا وفارقها . فقال : يا أمير المؤمنين ، لبس سليمان بن عبد الملك أفخرَ ثيابه ومَسَّ أطيَبَ طِيبه وركب أفرَهَ خيله وتقدّم الى جميع مَن معه أن يركب في مِثلِ زِيِّه وأكمل سلاحه ، ونظر في مرآته فأعجبتْه هيئتُه وحسنُه ، فقال : أنا الملك الشابّ ، ثم قال لجارية له : كيف تَرَينَ ؟ فقالت :

أنتَ نِعمَ المتاعُ لو كنتَ تَبقى غيرَ أن لا بقاءَ للإنسانِ
أنت خِلوٌ من العيوب ومما يكره الناسُ غيرَ أنّك فاني

فأعرض بوجهه ، فلم تدرْ عليه الجمعة إلّا وهو في قبره . قال : فبكى المأمون والناس ، فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم . قال : وهذان البيتان لموسى شهوات .

ومن غناء أبي عيسى وَجيِّد صنعته ، والشعرُ له وطريقتُه من الثقيل الثاني مطلق في مجرى البنصر . وذكر حَبَشٌ أن فيه لحسين بن مُحرز أيضاً صنعةً من خفيف الرَّمَل :

صوت

رَقَدَتْ عنك سَلْوتي والهوى ليس يَرْقُدُ
وأطار السُّهادُ نو مي فنومي مُشَرَّدُ
أنت بالُحسن منك يا حَسَنَ الوجهِ تَشهَد
وفؤادي بُحسْنِ وجهك يَشقى ويَكمَد

ومن غِنائه أيضاً وهو من صدور صنعته في شعر الأخطل – ولحنه من الثقيل الأوّل – :

صوت

إذا ما زيادٌ عَلَّني ثم عَلَّني ثلاثَ زُجاجاتٍ لهنَّ هَديرُ
خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأنني عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

ولإسحاق في هذا الشعر رَمَلٌ بالبنصر عن عمرو.

* * *

ومن عُرفت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد الله بن موسى الهادي

فمن صنعته :

صوت

تقاضاك دهرُك ما أسلَفا وكدَّر عيشك بعد الصَّفا
فلا تجزَعنّ فإنّ الزمانَ رهينٌ بتشتيت ما ألَّفا
وما زال قلبُك مأوى السرور كثيرَ الهوى ناعماً مُترَفا
ألحَّ عليك بروْعاته وأقبل يَرميك مُستهدِفا

الشعر والغناء لعبد الله بن موسى. ولحنه ماخُوريّ وهو خفيفُ الثقيل الثاني بالوسطى.

أخبرني أحمد بن جعفر جَحظة قال حدثني أبو حَشيشةَ قال:

كان عبد الله بن موسى الهادي أضرَب الناسِ بالعود وأحسنَهم غِناء. وكان له غلام أسود يقال له قَلَمٌ، فعلّمه الصوت وحذّقه. فاشترته منه أمّ جعفر بثلثمائة ألف درهم. قال أبو حَشيشة فحدّثني دلشاد غلام عبد الله بن موسى قال: كنت أنا وثقيفٌ الخادمُ الأسودُ مولى الفضل بن الربيع نُضارب مولاي عبدَ الله بنَ موسى وقد أخذ النَّبيذُ من الجماعة. فضرب عبدُ الله وثَقيفٌ صوتاً فاختلفا فيه وتشاجرا. فقال عبد الله: كذا أخذتُه من منصور زَلزَل. وقال ثقيفٌ: كذا أخذتُه منه، وطال تشاجُرُهما فيه. وكان ثقيف مُعربِداً يَذهَبُ عقلُه من أدنى شيء يشربه، وكان عبد الله أيضاً معربداً. فغضِب ثقيف ورفَع العودَ وهو لا يعقِل، فضرَب به رأسَ عبدِ الله بنِ موسى فطوّقه إيّاه. وابتدر خَدَمُ عبدِ الله؛ فقال لهم عبد الله بن موسى، لا تَمَسُّوه وأخرِجوا العودَ من عُنُقي فأخرجوه. وكان عبدُ الله بن موسى أشدَّ خَلقِ الله عَربَدةً أيضاً، فرُزِق في ذلك اليوم حلماً لم يُرَ مِثلُه، وقال لخدَمه: إن قتلتُه قتلتُ كلباً وتحدّث الناس بذلك، ولكن أخلَعوا عليه وَهَبُوا له ولا يدخلْ منزلي أبداً.

قال جَحظة قال أبو حشيشة أخبرني الحَفصي المِعزَفيّ قال:

دعاني عبد الله بن موسى يوماً ودعاني أخوه اسماعيل؛ فآثرت اسماعيل لِما كان في عبد الله من العَربدة. فلم نشعُر إلّا بعبد الله قد وافانا وقت العصر على بِرذَونٍ أشهب متقلِّداً سيفاً وهو سكران. فلما رأيناه تطايرنا في الُحجَر، فنزل عن دابّته وجلس. وجثا اسماعيل بين يديه إجلالاً له، وقال له: يا سيّدي قد سَرَرتني بتفضُّلك ومشيِك إليّ. قال: دَعني من هذا، مَن عندك؟ قال: فلان وفلان، فعدّ جماعةَ مَن كان عنده. قال له: هاتِهم. فدعا بنا فخرجنا وقد مُتنا

فَزَعاً . فأقبل عليّ من بينهم فقال لي : يا حَفصيّ ! أبعَثُ اليك ثلاثةَ أيامٍ تباعاً فتَدَعُني وتجيء الى اسماعيل ! وضرب بيده الى سيفه ، فقام اسماعيل بيني وبينه وقال : نَعمْ ! يَجيئني ويَدَعُك ؛ لأنه لا ينصرفُ من عندك إلّا بِشَجّةٍ أو عَربَدةٍ مع حِرمان ، ولا ينصرف من عندي إلّا بِبِرّ مع خِلعةٍ ووعدٍ مُحَصّل ، أفتلومُه على ذلك ! فكَفّ عبدُ الله وكان شديد العَربَدة وقام وانصرف .

أخبرني الصُّولي قال حدثني عَون بن محمد الكِنديّ قال حدثني محمد بن اسماعيل عن أبيه سليمان بن داود – وكان يكتب لأبي جعفر – قال :

كنت جالساً مع عبد الله بن موسى الهادي ، فمرّ به خادمٌ لصالح بن الرشيد ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال له : اسمي « لا تَسَلْ » . فأعجبه حُسنُه وحُسنُ مَنطِقِه فقال لي : قُمْ بنا حتى نُسرّ اليوم بذكر هذا البدر ، فقمت معه . فأنشدني في ذلك اليوم :

وشادنٍ مرّ بنا يجرَح باللحظ المُقَلْ
مظلوم خَصرٍ ظالمٍ منه إذا يمشي الكَفَل
اعتدلتْ قامتُه واللحظُ منه ما عَدَل
بَدرٌ تراه أبداً طالعَ سعدٍ ما أفل
سألتُه عن اسمه فقال لي اسمي « لا تَسَل »
وأطلعتْ في وجنتيه وَردتان من خَجَل
فقلتُ ما أخطأ مَن سمّاك بل قال المَثَل
لا تسألنْ عن شادنٍ فاق جَمالا وكَمَل

قال : وقال فيه – وقد قيل إنه من هذه الأبيات – :

عزّ الذي يَهوى وذَلْ صبٌّ الفؤادِ مُختَبَلْ
لَجّ به الهجرُ وذا الهجرُ اذا لَجّ قَتَل

مِن شادِنٍ مُنتَطِقٍ فاق جمالاً وكَمَل
تناصف الحُسنُ بـه فلا تَسَل عن «لا تَسَل»

وقال حدثني محمد بن أحمد المكي عن أبيه قال :

دعاني عبد الله بن موسى يوماً فقال لي : أتُقوِّم غلاماً ضارباً مُغنِياً قيمةَ عدلٍ لا حَيفَ فيه على البائع ولا على المُشتري ؟ فقلت نعم . فأخرج إليَّ ابنه القاسمَ وكنتُ قد عرَفتُه ، وهو أحسن من القمر ليلةَ البدر ، فأخذ عوداً فضرب ، فأكببتُ على يديه أُقبِّلها . فقال لي عبد الله : أتُقبِّلُ يدَ غلامٍ مملوك !! قلت : بأبي وأمي هو من مملوك ! وقَبَّلتُ رجله أيضاً . فقال : أمَّا إذ عرفتَه فأحِبُّ أن تضارِبَه ، ففعلت . فلما رأى الغلامُ زيادتي عليه في الضَّرب اغتمَّ وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر من ذنبه : أنا مُتلَذِّذٌ وهذا مُتكسِّبٌ . فضحِكتُ وقلت : هو ذاك يا سيِّدي . وعجبت من حِدَّة جوابه معتذراً على صِغَر سِنِّه .

كان كريماً ممدحاً :

أخبرني الصُّولي قال حدثني عبد الله بن المعتزّ قال :

كان عبـد الله بن موسى جواداً كريماً ممدَّحاً ، وفيه يقول الشاعر – وفيه لعاويه لحن من خفيف الثقيل الأول بالبِنصر – :

صوت

أعبدَ الله أنت لنا أمـيرُ وأنت من الزمان لنا مُجيرُ
حكَيتَ أباك موسى في العَطايا إمامُ الناس والملكُ الكبيرُ

غنى بشعر لعمر بن أبي ربيعة :

قال محمد بن يحيى والعتَّابي : ولعبد الله بن موسى غِناءٌ في قول عمر بن أبي ربيعة :

صوت

إن أسماء أرسلتْ وأخو الشوق مُرسَلُ
أرسلتْ تستزيرُني وتُفدّي وتعذِل

ولحنُه فيه رَملٌ . قال : وفيه لابن سُريج والغريض ومالكٍ ألحانٌ .

عربد على المأمون فحبسه ثم سمه فمات :

أخبرني علي بن سليمان الأخفش في كتاب المُغتالين قال حدثني أبو سعيد السُّكَّري عن محمد بن حَبيب قال :

كان عبد الله بن موسى الهادي مُعَربِداً، وكان قد أحفَظ المأمونَ مما يُعَربِدُ عليه إذا شرِب معه . فأمر بأن يُحبَس في منزله فلا يخرجَ منه ؛ وأقعد عن بابه حَرَساً . ثم تذمَّم من ذلك فأظهر له الرِّضا وصرَف الحرَس عن بابه ثم نادمه فعَربد عليه أيضاً وكلَّمه بكلام أحفظه . وكان عبد الله مُغرَماً بالصَّيد ، فأمر المأمون خادماً من خواصِّ خدمه يقال له « حسين » فسمَّه في دُرَّاجٍ وهو يرمي أباد ، فدعا عبدُ الله بالعَشاء ، فأتاه حسين بذلك الدُّرَّاج فأكله . فلما أحسَّ بالسمّ ركب في الليل وقال لأصحابه : هو آخر ما تروني . قال : وأكل معه من الدُّرَّاج خادمان ، فأمَّا أحدهما فمات من وقته ، وأمَّا الآخر فبقي مدة ثم مات ومات عبد الله بعد أيام .

وممن رويت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد الله بن محمد الأمين

فمن مشهور صنعته :

أَلا يا دَيرَ حَنظلةَ المُفَدَّى لقد أَورثتني سَقَماً وكَدّا
أَزُفُّ من العُقار اليك دَنّاً وأجعل تحتَه الوَرَقَ المُندَّى

الشعر والغناء لعبد الله بن محمد الأمين ، أخبرني بذلك محمد بن يحيي الصُّوليّ عن عبد الله بن المعتزّ وله فيه لحنان خفيفُ رمَلٍ وخفيفُ ثقيل . وفيه لعبد الله بن موسى الهادي رَمَلٌ . وفيه ثاني ثقيل ، وذكر حبَش – وهو ممن لا يُحصَّل قولُه – أنه لحُنَين ، ولم يَصِحَّ عندنا مَن صانِعُه .

اخبار عبد الله بن محمد ونسبه

عبدُ الله بن محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب . وأمُّ عبدِ الله بن محمد أمُّ وَلَد . وكان ظريفاً غَزِلاً يقول شعراً لَيّناً ويصنع صنعةً صالحةً . وأمُّ محمد الأمين زُبَيدةُ بنتُ جعفر بن المنصور . وزبيدة لَقَبٌ غلب عليها ، واسمها أَمَةُ العزيز . وكان المنصور يُرَقِّصُها وهي صغيرة — وكانت سمينةً حسنةَ البدن — فيقول لها : يا زُبيدة يا زُبيدة ، فغلَب عليها ذلك .

كان صديقاً لأبي نهشل فأحب جارية اشتراها أخوه :

أخبرني الصولي قال حدثني عَون بن محمد الكِندي قال :

كانت بين عبد الله بن محمد الأمين وبين أَبي نَهشَل بن حُمَيد مودّة . فاعترض عبدُ الله جاريةً مغنّيةً لبعض نساء بني هاشم وأعطى بها مالًا عظيماً . فعرفتْ منه رغبةً فيها فزادت عليه في السَّوم ، فتركها ليكسرهم . فجاء أخ لأبي نَهشَلِ بن حُمَيد فاشتراها وزاد . فتبِعتْها نفسُ عبدِ الله ، فسأل أبا نَهشَلٍ أن يسأل أخاه النزول له عنها ، فسأله ذلك فوعده ودافعه . فكتب عبد الله إلى أبي نهشل :

يابنَ حُمَيدٍ يا أبا نهشلٍ مِفتاحَ بابِ الحَدَثِ المُقفَلِ
يا أكرمَ الناس وِداداً وأر عاهم لحقٍّ ضائعٍ مُهمَلِ
أحسنتَ في ودّي وأجملتَ بل جُزتَ فِعالَ المُحسِنِ المجمل
بيتُك في ذي يَمَنٍ شامخٌ تَقصُر عنه قُنّتا يَذبُل[1]

(١) يذبل : جبل مشهور الذكر بنجد .

خلفتَ فينا حاتماً ذا الندى — وُجِدْتَ جودَ العارض المُسبِلِ
أيُّ أخٍ أنتَ لذي وحدةٍ — تركتَه بالعزّ في جحفلِ
نجومُ حظّي منك مسعودةٌ — فيا أُرَجّي لسنَ بالأُفَّلِ
فصدّقِ الظنَّ بما قلتَه — وسهّلِ الأمرَ به يَسهُلِ
لا تحرمنّي ولديك المُنى — بالله صيدَ الرشأ الأكحلِ
رُميتُ منه بسهام الهوى — وما درى بالرمي في مقتلي
أدنيتني بالوعد في صيده — إدناءَ عطشانٍ من المنهلِ
ثم تناسيتَ وأسلمتني — الى مِطالٍ موحشِ المنزلِ
تركتني في لُجّةٍ عائماً — لا أعرف المُدبِرَ من مُقبِلِ
صرّحْ بأمرٍ واضحٍ بيّنٍ — لا خيرَ في ذي لَبسٍ مُشكِلِ

قال: فلم يزل أبو نهشلٍ بأخيه حتى نزل له عنها.

خرج الى ضيعته وتكاتب هو ونديمه ابو نهشل بشعر:

وأخبرني الصوليّ أيضاً بغير إسناد، ووجدتُ هذا الخبرَ في كتابٍ لمحمد بن الحسن الكاتب يرويه عن أبي حسّان القزاريّ قال:

كان أبو نهشل بن حُميد صديقاً لعبد الله بن محمد الأمين ونديماً. وكانت لعبد الله ضيعة بالسَّواد تُعرف بالعُمَريّة، فخرج اليها وأقام بها أياماً. فكتب اليه أبو نهشل:

سقى اللهُ بالعمريّة الغيثَ منزلاً — حللتَ به يا مُؤنسي وأميري
فأنت الذي لا يُخلِق الدهرُ ذكرَه — وأنت أخي حقّاً وأنت سروري

فأجابه عبد الله:

لئن كنتُ بالعمريّة اليوم لاهياً — فإنّ هواكم حيث كنتُ ضميري
فلا تحسبنّي في هواكم مُقصِّراً — وكن شافعي من سُخطكم ومُجيري

قال محمد بن الحسن في خبره : وصنع عبد الله في هذه الأبيات الأربعة لحناً ، وصنع فيها سُليم بن سَلّام لحناً آخر .

نادم الواثق والخلفاء من بعده الى المعتمد :

أخبرني محمد بن يحيي الصولي قال حدثنا عبد الله بن المعتزّ قال :

كان عبد الله بن محمد الأمين ينادم الواثقَ ثم نادم بعده سائر الخلفاء الى المعتمد . قال : وأنشدني له في المعتمد :

رأيتُ الهلالَ على وجهكا فما زلتُ أدعو إلهي لكا
فلا زلتَ تحيا وأحيا معاً وآمنني الله من فقدِكا

قال : ومن شعره – وله فيه لحنٌ من الرَّمل الثاني وهو خفيف الرمل – :

صوت

يا مَن به كلُّ خَلقٍ تراه صَباً مُتيَّمْ
ومَن تَجالَلَ تِيهاً فما تراه يُكلِّم
لا شيء أعجبُ عندي ممن يراك فَيَسلَم

فأما دَيرُ حنظلةَ الذي ذكره في شعره وفيه الغناء المذكور من صنعته مُتقدِّماً، فإنه دَيرٌ بالجزيرة . أخبرني بخبره هاشم بن محمد أبو دُلَفَ الخُزاعي قال حدثنا الرِّياشيّ قال أنشدني أبو المُحَلِّم لحنظلة بن أبي عَفراء أحد بني حيّة الطائيّين وهم رَهطُ أبي زُبَيد[١] ورهط إيّاس[٢] بن قَبيصةَ :

---

(١) هو حرملة بن المنذر بن معد يكرب الطائي ، كان نصرانياً وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام.
(٢) كان والياً لكسرى على الحيرة بعد قتله النعمان بن المنذر .

ومهما يكن رَيبُ الزمانِ فإنني أرى قمرَ الليلِ المُغرَّبَ كالفتى
يَهِلُّ صغيراً ثم يعظُم ضَوءه وصورتُه حتى إذا ما هو استوى
تقارب يخبو ضَوءه وشُعاعُه ويَمصحُ[1] حتى يستَسِرَّ فلا يُرى
كذلك زَيدُ المرءِ ثم انتقاصُه وتكرارُه في دهره بعد ما مضى
تُصبِح أهلَ الدّارِ والدّارُ زينةٌ وتأتي الجبالَ من شَماريخها العُلا
فلا ذا غِنًى يُرجِئْنَ عن فضل ماله وإن قال أخرني وخُذْ رِشوةً أبى
ولا عن فقيرٍ يأتَخِرْنَ لفقره فتنفعَه الشكوى إليهنّ إن شكا

قال : وكان حنظلةُ هذا قد تعبّد في الجاهلية وتفكّر في أمر الآخرة وتنصّر وبنى دَيراً بالجزيرة ؛ فهو الآن يُعرَف به يقال له دَيْر حنظلة . وفيه يقول الشاعر :

يا دَيرَ حنظلةَ المهيّج لي الهوى قد تستطيع دواءَ عشقِ العاشقِ

* * *

وممن صنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن المتوكِّل

كان عبد الله بن المتوكل جمع له صنعةً مقدارُها أكثر من ثلثمائة صوت، منها الجيّد الصنعة ومنها المتوسط، قد سمعنا كثيراً منها ؛ إلّا أني أذكر من ذلك ما عرفتُ شاعرَه وكان له خبرٌ يتّصِل به حسبَ ما شرَطناه في هذا الكتاب وضمّنّاه إيّاه من الأخبار، ثم اذكر أخبارَ أبي عيسى بعد ذلك .

قال ابن المعتزّ حدثني النُّميريّ قال سمعت أبا عيسى بن المتوكِّل يقول : إذا أتممتُ صنعةَ ثلثمائة صوت وستين صوتاً عددَ أيام السنة تركتُ الصنعة ؛ فلمّا صنعها ترك الصنعةَ . فمنها — وهو لعمري من جيّد الغناء وفاخرِ الصنعة ، ولو لم يصنع غيرَه لكفاه — في شعر أبي العتاهية :

---

(١) مصح : ذهب وانقطع .

صوت

يَضطَرِبُ الخوفُ والرجاء إذا حرَّكَ موسى القضيبَ أو فَكَّرْ

ولحنُه من الثقيل الأول. والشعرُ لأبي العتاهية، وقد مضتْ أخبارُه؛ وإنما قدّمتُ ذكرَه بجودة صَنعته وأنه شُبِّه فيه بصنعة الفحول ومُحكَمِ أغاني الأوائل.

ومنها:

صوت

هي النَّفسُ ما حَمَّلتَهــا تَتَحمَّلُ وللدّهر أيّامٌ تَجورُ وتَعــدِلُ
وعاقِبةُ الصَّبرِ الجميــلِ جميلةٌ وأفضلُ أخلاقِ الرجــال التَّجَمُّل

الشعرُ لعلي بن الجهم. والغناء لأبي عيسى بن المتوكل، ثاني ثقيلٍ بالوسطى.

أخبار على بن الجهم ونسبه

هو علي بن الجهم بن بَدْر بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أُذَينة بن كَرّاز بن كعب بن مالك بن عُيَينة بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سامَة بن لؤيّ بن غالب. هكذا يدّعون، وقريش تدفعهم عن النَّسب وتسمّيهم بني ناجيةَ، يُنسَبون الى أمّهم ناجية، وهي امرأة سامةَ بن لؤيّ. وكان سامة، فيما يقال، خرج الى ناحية البَحرَين مغاضِباً لأخيه كعب بن لؤيّ في مُماظَة[1] كانت بينهما، فطأطأتْ ناقته رأسها الى الأرض لتأخذ شيئاً من العُشب، فعلِق بمِشفَرها أفعى فعطفته على قَتَبها فحكّته به، فدبّ الأفعى على القَتَب حتى نهشَ ساقَ سامَةَ فقتله. فقال أخوه يرثيه:

عينُ جُودي لسامَةَ بنِ لؤيٍّ   عَلِقتْ ساقَ سامــةَ العَلّاقه[2]
رُبَّ كأسٍ هَرَقتَها ابنَ لؤيٍّ   حَذَرَ الموتِ لم تكن مُهراقه

وقال مَن يدفع بني سامةَ من نَسّابي قريش: وكانت معه امرأته ناجية. فلمّا مات تزوّجتْ رجلاً من أهل البحرين فولَدَتْ منــه الحارثَ، ومات أبوه وهو صغير. فلمّا تَرَعرَع طمِعتْ أمّه في أن تُلحِقه بقريش، فأخبرته أنه ابن سامةَ بن لؤيّ. فرحل من البحرين الى عمّه كعب وأخبره أنه ابن أخيه سامةَ. فعرَف كعب أمّه وظنّه صادقاً في دعواه. ومكث عنده مدةً، حتى قدِم مكةَ رَكْبٌ

---

(١) المماظة: المخاصمة والمنازعة.

(٢) العلاقة: يريد بها الحية.

من أهل البحرين ، فرأوا الحارثَ فسلّموا عليه وحادثوه ساعةً . فسألهم عنه كعب ابن لؤيّ ومن أين يعرفونه، فقالوا له : هذا ابن رجلٍ من أهل بلدنا يقال له فلان، وشرحوا له خبره . فنفاه كعبٌ ونفى أمه ، فرجعا الى البحرين فكانا هناك، وتزوّج الحارثُ وأعقبَ هذا العقبَ . ورُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عَمّي سامةُ لم يُعقِبْ » . وكان بنو ناجيةَ ارتدّوا عن الإسلام . ولما وَلِيَ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه الخلافةَ دعاهم الى الإسلام ؛ فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الرِّدّة فسباهم واسترقّهم ؛ فاشتراهم مَصقلةُ بن هُبَيرة منه وأدّى ثُلثَ ثمنهم وأشهد بالباقي على نفسه ، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله الى معاوية ، فصاروا أحراراً ، ولزِمَه الثمنُ ، فشعّث عليٌّ بن أبي طالب شيئاً من داره ، وقيل بل هدّمها . فلم يدخل مَصقلةُ الكوفةَ حتى قُتل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

وزعم ابن الكلبيّ : أنّ سامةَ بن لؤيّ وَلَدَ غالبَ بن سامةَ وأُمه ناجيةُ ، ثم هلك سامةُ فخلَف عليها ابنه الحارث بن سامةَ ، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعقِبا ، وأن قوماً من بني ناجيةَ بنت جَرْم بن رَبّان عِلاف ادّعوا أنهم بنو سامةَ بن لؤيّ ، وأنّ أمهم ناجية هذه ونَسَبوها هذا النسبَ ، وانتموا الى الحارث بن سامةَ وهم الذين باعهم عليّ بن أبي طالب الى مَصقلةَ . قال : ودليل ذلك وأنّ هؤلاء بنو ناجية بنت جَرْم قولُ علقمةَ الخَصِيّ التَّميميّ أحدِ بني رَبيعة ابن مالك :

زعمتم أنّ ناجيَ بنتَ جَرْمٍ عجوزٌ بعد ما يَلِيَ السَّنامُ
فإن كانت كذاك فألبِسوها فإنّ الحَلْيَ للأنثى تَمامُ

وهذا أيضاً قولُ الهيثم بن عديّ . فأما الزُّبير بن بَكّار فإنه أدخلهم في قريش وقال : هم قريشٌ العازبةُ . وإنما سُمّوا العازبةَ لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسبوا الى أمهم ناجية بنت جَرْم بن رَبّان وهو عِلاف ، وهو أوّل من اتخذ الرِّحالَ العِلافِيَّةَ فنُسِبَت اليه . واسم ناجية ليلى ؛ وإنما سُمّيت ناجيةَ لأنها سارتْ في مَفازةٍ

معه فعطشت فاستسقته ماء، فقال لها: الماء بين يديك، وهو يريها السراب، حتى جاءت الماء فشربت وسميت ناجية. وللزبير في إدخالهم في قريش مذهب وهو مخالفة فعل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وميله اليهم لإجماعهم على بغضه رضي الله عنه، حسب المشهور المأثور من مذهب الزبير في ذلك.

كان شاعراً فصيحاً اختص بالمتوكل وهجا عليا وشيعته :

وكان علي بن الجهم شاعراً فصيحاً مطبوعاً؛ وخص بالمتوكل حتى صار من جلسائه، ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه والذكر لهم بالقبيح عنده، وإذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه ويثلبونه ويتنقصونه، فيكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه بعد أن حبسه مدة. وأخباره تذكر على شرح بعد هذا. وكان ينحو نحو مروان بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة، وهو القائل:

ورافضة تقول بشعب رضوى إمام، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفاً من الأتراك مشرعة السهام

وفيه يقول البحتري:

إذا ما حصلت علياً قريش فلا في العير أنت ولا النفير
وما رغثاؤك[1] الجهم بن بدر من الأقمار ثم ولا البدور
ولو أعطاك ربك ما تمنى لزاد الخلق في عظم الأيور
علام هجوت مجتهداً علياً بما لفقت من كذب وزور
أمالك في استك الوجعاء شغل يكفك عن أذى أهل القبور

وسمعه أبو العيناء يوماً يطعن على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له:

(١) الرغثاء: أصلها عصب أو عرق في الثدي يدر اللبن. واستعملها البحتري هنا في الأب.

أنا أدري لِمَ تطعن على علي أميرِ المؤمنين . فقال له : أتعني قصَّةَ بيعه أهلي من مَصقلةَ بن هُبَيرة ؟ قال : لا ! أنت أوضع من ذلك ، ولكن لأنه قتلَ الفاعلَ فعلَ قوم لوطٍ والمفعولَ به ، وأنت أسفلها .

أخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد الهشاميّ قال :

كان عليّ بن الجهم قد هجا بَختيَشوع[١] ، فسبَّه عند المتوكِّل فحبسه المتوكِّل . فقال عليّ بن الَجهم في حَبسه عِدّةَ قصائد كتب بها الى المتوكل فأطلقه بعد سنة ، ثم نفاه بعد ذلك الى خُراسان . فقال أوّلَ ما حُبس قصيدةً كتب بها الى أخيه أوّلها قوله :

توكَّلنا على ربِّ السماء وسلَّمنا لأسباب القضاء
ووطَّنا على غيرِ الليالي نفوساً سامحتْ بعدَ الإباء
وأفنيةُ الملوك محجَّباتٌ وبابُ الله مبذولُ الفِناء
هي الأيامُ تَكلِمُنا وتأسو وتأتي بالسعادة والشقاء
وما يُجدي الثَّراء على غنيٍّ إذا ما كان محظورَ العطاء
حَلَبْنا الدّهرَ أشطُرَهُ ومرّتْ بنا عُقَبٌ[٢] الشّدائد والرَّخاء
وجرَّبنا وجرَّب أوّلونا فلا شيءٌ أعزّ من الوفاء
ولم نَدعِ الحياء لمسِّ ضرٍّ وبعضُ الضرّ يذهب بالحياء
ولم نَحزَنْ على دنيا تولَّتْ ولم نُسبَق الى حُسن العزاء
تَوَقَّ الناسَ يابنَ أبي وأمّي فهم تَبَعُ المخافةِ والرَّجاء
ولا يَغرُرْكَ من وَغدٍ إخاءٌ لأمرٍ ما غدا حَسَنَ الإخاء

---

(١) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر المتطبب .

(٢) العقب : جمع عقبة وهي النوبة .

أَلَمْ تَرَ مُظهرين عليَّ عَيباً وهم بالأمس إخوانُ الصَّفاء
فلمّا أن بُليتُ غَدَوْا وراحوا عليَّ أشدَّ أسبابِ البَلاء
أبتْ أخطارُهم أن يَنصُروني بمالٍ أو بجاهٍ أو ثَراء
وخافوا أن يقالَ لهم خذلتم صديقاً فادَّعوا قِدَمَ الجفاء
تضافرتِ الرَّوافضُ والنَّصارى وأهلُ الاعتزال على هِجائي

— يعني بأهل الاعتزال عليَّ بن يحيى المنجّم وقد كان بلغه عنه ذكر له — :

وعابوني وما ذنبي اليهم سوى عِلمي بأولاد الزِّناء
فبَختيشوعُ يشهد لابن عمرو وعَزُّونٌ لهارون المرائي
وما الجذماءُ بنتُ أبي سُمَيرٍ بجذماء اللِّسان عن الخَناء
إذا ما عُدَّ مِثلُكم رجالاً فما فضلُ الرجال على النساء
عليكم لعنةُ الله ابتداءً وعَوْداً في الصَّباح وفي المساء
إذا سُمِّيتُمُ للناس قالوا أولئك شرُّ من تحت السماء
أنا المتوكِّليُّ هوًى ورأياً وما بالواثِقيَّة من خَفاء
وما حَبْسُ الخليفةِ لي بعارٍ وليس بمُؤْيِسي منه التنائي

قال أبو الشبل شعره في الحبس كشعر عديّ بن زيد :

أخبرني عمي قال حدثنا محمد قال قال لي أبو الشِبل البُرْجُمِيّ : ما شِعر عليّ بن الجهم في الحبس بدون شعر عَدِيّ بن زيد .

أخبرني عمي قال حدثنا محمد قال :

كان سببُ حَبس المتوكِّل عليَّ بنَ الجهم أنَّ جماعةً من الجُلَساء سَعَوْا به اليه وقالوا له : إنه يُجَمِّشُ[١] الخدَمَ ويَغمِزهم ، وإنه كثيرُ الطعن عليك والعيبِ

(١) يجمش الخدم : يلاعبهم ويقرّصهم .

لك والإزراء على أخلاقك ؛ ولم يزالوا به يُوغرون صدرَه عليه حتى حبسه ؛ ثم أبلغوه عنه أنه هجاه . فنفاه الى خُراسان وكتب بأن يُصلَب إذا وردها يوماً الى الليل . فلما وصل الى الشاذياخ[١] حَبَسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها ، ثم أُخرج فصُلب يوماً الى الليل مجرّداً ثم أُنزِل . فقال في ذلك .

لم يَنصِبوا بالشَّاذِياخ عَشِيَّةَ الإِثنين مسبوقاً ولا مجهولا
نصَبوا بحمد الله مِلْءَ قلوبهم شَرَفاً ومِلْءَ صدورهم تَبجِيلا
ما ازداد إلّا رفعةً بِنُكوله[٢] وازدادت الأعداء عنه نُكولا
هل كان إلّا الليثَ فارق غِيلَه فرأيتَه في مَحمِل محمولا
لا يأمَن الأعداء من شدّاته شداً يفصِّل هامَهم تفصيلا
ما عابه أن بُزَّ عنه لِباسه فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسلولا
إن يُبتَذَلْ فالبدرُ لا يُزري به أن كان ليلةَ تِمِّه مبذولا
أو يَسلُبوه المالَ يُحزِنْ فقده ضيفاً ألمَّ وطارقاً ونَزِيلا
أو يَحبِسوه فليس يُحبَس سائرٌ من شعره يَدَعُ العزيزَ ذليلا
إن المصائب ما تعدّت دينَه نِعَمٌ وإن صَعُبَتْ عليه قليلا
واللهُ ليس بغافلٍ عن أمره وكَفى بربِّك ناصراً ووكيلا
ولَتَعلَمَنَّ اذا القلوبُ تكشَّفَت عنها الأكِنَّةُ مَن أضلُّ سبيلا

كتب المتوكل لطاهر باطلاقه فأطلقه فقال شعراً :

أخبرني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

كتب المتوكِّل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق عليّ بن الجَهم . فلمّا أطلقه قال :

---

(١) الشاذياخ : من ضواحي نيسابور أم بلاد خراسان .

(٢) يريد بنكوله الأولى التنكيل به ، وبالثانية الفرار عنه والاحجام .

أطاهِرُ إنّي عن خُراسانَ راحلٌ ومُستَخبَرٌ عنها فما أنا قائلُ
أأَصدُقُ أم أكني عن الصِدق أنّما تَخَيَّرتَ أدّتهُ اليك المحافل
وسارت به الرُكبانُ واصطَفَقَتْ به أكُفُّ قِيانٍ واجتَبَته القبائل
وإنّي بغالي الحمدِ والذمّ عالمٌ بما فيها نامي الرَمِيَّةِ[1] ناضل
وحقّاً أقولُ الصِدقَ إنّي لمائلٌ اليكَ وإن لم يَحظَ بالودّ مائل
ألا حُرمَةٌ تُرعى ألا عَقدُ ذمّةٍ لجارٍ ألا فِعلٌ لقولٍ مُشاكِل
ألا مُنصِفٌ إن لم نجد متفضِّلاً علينا ألا قاضٍ من الناس عادل
فلا تَقطَعَنْ غيظاً عليَّ أناملاً فقبلك ما عُضَّت عليَّ الأنامل
أطاهِرُ إن تُحسِنْ فإنّيَ مُحسِنٌ اليك وإن تبخَلْ فإنّيَ باخل

فقال له طاهر: لا تقل إلّا خيراً فإني لا أفعل بك إلّا ما تحبّ؛ فوصله وحمله وكساه.

جمش جارية فباعدته فقال شعراً فأجابته:

أخبرني عمي قال حدثني محمد قال:

كان عليّ بن الجهم في مجلس فيه قَينةٌ، فعابَثَها وجَمَّشها، فباعَدَته وأعرضت عنه، فقال فيها:

خفي الله فيمن قد تَبلت فؤادَه وغادرته نِضواً كأنّ به وَقرا
دعي البخل لا أسمع به منك إنّما سألتُك أمراً ليس يُعري لكم ظَهرا

فقالت له: صدَقتَ يا أبا الحسن، ليس يُعري لنا ظَهراً، ولكنه يملأُ بطننا!!

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثنا إبراهيم ابن المدبّر قال حدثنا علي بن الجهم قال:

---

(١) الرمية النامية: التي أصيبت ثم غابت عن الرامي وماتت.

كان الحارثيّ يجيء الى حُلوان[١] وأنا أتولاها – وكان عليّ بن الجهم على مظالمها – فإذا وردها وقع الإرجاف[٢]، فلم يَزَل متَّصِلاً حتى يخرج، فإذا خرج سكن الإرجاف. فأتاني مرّةً وظهر كوكب الذَّنَب في تلك الليلة، فقلت:

لمّا بدا أيقنتُ بالعَطَبِ فسألتُ ربّي خيرَ مُنقلَبِ
لم يَطلُعا إلا لآبِـدةٍ[٣] الحارثيُّ وكوكبُ الذَّنَبِ

قال ابن المدبّر: وكان الحارثيّ أعور مُقبَّح الوجه، وفيه يقول أبو عليّ البصير:

يا مَعشَرَ البُصَراء لا تَتطرّفوا[٤] جيشي ولا تتعرّضوا لنَكيري
رُدُّوا عليَّ الحارثيَّ فإنه أعمى يُدلِّس نفسه في العُور

انتحل شعراً لإبراهيم بن العباس:

أخبرني الحسن قال حدثنا ابن مَهرويه قال أنشدني إبراهيم بن المدبّر لعلي بن الجهم وذكر أن علياً أنشده إيّاه لنفسه:

أميلُ مع الذّمام على ابن أمّي وآخُذ للصَّديق من الشقيقِ
وإن ألفيتَني حُرّاً مُطاعاً فإنك واجدي عَبدَ الصديق
أُفرّق بين معروفي ومَنّي وأجمعُ بين مالي والحقوق

فقال إبراهيم: كذَب والله عليُّ بن الجهم وأثِم. والله لهذا الشعرُ أشهرُ بإبراهيم ابنِ العبّاس من إبراهيم بالعباس أبيه.

(١) حلوان: مدينة بالعراق.

(٢) الإرجاف هنا: الزلزلة؛ يقال رجفت الأرض وأرجفت.

(٣) الآبدة: الداهية الخالدة الذكر، والأمر العظيم تنفر منه وتستوحش.

(٤) تطرف الشيء: تحيفه وأخذ من أطرافه.

قال المتوكل إنه كذاب وأثبت كذبه بكلامه له :

أخبرني الحسن قال حدثني ابن مهرويه قال حدثنا ابراهيم بن المدبّر قال قال المتوكل :

عليّ بن الجهم أكذبُ خلقِ الله . حفظتُ عليه أنّه أخبرني أنه أقام بخراسان ثلاثين سنة ، ثم مضت مدّة أخرى وأنسِيَ ما أخبرني بـه ، فأخبرني أنه أقام بالثغور ثلاثين سنة ، ثم مضت مدّة أخرى وأنسِيَ الحكايتين جميعاً ، فأخبرني أنه أقام بالجبل ثلاثين سنة ، ثم مضتْ مدّة أخرى فأخبرني أنه أقام بمصر والشأم ثلاثين سنة ، فيجب أن يكون عمره على هذا وعلى التقليل مائةً وخمسين سنة ، وإنما يُزاهي سنُّه الخمسين سنةً . فليت شعري أيُّ فائدة له في هذا الكذب وما معناه فيه !!

عربد عليه بعض ولد علي بن هشام فهجاهم :

أخبرني محمد بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن المعتزّ ، وحدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

اجتمع عليّ بن الجهم مع قوم من ولد علي بن هشام في مجلس ، فعربَد عليه بعضهم ، فغضِب وخرج من المجلس ، واتّصل الشرُّ بينهم حتى تقاطعوا وهجروه وعابوه واغتابوه . فقال يهجوهم :

بني مُتَيَّمَ هل تدرون ما الخبرُ ... وكيف يُستَرُ أمرٌ ليس يَستترُ
حاجيتُكم : مَن أبوكم يابني عُصَبٍ ... شتّى ولكنّا للعاهر الحَجَر
قد كان شيخُكمُ شيخاً له خطرٌ ... لكن أمّكمُ في أمرها نَظَر
ولم تكن أمّكم – والله يكلؤها – ... محجوبةً دونَها الحرّاسُ والسُّتر
كانت مغنّيَةَ الفتيانِ إن شربوا ... وغيرَ ممنوعةٍ منهم إذا سكروا

وكان إخوانُـه غُرّاً غطارفةً لا يُمكِن الشيخَ أن يَعصي إذا أمروا
قومٌ أعِفّـاءُ إلّا في بيوتكمُ فإنّ في مِثلها قـد تُخلَعُ العُذُرُ
فأصبحتْ كمُراحِ[١] الشَّوْلِ حافلةً من كلّ لاحقةٍ في بطنهـا دِرَرُ
فجئتمُ عُصَباً من كلّ ناحيـةٍ نوعاً مخانيثَ في أعناقها الكَبَرُ[٢]
فواحدٌ كِسرَويٌّ في قراطِقِـهِ[٣] وآخرٌ قُرَشيٌّ حيـن يُختَبَر
ما عِلمُ أمّكمُ مَن حلّ مِئزرَها ومَن رماها بكم يا أيُّها القَـذَر
قوم إذا نُسِبوا فالأمّ واحـدةٌ والله أعلم بالآباء إذ كَـثُروا
لم تَعرِفوا الطَّعنَ إلّا في أسافلكم وأنتمُ في المخـازي فِتيَةٌ صُبُر
أحببتُ إعـلامَكم إنّي بأمركمُ وأمرِ غيرِكمُ من أهلكم خَبِر
تَفَكَّهون بأعراض الكرام وما أنتم وذِكْرُكُمُ الساداتِ يا عُرَرُ[٤]
هذا الهجاء الذي تَبقى مياسِمُه[٥] عـلى جباهكم ما أورق الشَّجَر

سعى عند المتوكل بندمائه وبلغه انه هجاه فحبسه :

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثنـا ابن مَهرويه قال حدثني إبراهيم بن المدبّر قال :

كتب صاحب الخبر الى المتوكل أن الحسن بن عبد الملك بن صالح أحترق فمات . فقال علي بن الجهم : قد بلغني أنّ العامل قتله وصانع صاحبَ الخبر حتى

(١) في الأصول : «كمريح» والمراح : مأوى الإبل . والشول من النوق : التي خـف لبنها وارتفع ضرعها .

(٢) الكبر : الطبل . معرب .

(٣) القراطق : جمع قرطق وهو القباء .

(٤) العرر : جمع عرة وهو الرجل يكون شين القوم ؛ يقال : فلان عرة اهله .

(٥) المياسم : جمع ميسم وهو هنا أثر الوسم والجمع مواسم على الأصل باعتباره من وسم .

كتب بهذا . وكان يسعى بالجلساء الى المتوكل فأبغضه وأمره بأن يلزم بيته ، ثم بلغه أنه هجاه فحبسه . وأحسنُ شعر قاله في الحبس قصيدتُه التي أولها :

قالت حُبِستَ فقلت ليس بضائري ... حبسي وأيُّ مُهنَّدٍ لا يُغمَدُ
أوَ ما رأيت الليثَ يألفُ غِيلَه ... كِبراً وأوباشُ السِباع تَرَدَّدُ
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ ... عن ناظِريك لما أضاء الفرقد
والبدرُ يُدرِكه السَرارُ[١] فتنجلي ... أيامُه وكأنه مُتجدِّدُ
والغيثُ يَحصُره الغمامُ فما يُرى ... إلّا وريِّقُه يَرُوعُ ويُرعِدُ
والزاعِبيَّةُ[٢] لا يُقيم كُعوبَها ... إلّا الثِقافُ[٣] وجَذوةٌ تَتوقَّد
والنارُ في أحجارِها مخبوءةٌ ... لا تُصطلَى إن لم تُثِرها الأزْنُد
والحبس ما لم تغشَه لدَنِيَّةٍ ... شنعاء نِعمَ المنزِلُ المُتورَّدُ[٤]
بيتٌ يُجدِّدُ للكريم كرامةً ... ويُزار فيه ولا يَزور ويُحمَد
لو لم يكن في الحبس إلّا أنه ... لا يستذِلُّك بالحجاب الأعْبُد
كم من عليل قد تخطّاه الرَّدى ... فنجا ومات طبيبُه والعُوَّد
يا أحمدُ بنَ أبي دُوادٍ إنما ... تُدعى لكلِّ عظيمة يا أحمد
أبلغ أميرَ المؤمنين فدونَه ... خَوضُ الرَّدى ومخاوفٌ لا تَنفَد
أنتم بنو عمِّ النبيِّ محمدٍ ... أولى بما شرَعَ النبيُّ محمد
ما كان من كَرَمٍ فأنتم أهلُه ... كرُمَتْ مَغارِسُكم وطاب المَحتِد
أمِنَ السَّويّةِ يابنَ عمِّ محمدٍ ... خصمٌ تُقرِّبُه وآخرُ تُبعِد

(١) السرار : آخر ايام الشهر .

(٢) الزاعبية : رماح منسوبة إلى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الأسنة .

(٣) الثقاف : آلة من خشب تسوّى بها الرماح .

(٤) المتورد : الذي يورد ويزار مثل المورود .

إنّ الذين سَعَوْا اليك بباطلٍ ... حُسّادُ نعمتِك التي لا تُجحَد
شهِدوا وغِبنا عنهم فتحكّموا ... فينا وليس كغائب مَن يَشهَد
لو يجمع الخصماء عندك مجلسٌ ... يوماً لبان لك الطريقُ الأقصَد
فبأيّ جُرمٍ أصبحت أعراضُنا ... نَهباً تَقَسّمها اللئيمُ الأوغد

أخبرني جعفر بن قُدامة قال حدثني حمّاد بن اسحاق قال قال لي أبو الفضل الرَّبَعيّ قال قال لي علي بن الجهم :

دخلت على المتوكِّل وقد بلغني أنه كلّم قَبيحةَ جاريتَه فأجابته بشيء أغضبه، فرماها بمِخَدّةٍ فأصابت عينها فأثّرت فيها، فتأوّهت وبكت وبكى المعتزّ لبكائها؛ فخرج المتوكِّل وقد حُمّ من الغمّ والغضب. فلما بَصُر بي دعاني واذا الفتح[1] يُري بَختيشوعَ القارورة ويشاوره فيها. فقال لي: قل يا علي في عِلّتي هذه شيئاً وصِفْ أنّ الطبيب ليس يَدري ما بي؛ فقلت :

تنكّر حالَ عِلّتيَ الطبيبُ ... وقال أرى بجسمك ما يَريبُ
جَسَسْتُ العِرقَ منك فدلّ جَسّي ... على ألمٍ له خَبَرٌ عجيب
فما هذا الذي بك هاتِ قُلْ لي ... فكان جوابَه منّي النَّحيب
وقلت أيا طبيبُ الهجرُ دائي ... وقلبي يا طبيبُ هو الكئيب
فحرّك رأسَه عَجَباً لقولي ... وقال الحب ليس له طبيب
فأعجبني الذي قد قال جِدّاً ... وقلت بَلَى إذا رضِي الحبيب
فقال هو الشفاء فلا تُقَصِّرْ ... فقلت أجل ولكن لا يُجيب
ألا هل مُسعِدٌ يبكي لشَجْوي ... فإنّي هائمٌ فَرْدٌ غريب

فقال : أحسنتَ وَحياتي ! يا غلام اسقِني قَدَحاً ؛ فجاءه بقَدَح فشرب وسُقيتِ

---

(١) هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل ونديمه .

الجماعةُ مثلَه . وخرجتْ اليه فَضلُ الشاعرةُ بأبياتٍ أمرتْها قَبيحةُ أن تقولها عنها . فقرأها فإذا هي :

لَأكتُمنّ الذي في القلب من حُرَقٍ حتى أموت ولم يَعلم به الناسُ
ولا يقال شَكا مَن كان يَعشَقُهُ إنّ الشَّكاة لمن تَهوى هي الياس
ولا أبوح بشيء كنت أكتُمه عند الجلوس إذا ما دارت الكاس

فقال المتوكل : أحسنتِ يا فَضلُ . وأمر لها ولي بعشرين ألف درهم ، ودخل الى قبيحةَ فترضّاها .

أخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد قال :

خرج عليُّ بن الجهم الى الشام في قافلة ، فخرجتْ عليهم الأعراب في خُساف[١] فهرَب من كان في القافلة من المُقاتلة ، وثبت علي بن الجهم فقاتلهم قتالًا شديداً ، وثاب الناسُ اليه فدفعهم ولم يحظَوْا بشيء . فقال في ذلك :

صبَرتُ ومثلي صبرُه ليس يُنكَرُ وليس على تَرك التَقَحُّمِ يُعذَرُ
غريزةُ حرّ لا اختلاقُ تَكلُّفٍ إذا خام[٢] في يوم الوغى المُتَصبِّر
ولمّا رأيتُ الموت تَهفُو بُنودُه وبانتْ علاماتٌ له ليس تُنكَر
وأقبلتِ الأعرابُ من كلّ جانبٍ وثار عَجاجٌ أسودُ اللّون أكدَر
بكلِّ مُشيحٍ[٣] مستميتٍ مُشمِّرٍ يجول به طِرفٌ[٤] أقبُّ مُشمِّر

(١) خساف : برية بين بالس وحلب .

(٢) خام : نكص وجبن .

(٣) المشيح : الجد .

(٤) الطرف : الكريم من الخيل . والاقب : الدقيق الخصر الضامر البطن .

بأرض خُسافٍ حين لم يكُ دافعٌ ولا مانعٌ إلّا الصَّفيحُ[1] المُذكَّرُ
فقلّل في عيني عُظمَ جموعهم عزيمةُ قلبٍ فيه ما جلّ يَصغُرُ
بمُعتَرَكٍ فيه المنايا حواسرٌ ونارُ الوغى بالمَشرَفيّة تُسعَرُ
فما صُنتُ وجهي عن ظُباتِ سيوفهم ولا اُنخزَتُ عنهم والقنا تتكسّرُ
ولم أكُ في حرّ الكريهة مُحجماً إذا لم يكن في الحرب للورْدِ مَصدرُ
إذا ساعدَ الطِّرفُ الفتى وجنانُه وأسمرُ خَطّيٌّ وأبيضُ مِبتَرُ
فذاك، وإن كان الكريمُ بنفسه، إذا اصطكّتِ الأبطالُ في النّقع عَسكرُ
مَنعتُهمُ من أن ينالوا قُلامةً وكنت شَجاهم والأسنّةُ تقطُرُ
وتلك سجايانا قديماً وحادثاً بها عُرِفَ الماضي وعزّ المؤخَّرُ
أبتْ لي قُرومٌ أنجبتني أن أرى وإن جلّ خَطبٌ خاشعاً أتضجّرُ
أولئك آلُ الله فِهرُ بنُ مالكٍ بهم يُجبَرُ العظمُ الكسيرُ ويُكسَرُ
هم المَنكِبُ العالي على كلّ مَنكبٍ سيوفُهمُ تُفني وتُغني وتُفقِرُ

أخبرني عيسى بن الحسين الورّاق والحسن بن علي قالا جميعاً حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني عيسى بن أبي حَرب قال حدثني علي بن الجهم قال :

حبسني أبي في الكُتّاب، فكتبت الى أُمي :

يا أُمتا أفديكِ من أُمّ أشكو اليكِ فَظاظةَ الجهمِ
قد سُرِّحَ الصِّبيانُ كلُّهمُ وبَقيتُ محصوراً بلا جُرمِ

قال : وهو أوّل شعر قلته وبعثت به الى أمي ؛ فأرسلت الى أبي : والله لئن لم تُطلقه لأخرُجنّ حاسرةً حتى أُطلِقَه . قال عيسى فحدّثت بهذا الخبر ابراهيم بن المدبّر فقال : عليٌّ بن الجهم كذّاب ، وما يمنعه من أن يكون وَلَدَ هذا

(١) الصفيح هنا : السيف العريض ،

الحديثَ وقال هذا الشعر وله ستون سنة ، ثم حدثكم أنه قاله وهو صغير ، ليرفع من شأن نفسه !.

أخبرني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

كان أحمد بن أبي دُواد منحرفاً عن علي بن الجهم لاعتقاده مذهب الحشويَّة[1]. فلما حُبس عليُّ بن الجهم مدح أحمدَ بن أبي دُواد عدّة مدائح ، وسأله أن يقوم بأمره ويَشفع فيه ، فلم يفعل وقعد عنه . فمنها قوله :

يا أحمدُ بنَ أبي دُوادٍ إنّما ... تُدعى لكلّ عظيمةٍ يا أحمدُ
أبلغ أميرَ المؤمنين ودونَه ... خَوضُ الرَّدى ومَخاوفٌ لا تنفَد
أنتم بنو عمّ النبيّ محمد ... أولى بما شرَعَ النبيُّ محمد

وهذه الأبيات من قصيدته التي أولها :

قالت حُبستَ فقلتُ ليس بضائري

فلمّا نَفى المتوكِّل احمد بن أبي دُواد شَمِتَ به عليُّ بن الجهم وهجاه فقال :

يا أحمدُ بنَ أبي دُوادٍ دعوةً ... بعثتْ اليك جنادلًا وحديدا
ما هذه البِدَعُ التي سمَّيتَها ... بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدتَ أمرَ الدّين حين وَليتَه ... ورمَيتَه بأبي الوليد[2] وليدا
لا مُحكماً جزلًا[3] ولا مُستطرَفاً ... كهلًا، ولا مُستحدَثاً معمودا
شَرِهاً، إذا ذُكرَ المكارمُ والعُلا ... ذَكرَ القلايا[4] يا مُبدِئاً ومُعيدا

---

(١) الحشوية : طائفة يقولون : حكم الاحاديث كلها واحد ، وعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض . وهم فرقة من المرجئة .

(٢) أبو الوليد هو محمد بن أحمد بن أبي دواد، كان يتولى المظالم بسامرا وعزله المتوكل سنة٢٣٧هـ.

(٣) الجزل هنا : الجيد الرأي أصيله .

(٤) القلايا : المقليات ، مفرده قلية .

وَيَوَدُّ لو مُسِخَتْ ربيعةُ كلُّها   وبنو إيادٍ صَحفةً وثَريدا
وإذا ترَبَّع في المجالس خِلتَه   ضَبُعاً وخِلتَ بني أبيه قرودا
وإذا تبسَّمَ ضاحكاً شبَّهتَه   شَرِقاً تَعَجَّلَ شُربَه مَردودا
لا أصبحَتْ بالخير عينٌ أبصرتْ   تلك المناخِرَ والثَّنايا السُّودا

أخبرني عمي قال حدثنا محمد قال :

كتب علي بن الجهم الى طاهر من الحبس :

إن كان لي ذَنبٌ فلي حُرمةٌ   والحقُّ لا يدفعه الباطلُ
وحُرمتي أعظمُ من زَلَّتي   لو نالني من عَدلِكم نائل
ولي حقوقٌ غيرُ مجهولةٍ   يعرفها العاقل والجاهل
وكلُّ إنسانٍ له مذهبٌ   وأهلُ ما يفعله الفاعل
وسيرةُ الأملاك منقولةٌ   لا جائرٌ يَخفى ولا عادل
وقد تعجَّلتَ الذي خِفتُه   منك ولم يأتِ الذي آمل

حدثني عمي قال حدثنا محمد قال :

كان علي بن الجهم يعاشر جماعةً من فِتيان بغداد لمَّا أُطلِق من حبسه ورُدَّ من النفي ، وكانوا يتقاينون[1] ببغداد ، ويلزمون منزل مُقيِّنٍ بالكَرْخ يقال له المُفَضَّل . فقال فيه عليّ بن الجهم :

نزلنا بباب الكَرْخ أطيبَ منزلٍ   على مُحسِناتٍ من قِيان المُفَضَّلِ
فلابن سُرَيجٍ والغريضِ ومَعبَدٍ   بدائعُ في أسماعنا لم تُبَدَّلِ
أوانِسُ ما للضَّيف منهنَّ حِشمةٌ   ولا رَيْثُهنَّ بالجليل المُبَجَّلِ
يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قَلَّ حياؤه   ويَغفُلُ عنه وهو غيرُ مُغَفَّلِ

(١) ظاهر أن معناه : يجالسون القيان ، وأن معنى مقين صاحب قيان .

وَيُكثِرِ من ذمّ الوقار وأهله إذا الضَّيفُ لم يأنَس ولم يَتَبَذَّلِ
ولا يدفع الأيدي المُريبةَ غيرةً إذا نال حظّاً من لَبُوسٍ ومأكل
ويُطرِق إطراقَ الشُّجاع مَهابةً لِيُطلِق طرفَ الناظر المتأمِّل
أشِرْ بيدٍ وأغمِزْ بطرفٍ ولا تَخَفْ رقيباً اذا ما كنتَ غيرَ مُبَخَّل
وأعرِض عن المصباح والْهجْ بمثله فإن خمَدَ المصباحُ فادنُ وقبِّل
وسَلْ غيرَ ممنوعٍ وقُلْ غيرَ مُسكَتٍ ونَمْ غيرَ مذعورٍ وقُمْ غيرَ مُعجَل
لك البيتُ ما دامت هداياك جَمَّةً وكنتَ ملِيّاً بالنّبيذ المُعَسَّل
فبادِرْ بأيّام الشّباب فإنّها تَقَضَّى وتَفنى والغوايةُ تَنجلي
ودَعْ عنك قولَ الناس أتلفَ ماله فلانٌ فأضحى مُدبِراً غيرَ مُقبِل
هل الدهرُ إلّا ليلةٌ طَرَحَتْ بنا أواخرُها في يوم لَهوٍ مُعَجَّل
سقى الله بابَ الكَرْخ من مُتَنَزَّهٍ إلى قصرِ وضّاحٍ[1] فبِرْكةِ زلزَلِ[2]
مَساحِبُ أذيال القِيان ومَسرَحُ الحِسان ومَثوَى كلِّ خِرقٍ مُعَذَّل[3]
لوَ أنّ امرأ القيس بن حُجرٍ يَحُلُّها لأقصَرَ عن ذِكر الدَّخول وحَومَل[4]
إذاً لرأى أن يَمنحَ الوُدَّ شادِناً مقصِّرَ أذيالِ القَبَا غيرَ مُسبِل[5]

---

(١) قصر وضاح: قصر بني للمهدي قرب رصافة بغداد، وقد تولّى النفقة عليه رجل من أهل الانبار يقال له وضاح فنسب اليه.

(٢) بركة زلزل: ببغداد بين الكرخ والصراة وباب المحول (بتشديد الواو مع فتحها) وسويقة أبي الورد تنسب الى زلزل الضارب. (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الخرق من الرجال: الكريم الذي يتخرق في كرمه أي يتسع فيه. والمعذل: الذي يكثر الناس عذله ولومه على إسرافه في الكرم.

(٤) رواية معجم البلدان:

منازل لا يستتبع الغيث أهلها ولا أوجه اللذات عنها بمعزل
منازل لو أن امرأ القيس حلها لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

(٥) في ياقوت:

اذا لرأى امنح الود شادنا مقلس ... ...

إذا الليلُ أدنى مَضجَعي منه لم يَقُل[١] عَقَرتَ بَعيري يا امرأ القيس فانزِلِ

حدثني الحسنُ بن علي قال حدثنا ابن مَهرويَه قال حدثني ابراهيم بن المدبّر قال أنشدني علي بن الجهم لنفسه :

وإذا جَزَى الله امرأً بفِعاله فجزى أخاً لي ماجداً سَمحاً
ناديتُه عن كُرْبَةٍ فكأنّما أطلعتُ عن ليلٍ به صُبحا

فقلت له : وَيلك ! هذا لإبراهيم بن العبّاس يقوله في محمد بن عبد الملك الزيّات ! فجَحَدَني وكابر . فدخل يوماً علي بن الجهم الى ابراهيم بن العبّاس وأنا عنده . فلمّا رآني قال : اجتمع الإبراهيمان . فتركتُه ساعةً ثم أنشدتُ البيتين ، وقلت لإبراهيم ابن العبّاس : إن هذا يزعم أن هذين البيتين له . فقال : كذَبَ ، هذان لي في محمد بن عبد الملك الزيّات. فقال له علي بن الجهم بقِحَةٍ : ألم أنهَكَ أن تَنتحل شعري ! فغضِب ابراهيم وجعل يقول له بيده : سَوءةً عليك سَوءةً لك ! ما أوقحك ! وهو لا يُنكِر[٢] في ذلك ولا يَخجَل . ثم التقينا بعد مدة فقال : أرأيتَ كيف أخزيتُ إبراهيم بن العباس !! فجعلت أعجَبُ من صلابة وجهه .

شعر له في الفراق :

حدثني[٣] عمي قال أنشدنا محمد بن سَعد لعلي بن الجهم وفيه غِناء :

اعلَمي يا أحبَّ شيءٍ إليّا أنّ شوقي اليكِ قاضٍ عليّا
إن قضى اللهُ لي رجوعاً اليكم لا ذكرتُ الفِراقَ ما دمتُ حيّاً
إنّ حرّ الفِراق أنحَلَ جسمي وكوى القلبَ منكِ بالشوق كيّاً

---

(١) في الاصول : «لم أقل» . والتصويب من معجم البلدان لياقوت عند الكلام على قصر وضاح .

(٢) في حـ ، ب ، س : « لا يفكر » .

(٣) في ب ، س ، حـ : « قال حدثني الخ » وكلمة « قال » هنا لا موقع لها .

كان محمد بن عبد الملك الزيات منحرفاً عنه ويسبعه عند الخليفة فهجاه :

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

كان محمد بن عبد الملك الزّيات مُنحرفاً عن علي بن الجهم وكان يَسبِعُه[١] عند الخليفة ويَعيبُه ويذكُره بكلّ قبيح . فقال فيه علي بن الجهم :

لَعائنُ الله مُتابَعاتِ ... مُصَبّحاتٍ ومُهَجّراتِ
على ابن عبد الملك الزّيات ... عَرّضَ شَملَ المُلكِ للشّتات
وأنفَذَ الأحكامَ جائرات ... على كتاب الله ذاريات[٢]
وعن عقول الناس خارجات ... يرمي الدواوينَ بتوقيعات
مُعَقّداتٍ كَرُقى الحيّات ... سبحانَ مَن جَلّ عن الصّفات
بعد ركوب الطّوف[٣] في الفُرات ... وبعد بَيعِ الزّيت بالحبّات
صرتَ وزيراً شامخَ الثّبات ... هارون[٤] يابنَ سيّدِ السّادات
أما ترى الأمورَ مُهمَلات ... تشكو اليك عَدمَ الكُفاة
فعاجِلِ العلجَ بمُرهَفات ... من بعد ألفٍ[٥] صُخُبِ الأصوات
بمُثمِرات[٦] غيرِ مُورِقاتِ ... تُرى بمَتنَيه مُرَصّفات
تَرَصُّفَ الأسنان في اللّثات

(١) سبعه (من باب ضرب ومنع) شتمه ووقع فيه . وهذه الكلمة محرفة في الاصول ، ففي ب ، س : « يسبه » وفي أ ، م : « يشعه » وفي حـ : « يسبعه » .

(٢) كذا في الاصول بالذال المعجمة . وذاريات من ذرت الريح التراب تذروه وتذريه : فرقته وأطارته . يريد أنها تعفي كتاب الله . ويحتمل ان يكون زاريات بالزاي أي عائبات .

(٣) الطوف: قرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها.

(٤) يريد هارون الواثق الخليفة العباسي .

(٥) يريد ألفاً من السياط .

(٦) مثمرات : لها ثمر . والثمرة من السوط : عقدة في طرفه تشبيهاً بالثمرة في الهيئة والتدلي عنه كتدلي الثمر .

أخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد قال :

كان علي بن الجهم سأل عمرَ بن الفرَج الرُّخَّجي[١] معاونتَه ، واسترفده في نكبته فلم يُعاونه ولم يَرفده ، ثم قُبِض على عمر بن الفرج وأسلم الى نجاح[٢] ليصادره . فقال علي بن الجهم له :

أبلغ نَجاحاً فتى الفِتيانِ مألُكَةً[٣] تَمضي بها الرّيحُ إصداراً وإيرادا
لن يخرج المالُ عفواً من يَدَيْ عُمَرٍ أو يُغمَدَ السَّيفُ في فَودَيه إغمادا
الرُّخَّجيّون لا يُوفون ما وَعَدوا والرُّخَّجيّاتُ لا يُخلِفنَ مِيعادا

قال وقال في عمر بن الفرَج أيضاً :

جمعتَ أمرين ضاع الحزمُ بينهما تيهَ الملوك وأفعالَ المماليكِ
أردتَ شكراً بلا برٍّ ومَرزِئةٍ لقد سلكتَ طريقاً غيرَ مسلوك
ظننتَ عِرضَك لا يُرمى بقارعةٍ وما أراكَ على حالٍ بمتروك

أخبرني عمي قال حدثني الحسن بن الحسن بن رَجاء عن أبيه قال :

كان لسليمان بن وَهبٍ نديمٌ يأنَسُ به ويألفه ، فعربد عليه ليلةً من الليالي عَربَدةً قبيحةً ، فاطَّرحه وجفاه مدّة . فوقف له على الطريق . فلمّا مَرّ به وثب اليه فقال له : أيها الوزير ، ألا تكون في أمري كما قال علي بن الجهم :

القومُ إخوانُ صِدقٍ بينهم نَسَبُ من المودّة لم يُعدَلْ بها نَسَبُ
تراضَعوا دِرّةَ الصَّهباء بينهمُ فأوجبوا لرضيع الكأس ما يَجب

---

(١) كان هو وأبوه فرج من أعيان الكتّاب في أيام المأمون الى أيام المتوكل .

(٢) هو نجاح بن سلمة أبو الفضل .

(٣) المألكة: الرسالة .

لا تحفَظَنّ على السّكران زَلّتَـه ... ولا تَرِيبَنّك من أخـلاقه رِيَب

فقال له سليان : قد رضيتُ عنك رضاً صحيحاً، فَعُدْ الى ما كنتَ عليه من ملازمتي. وأوّل هذه الأبيات :

الوَرْدُ يضحك والأوتار تصطخِبُ ... والنّاي يَندُبُ أشجاناً ويَنتَحِبُ
والرّاحُ تُعرَضُ في نَور الرّبيع كما ... تُجلى العَروسُ عليها الدُرُّ والذهب
واللّهو يُلحِقُ مَغبوقاً بمُصطَبِحٍ ... والدور سيّان محثوثٌ ومُنتَخَب
وكلّما انسكبتْ في الكأس آونةً ... أقسمتُ أنّ شُعاع الشّمس يَنسكب

أخبرني عمي قال حدثنا محمد بن سعـد قال حدثني أسلَم مولى عبد الله بن طاهر قال :

دخل علي بن الجهم يوماً على عبد الله بن طاهر في غُدوة من غُـدواتِ الرّبيع وفي السماء غَيم رقيق والمطرُ يجيء قليلًا ويسكن قليلًا ، وقد كان عبد الله عزَم على الصَّبوح . فغاضبتْه حَظِيَّةٌ له ، فتنغَّص عليه عَزْمُه وفتر . فخُبِّر علي بن الجهم بالخبر وقيل له : قُل في هذا المعنى شيئاً ، لعله ينشَط للصَّبوح . فدخـل عليه فأنشده :

صوت

أَما ترى اليومَ ما أحـلى شمائله ... صَحوٌ وغَيمٌ وإبراقٌ وإرعـادُ
كأنّه أنت يا مَن لا شبيـهَ له ... وَصلٌ وهَجرٌ وتَقريبٌ وإبعاد
فباكِرِ الرّاح واشربها مُعتَّقةً ... لم يَدَّخِر مِثلَها كِسرى ولا عاد
واشربْ على الرّوض إذ لاحت زخارفه ... زَهـرٌ ونَورٌ وأوراقٌ وأوراد
كأنّما يومُنا فِعلُ الحبيب بنـا ... بَذلٌ وبُخلٌ وإيعـادٌ وميعاد

وليس يذهب عنّي كلُّ فعلكمُ   غيٌّ ورُشْدٌ وإصلاحٌ وإفساد

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلثمائة دينار؛ وحمله وخلع عليه، وأمر بأن يُغنّى في الأبيات. الغناء لبَذْل الطاهريّة، خفيفُ رملٍ. وفيه لغيرها هزَجٌ.

جلس في المقابر بعد خروجه من السجن:

حدثني عمي قال حدثني محمد بن سعد قال حدثني رجلٌ من أهل خُراسان قال:

رأيت علي بن الجهم بعد ما أُطلِقَ من حَبسه جالساً في المقابر؛ فقلت له: ويحك! ما يُجلسك ها هنا؟! فقال:

يشتاق كلُّ غريب عند غُربته   ويذكر الأهلَ والجيرانَ والوطنا
وليس لي وطنٌ أمسَيتُ أذكره   إلّا المقابر إذ صارت لهم وطنا

حدثني عمي قال أنشدنا أحمد بن عُبَيد ومحمد بن سعد لعلي بن الجهم وفيه غناء:

صوت

لو تَنصَّلتَ إلينا لَوَهبنا لك ذَنبَكْ
بأبي ما أبغضَ العيش إذا فارقتُ قُربَك
ليتني أملِك قلبي مِثلَ ما تَملِك قلبَك
أيها الواثق بالله لقد ناصحتَ ربَّك
ما رأى الناسُ إماماً أنهبَ الأموالَ نَهبَك
أصبحتْ حُجّتُك العُليا وحزبُ الله حِزبَك

الغناء لعَريب رَمَلٌ. وفيه لغيرها هَزَجٌ.

مدح أبا أحمد بن الرشيد فلم يعطه شيئاً فهجاه :

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

كان علي بن الجهم قد مدح أبا أحمد بن الرَّشيد فلم يُعطِه شيئاً فقال يهجوه :

يا أبا أحمدَ لا يُنجي من الشِّعرِ الفِرارُ
لبَني العبّاس أحلامٌ عِظامٌ ووقار
ولهم في الحرب إقدامٌ ورأيٌ واصطِبار
ولهم ألسِنةٌ تَبري كما تَبري الشِّفار
ووجوهٌ كنجوم اللَّيل تَهدي من يَحار
ونَسيمٌ كنسيم الرَّوض جادَتْه القِطار
ولِعِطفَيك عن المجد شِماسٌ وازوِرار
إن تكن منهم بلا شكٍّ فللعودِ قُتار[1]

رثى عبد الله بن طاهر بشعر وأنشده ابنه يعزيه :

حدثني جَحظة وعمي قالا حدثنا عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال :

دخل الينا علي بن الجهم بعقِب موت أبي والمجلسُ حافلٌ بالمعزّين ، فمَثَل قائماً وأنشدَنا يرثيه :

أيُّ ركنٍ وَهَى من الإسلامِ أيُّ يومٍ أخنى على الأيامِ
جَلَّ رُزْءُ الأميرِ عن كلِّ رُزْءٍ أدركتْه خواطرُ الأوهام

(١) القتار : ريح العود المحرق .

سَلَبَتنا الأيامُ ظِلًّا ظَليلًا وأباحتْ حِمًى عزيزَ المَرامِ
يا بَني مُصعَبٍ حللتم من النا س مَحَلَّ الأرواح في الأجسام
فإذا رابَكم من الدّهر رَيبٌ عَمَّ ما خَصَّكم جميعَ الأنام
انظروا هل تَرَونَ إلّا دموعاً شاهداتٍ على قلوبٍ دوامي
مَن يُداوي الدُّنيا ومَن يكلأُ المُلكَ لدى فادحِ الخطوبِ العِظام
نحن مُتنا بموته وأجلُّ الخطبِ موتُ السّاداتِ والأعلام
لم يَمُتْ والأميرُ طاهرُ[1] حيٌّ دائمُ الإنتقام والإنعام
وهو من بعده نظامُ المعالي وقِوامُ الدنيا وسيفُ الإمام

قال: فما أذكر أني بكيت أو رأيتُ في دُورنا باكياً أكثر من يومئذٍ.

حدثني عمي قال حدثنا أبو الدِهقانة النَّديمُ قال:

دخلنا يوماً الى المعتزّ وهو مُصطَبِحٌ على صوتٍ اختاره واقترحه على عَريبَ، وأُظنُّ الصنعةَ لها، فلم يزل يشرب عليه بقيَّةَ يومِه، فلمّا سَكِر أمر لها بثلاثين ألف درهم، وفرّق على الجلساء كلِّهم الجوائزَ والطِّيبَ والخِلَع. والصوتُ:

العينُ بعدكَ لم تنظر الى حَسَنٍ والنَّفسُ بعدكَ لم تسكُن الى سَكَنِ
كأنّ نفسي إذا ما غبتَ غائبةٌ حتى إذا عُدتَ لي عادت الى بَدَني

والشعرُ لعليّ بن الجهم.

حدثني جَحظةُ ومحمد بن خَلَف وكيعٌ وعمي قالوا جميعاً حدثنا عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال:

لمّا أطلق أبي طاهرٌ علي بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذِياخ مدةً. فخرجوا

(١) يريد طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين.

يوماً الى الصيد ، واتفق لهم مَرجٌ كثيرُ الطير والوحش ، وكانت ايام الزّعفران ، فاصطادوا صيداً كثيراً حسناً ، وأقاموا يشربون على الزّعفران . فقال علي بن الجهم يَصِف ذلك :

وَطِئنا رياضَ الزّعفران وأمسكتْ علينا البُزاةُ البِيضُ حُمرَ الدّرارج [١]
ولم تَحمِها الأدغالُ منّا وإنّما أَبحنا حِماها بالكلاب النوابج [٢]
بمُستَرْوِحاتٍ [٣] سابحاتٍ بطونُها على الأرض أمثالَ السِهام الزّوالج [٤]
ومُستَشرفاتٍ بالهوادي [٥] كأنها وما عَقفتْ منها رؤوس الصّوالج
ومن دالعاتٍ ألسُناً فكأنها لِحَى من رجالٍ خاضعين كواسج [٦]
فَلَينا بها الغِيطانَ فَلياً كأنها أنامـلُ إحدى الغانياتِ الحوالج [٧]
فَقُلْ لبُغاةِ الصّيد هل من مفاخرٍ بصَيدٍ وهل من واصفٍ أو مُخارج [٨]
قرنّا بُزاةً بالصُّقورِ وَحوَّمتْ شواهينُنا من بعد صَيدِ الزّمامج [٩]

---

(١) الدرارج : جمع درّاج وهو طير جميل المنظر ملوّن الريش .

(٢) نباج الكلب : نباحه .

(٣) استروح الشيء : تشممه : وسابحات : سريعات .

(٤) الزوالج : هنا بمعنى السريعة . يقال سهم زالج أي يزلج على وجه الارض ثم يمضي .

(٥) الهوادي هنا : الاعناق . وعقفت : عطفت وعوجت .

(٦) دالعات ألسناً : مخرجات ألسنها من أفواهها . والكوسج : الذي لحيته على ذقنه لا على عارضيه .

(٧) حوالج : جمع حالجة وهي التي تندف القطن حتى يخلص الحب منه .

(٨) خارجه : ناهضه . يريد : هل من مناهض يناهضنا في الصيد .

(٩) الزماج : جمع زمج (وزان سكر) وهو نوع من الطير يصاد بـه دون العقاب ، تغلب على لونه الحمرة .

كتب من حبسه الى المتوكل شعراً :

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

كتب علي بن الجهم الى المتوكل وهو محبوس :

صوت

أَقِلني أقالَكَ مَن لم يَزَلْ يَقيكَ ويَصرِفُ عنك الرَّدى
ويَغذوك بالنِعم السابغاتِ وليداً وذا مَيعةٍ أمرَدا
وتَجري مقاديرُه بالذي تُحِبُّ الى أن بلغتَ المَدى
ويُعليكَ حتى لَوَ انّ السماء تُنالُ لجاوزتَها مُصعِدا
فما بين رَبك جلَّ اسمُه وبينَكَ إلّا نبيُّ الهُدى
فشكراً لأنعُمِه إنّه إذا شُكِرتْ نعمةٌ جَدّدا
وعفوَكَ عن مُذنبٍ خاضعٍ قَرَنتَ المُقيمَ به المُقعِدا
إذا ادَّرع الليلَ أفضى به الى الصُبح من قبلِ أن يَرقُدا
عفا الله عنك ألا حُرمةٌ تَعوذ بفضلك أن أبعَدا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أعتمد لأنتَ أجَلُّ وأعلى يَدا
ألم تَرَ عبداً عدا طَورَه ومولًى عفا ورشيداً هدى
ومُفسِدَ أمرٍ تلافَيتَه فعاد فأصلح ما أفسدا
فلا عُدتُ أعصيك فيما أمرتَ حتى أزور الثَرى مُلحَدا
وإلّا فخالفتُ ربَّ السماء وخُنتُ الصديقَ وعِفتُ الندى
وكنتُ كقَرُونَ او كابنِ عمرو مُبيحِ العيالِ لمن أولدا
يكثّر في البيت صِبيانَه يَغيظ بهم مَعشَراً حُسَّدا

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال :

لمّا فُلجَ ابنُ أبي دُواد شَمِتَ به علي بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يَبقَ منكَ سوى خيالِك لامعاً فوق الفراش مُمَهَّداً بوسادِ
فَرِحَتْ بمصرَعِك البريّةُ كلُّها مَن كان منهم مُوقِناً بمَعاد
كم مجلسٍ لله قد عطّلتَه كي لا يُحدَّثَ فيه بالإسناد
ولَكَمْ مصابيحٍ لنا أطفأتَها حتى يزول عن الطريق الهادي
ولَكَمْ كريمةِ معشرٍ أرمَلتَها ومُحدِّثٍ أوثَقتَ في الأقياد
إن الأسارى في السُّجون تَفَرَّجوا لمّا أتتك مواكبُ العُوّاد
وغدا لمصرعِك الطبيبُ فلم يجد شيئاً لدائك حيلةَ المُرتاد
فذُقِ الهوانَ مُعَجَّلاً ومُؤَجَّلاً واللهُ رَبُّ العرشِ بالمِرصاد
لا زال فالِجُك الذي بك دائباً وفُجِعْتَ قبل الموتِ بالأولاد

شعر له غنت فيه عريب :

أنشدني عمي لابن الجهم وفيه غناء لعريب :

نَطَقَ الهوى بجوًى هو الحقُّ وملكتَني فَلْيَهْنِكَ الرِّقُّ
رِفقاً بقلبي يا معذِّبه رفقاً وليس لظالمٍ رِفق
وإذا رأيتُك لا تكلِّمني ضاقتْ عليَّ الأرضُ والأُفق

وأنشدني له وفيه غناء أيضاً ، ويقال إنه آخر شعر قاله :

يا رحمةً للغريب بالبلد النازحِ ماذا بنفسه صَنَعا
فارَقَ أحبابَه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

وقال لمغنٍّ حضر معه مَجلِساً وكان غيرَ طيِّب :

كنتُ في مجلس فقال مُغنّي القوم كم بيننا وبين الشتاء

فذَرَعتُ البساط مِنّي اليـه   قلتُ هذا المقدارُ قبل الغناء
فإذا ما عَزَمتَ أن تتغَنّى   آذَنَ الحرُ كلُّـه بانقضاء

أخبرني علي بن العبّاس بن أبي طلحة قال حدثني عبد الله بن المعتزّ قال :

لمّا حبس أميرُ المؤمنين المتوكّلُ علي بن الجهم ، وأجمع الجلساء على عداوته وإبلاغ الخليفة عنه كلّ مكروه ووصفهم مساويَه ، قال هذه القصيدةَ يمدحه ويذكّره حقوقه عليه ، وهي :

عفا الله عنك ألا حُرمةٌ   تعوذ بعفوك أن أبعَدا

ووجّه بها الى بَيدون الخادم ، فدخل بها الى قَبيحة وقال لها : إنّ علي بن الجهم قد لاذ بكِ وليس له ناصرٌ سواكِ ، وقد قصده هؤلاء النُّدماء والكُتّاب لأنه رجل من أهل السنّة وهم روافضُ ، فقد اجتمعوا على الإغراء بقتله . فدعَتِ المعتزّ وقالت له : اذهب بهذه الرُّقعة يا بُنيّ الى سيّدك وأوصلها اليه ، فجاء بها ووقف بين يَدَي أبيه . فقال له : ما معكَ فديتُك ؟ فدنا منه وقال : هذه رُقعة دفعَتْها إليَّ أمّي . فقرأها المتوكّل وضحك . ثم أقبل عليهم فقال : أصبح أبو عبد الله – فديتُه – خصمكم . هذه رقعة علي بن الجهم يستقيل[1] ، وأبو عبد الله شفيعُه ، وهو ممن لا يُرَدّ ، وقرأها عليهم . فلمّا بلغ الى قوله :

فلا عدتُ أعصيكَ فيما أمرتَ   الى أن أُحلّ الثرَى مُلحَدا
وإلّا تخالفتُ ربَّ السماء   وخُنتُ الصّديقَ وعِفتُ الندى
وكنتُ كعَزّونَ أو كابنِ عمرو   مُبيحِ العيالِ لمن أولَدا

وثب ابن حَمدون وقال للمعتزّ : يا سيّدي فمَنْ دفع هذه الرُّقعة الى السيّدة ؟ قال

(١) يستقيل : يطلب الإقالة من ذنبه والعفو عنه .

بيدون الخادم : أنا . فقالوا له : أحسنتَ ! تُعادينا وتوصل رُقعةَ عدوّنا في هجائنا ! ! فانصرف بَيدون وقام المُعتزّ فانصرف . واستلب ابنُ حمدون قوله :

وكنتُ كعَزْوُنَ أو كابن عمرو مُبيحِ العيالِ لمن أوّدا

فجعل يُنشدهم إياه وهم يشتُمون ابن حمدون ويَضِجّون والمتوكِّل يضحك ويصفِّق ويشرب حتى سكِر ونام ، وسرقوا قصيدته من بين يَديِ المتوكل وانصرفوا ، ولم يوقِّع بإطلاقه ونَسِيه . فقالوا لابن حمدون : وَيلك ! تُعيد هجاءنا وشتمنا ! ! فقال : يا حمقى والله لو لم أفعل ذلك فيضحكَ ويَشربَ حتى يَسكَر وينام لوقّع في إطلاقه ووقعنا معه في كل ما نكره .

أخبرني علي بن الحسين قال حدثني جعفر بن هارون بن زياد قال حدثني أحمد ابن حمدون قال :

لمّا افتُتِحت أرمينيةُ وقُتِل اسحاق بن اسماعيل[1] دخل علي بن الجهم فأنشد المتوكِّلَ قصيدتَه التي يُهنّيه فيها بالفتح ويمدحه ، فقال فيها وأومأ بيده الى الرسول الوارد بالفتح وبرأس إسحاق بن اسماعيل :

أهلاً وسهلاً بك من رسولِ جئتَ بما يَشفي من الغَليلِ
بجملةٍ تُغني عن التفصيلِ برأس اسحاقَ بنِ اسماعيلِ
قَهراً بلا خَتلٍ ولا تطويلِ

فاستحسن جميعُ مَن حضر ارتجاله هذا وابتداءه ، وأمر له المتوكل بثلاثين ألف درهم ، وتمم القصيدة . وفيها يقول :

جاوز نَهرَ الكُرِّ[2] بالخيول تَردي بفتيانٍ كأسدِ الغِيلِ

---

(١) هو إسحاق بن إسماعيل مولى بني أمية ، ظفر به بغا .

(٢) الكر (بضم أوله) : نهر بين أرمينية وأرّان يشق مدينة تفليس . وتردي الخيل رديا ورديانا : ترجم الحصا بحوافرها من شدة وطئها .

مُعَوَّداتٍ طلبَ الذُّحول[١] ... خُزْرُ[٢] العيون طيبي النُّصولِ
شُعثٌ على شُعثٍ من الفحول ... جيشٌ يَلُفُّ الحَزن بالسُّهول
كأنه مُعتَلِجُ[٣] السُّيولِ ... يَسوسُه كَهلٌ من الكهول
لا يَنثني للصَّعب والذَّلول ... على أغرَّ واضحِ الحُجول
حتى إذا أصحَرَ[٤] للمخذول ... ناجَزه بصارم صَقيل
ضَرباً طِلَحْفاً[٥] ليس بالقليل ... ومَنجَنيق[٦] مثلِ حَلقِ الفيل
تَرفَضُ عن خُرطومه الطويل ... صواعقٌ من حَجَر السِّجّيل[٧]
تترك كَيدَ القوم في تَضليل ... ما كان إلّا مِثلُ رَجيعِ القِيل
حتى انجلت عن حزبه المفلول ... وعن نساء حُسَّرٍ ذُهول
صوارخٍ يَعثُرْن في الذُّيول ... ثَواكلِ الأولاد والبُعُول
لا والذي يُعرَف بالعقول ... من غير تحديدٍ ولا تَمثيل
ما قام لله وللرسول ... بالدِّين والدُّنيا وبالتّنزيل

خليفةٌ كجعفر المأمول

أخبرني علي بن العبّاس قال حدثني محمد بن عبد السلام قال :

---

(١) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر .

(٢) خزر : جمع أخزر وخزراء . وخزر العين : ضيقها ، وهو كناية عن الغضب .

(٣) اعتلجت الامواج والسيول : التطمت .

(٤) أصحر : برز .

(٥) طلحفاً : شديداً .

(٦) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة . فارسي معرّب .

(٧) السجيل : حجارة كالمدر .

رأيتُ مع علي بن يحيى المنجِّم قصيدةَ علي بن الجهم يمدح المتوكل ويصف الهاروني[1]، فقلت له: يا أبا الحسن، ما هـذه القصيدة معك؟ فضحك وقال: قصيدةٌ لعلي بن الجهم سألني عرضَها على أمير المؤمنين فعرضتها. فلمّا سمع قولَه:

وقُبّةُ مُلْكٍ كأنّ النُّجو ... مَ تُصغي اليهـا بأسرارها
تخِرُّ الوفودُ لهـا سُجّداً ... إذا مـا تجلّتْ لأبصارها
وفَوّارة ثأرُهـا في السماء ... فليست تُقصِّرُ عن ثأرهـا
تَرُدُّ على المُزنِ مـا أنزلتْ ... الى الأرض من صَوب مِدرارها

تهلّل وجهه واستحسنها. فلمّا انتهيتُ الى قوله:

تبوّأتُ بعدكَ قعرَ السُّجون ... وقد كنتُ أرثي لزوّارها

غضِب وتربّد وجهه وقال: هذا بما كسبتْ يداه، ولم يسمع تمامَ القصيدة.

أخبرني علي بن العباس قال حدثني الحسين بن موسى قال:

لمّا شاع في الناس مذهب علي بن الجهم وشرُّه وذِكرُه كلَّ أحدٍ بسوء من صديقه وعدوّه تحاماه الناسُ، فخرج عن بغداد الى الشأم، فاتّفقنا في قافلةٍ الى حلب. وخرج علينا نفرٌ من الأعراب، فتسرّع اليهم قومٌ من المُقاتلة، وخرج فيهم فقاتل قتالاً شديداً وهزم الأعراب. فلمّا كان من غدٍ خرج علينا منهم خلقٌ كثير، فتسرّعت اليهم المُقاتلةُ وخرج فيهم فأصابته طعنةٌ قتلته، فجئنا به واحتملناه وهو ينزف دمُه. فلما رآني بكى وجعل يوصيني بما يريد. فقلت له: ليس عليك بأس. فلمّا أمسينا قلِق قلقاً شديداً وأحسّ بالموت، فجعل يقول:

أزيدَ في الليلِ ليـلُ ... أم سالَ بالصُّبح سَيـلُ
ذكرتُ أهـلَ دُجيلٍ[2] ... وأين مِنّي دُجيـلُ

---

(١) الهاروني: قصر قرب سامراء ينسب الى هارون الواثق بالله. وهو على دجلة بينـه وبين سامراء ميل.

(٢) دجيل: نهر مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامرا.

فأبكى كلَّ من في القافلة ، ومات مع السَّحر ، فدُفِن في ذلك المنزل على مرحلة من حَلَب .

* * *

ومن صنعة أبي عيسى بن المتوكِّل

صوت

إنِ الناسُ غطَّوني تَغطَّيتُ عنهمُ ... وإن بحثوا عنّي ففيهم مَباحثُ
وإن حفَروا بئري حَفَرتُ بئارَهم ... فسوف تَرَى ماذا تُثير النَّبائث [1]

الشعر لأبي دُلامة . والغناء لأبي عيسى بن المتوكِّل ، ولحنه ثقيلٌ أوّلُ عن المعتزّ .

(١) النبائث : جمع نبيثة ، وهي تراب البئر .

أخبار أبي دلامة ونسبه

نسبه وهو مولى لبني أسد وكان فاسد الدين متهتكاً :

أبو دُلامة زَند بن الجَون . وأكثرُ الناس يُصَحِّف اسمه فيقول « زيد » بالياء، وذلك خطأ ، وهو زَند بالنون . وهو كوفيٌّ أسودُ ، موَلى لبني أَسد . كان أبوه عبداً لرجل منهم يقال له فضافض فأعتقه . وأدركَ آخرَ أيامِ بني أميَّة ، ولم يكن له في أيّامهم نباهة ، ونبغ في أيّام بني العبَّاس ، وانقطع الى أبي عبّاس وأبي جعفر المنصور والمهدي ، فكانوا يقدِّمونه ويَصِلونه ويستطيبون مجالستَه ونوادرَه . وقد كان انقطع الى رَوح بن حاتم المهلّبي أيضاً في بعض أيامه . ولم يصِل الى أحدٍ من الشعراء ما وصل الى أبي دُلامة من المنصور خاصّةً . وكان فاسدَ الدّين ، رديءَ المذهب ، مرتكباً للمحارم ، مُضيِّعاً للفروض ، مجاهراً بذلك ، وكان يُعلَم هذا منه ويُعرَف به ، فيتجافى عنه لِلُطفِ محلِّه . وكان أوّلُ ما حُفِظ من شعره وأسنيتِ الجوائزُ له به قصيدةٌ مدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتلَه أبا مسلم . فأخبرني أحمد بن عُبَيد الله بن عَمّار قال حدثني محمد بن داود بن الجَرّاح عن محمد بن القاسم عن أحمد بن حبيبٍ قال : لمّا قال أبو دُلامةَ قصيدتَه في قتل أبي مسلم التي يقول فيها :

أبا مُسلِمٍ خوّفتني القتلَ فانتحى عليك بما خوّفتني الأسدُ الوَردُ
أبا مسلم ما غيّر الله نعمةً على عبده حتى يغيّرها العبد

أنشدها المنصورَ في مَحفِلٍ من الناس ، فقال له : احتكم . قال : عشرة آلاف درهم ، فأمر له بها . فلمّا خلا به قال له : إيهٍ ! أمَا والله لو تعدّيتَها لقتلتُك .

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن عمّار قال حدثني علي بن مُسلم عن أبيه قال: سمّى لي أبو دُلامة نفسه زَنداً (بالنون) ابنَ الجون. وأسلم مولاه فضافض، وله أيضاً شعر، وكان في الصّحابة.

أخبرني الحرَمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزُّبير بن بَكّار قال حدثني جعفر ابن الحسين المهلّبي قال:

كان أبو جعفر المنصور قد أمر أصحابه بلُبس السّواد وقلانِسَ طِوالٍ تُدعَم بعِيدانٍ من داخلها، وأن يعلّقوا السُيوفَ في المناطق، ويكتبوا على ظهورهم: (فسيَكفيكهُمُ الله وهو السّميعُ العَليمُ). فدخل عليه أبو دُلامة في هذا الزّيّ. فقال له أبو جعفر: ما حالُك؟ قال: شرُّ حالٍ، وجهي في نِصفي، وسيفي في أستي، وكتابُ الله وراء ظهري، وقد صبغت بالسّواد ثيابي. فضحك منه وأعفاه وحدَه من ذلك، وقال له: إيّاك أن يَسمع هذا منك أحد.

ونسختُ من كتابِ لابن النطّاح فذكر مِثلَ هذه القصة سواء وزاد فيها:

وكنّا نرَجي من إمامٍ زيادةً فجاد بطُولٍ زاده في القلانِس
تَراها على هامِ الرجال كأنّها دِنانُ يهودٍ جُلّلَتْ بالبرانس

فضحك منه وأعفاه.

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد النحوي قال حدثني الجاحظ قال:

كان أبو دُلامةَ بين يَدَيِ المنصور واقفاً – وأخبرني إبراهيم بن أيوب عن ابن قُتَيبة أنه كان واقفاً بين يَدَيِ السفّاح – فقال له: سَلني حاجتك. قال أبو دُلامة: كلبٌ أتصيّد به. قال: أعطوه إيّاه. قال ودابّةٌ أتصيّد عليها. قال: أعطوه. قال: وغلامٌ يَصِيد بالكلب ويقوده. قال: أعطوه غلاماً. قال: وجاريةٌ تُصلح لنا الصيد وتُطعِمنا منه. قال: أعطوه جاريةً. قال: هؤلاء يا أميرَ المؤمنين

عبيدُك فلا بُدَّ لهم من دارٍ يسكنونها . قال : أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضَيعةٌ فمن أين يعيشون ! قال : قد أعطيتُك مائةَ جَريبٍ[1] عامرةً ومائة جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نبات فيه . فقال : قد أقطعتُك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَريب غامرةً من فَيافي بني أَسد . فضحك وقال : اجعلوها كلّها عامرةً . قال : فأذَن لي أن أُقبِّل يدَك . قال : أمّا هذه فدَعها . قال : والله ما منعتَ عيالي شيئاً أقلَّ ضرراً عليهم منها . قال الجاحظ : فانظُر الى حِذقه بالمسألة ولُطفِه فيها : ابتدأ بكلب فسهَّل القصة به ، وجعل يأتي بما يليه على ترتيبٍ وفُكاهةٍ ، حتى نال ما لو سأله بديهةً لما وصل اليه .

أخبرني علي بن سليمانَ الأخفش قال حدثني السُّكَّري عن محمد بن حَبيب قال :

اسم أَبي دُلامة زَنْدٌ بالنون ، ومن الناس من يرويه بالياء ، وكُنِّيَ أبا دُلامة بإسم جبلٍ بمكة يقال له أبو دُلامة ، كانت قريش تَئِدُ فيه البناتِ في الجاهليّة ؛ وهو بأعلى مكة .

وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبَّة ، وأخبرني عمي قال حدثني الكُراني عن العُمَريّ عن الهيثم قال :

دخل أبو دُلامة على المنصور فأنشده قصيدتَه التي يقول فيها :

إنّ الخليطَ أجدَّ البينَ فانتجعوا ... وزوّدوكَ خَبالًا بئس ما صنعوا

والله يعلم أنْ كادت لِبَينهم ... يومَ الفراق حَصاةُ القلب تَنصَدع

عجبتُ من صِبيتي يوماً وأُمِّهمُ ... أمِّ الدُّلامةِ لمّا هاجها الجَزَع

لا بارك الله فيها من مُنبِّهةٍ ... هبَّتْ تَلوم عيالي بعد ما هَجعوا

ونحن مُشتبِهو الألوان أوجهُنا ... سُودٌ قِباحٌ وفي أسمائنا شَنَع

(١) الجريب من الأرض : ثلاثة آلاف وستائة ذراع .

اذا تَشكّتْ إليَّ الجوعَ قلتُ لها ما هاج جُوعَكِ إلّا الرّيُّ والشّبع

— ويُروَى وهو الجيّد :

أذابَكِ الجوعُ مُذ صارت عيالتُنا على الخليفة منه الرّيُّ والشّبَعُ —
لا والذي يا أميرَ المؤمنين قَضى لكَ الخلافةَ في أسبابها الرِّفَع
ما زِلتُ أُخلِصُها كسبي فتأكلُه دوني ودون عيالي ثم تضطجع
شَوهاءُ مَشنَأةٌ في بطنها ثَجَلُ وفي المفاصل من أوصالها فَدَع [1]
ذكّرتُها بكتاب الله حُرمتنا ولم تكن بكتاب الله تَنتفع
فاخرَنطمَت [2] ثم قالت وهي مُغضَبَةٌ أأنت تتلو كتابَ الله يا لُكَع
اخرُج لِتَبغِ لنا مالًا ومَزرَعةً كما لجيراننا مالٌ ومُزدَرَع
وأخدَع خليفتَنا عنها بمسألةٍ إنّ الخليفة للسُّؤّال ينخدع

فضحك أبو جعفر وقال : أرضوها عنّي واكتبوا له بمائتي جَريب عامرة ومائتي جريب غامرة — وقال الهيثم : بستمائة جَريب عامرة وغامرة — فقال له : أنا أُقطِعك يا أمير المؤمنين أربعةَ آلاف جَريب غامرة فيما بين الحيرة والنّجَف ، وإن شئتَ زِدتُك . فضحك وقال : اجعلوها كلّها عامرة .

حدثني محمد بن أحمد بن الطّلّاس قال حدثنا أحمد بن الحارث الخرّاز عن المدائني قال :

شهد أبو دُلامة بشهادة لجارة له عندَ ابن أبي ليلى [3] على أتانٍ نازعها فيها

(١) الثجل : عظم البطن واسترخاؤه . والفدع : الاعوجاج .

(٢) اخرنطمت : رفعت أنفها واستكبرت وغضبت.

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة . أوّل من استقضاه على الكوفة يوسف بن عمر الثقفي واستقضاه بعد ذلك بنو العباس .

رجل . فلمّا فرغ من الشهادة قال : اسمع ما قلتُ فيك قبل أن آتيك ثم اقضِ ما شئتَ . قال : هات ؛ فأنشده :

إن الناسُ غطَّوْني تغطَّيتُ عنهمُ   وإن بحثوا عنّي ففيهم مَباحِثُ
وإن حفَروا بئْري حفرتُ بئارَهم   ليُعلمَ يوماً كيف تلك النبائث

ثم أقبل على المرأة فقال : أتبيعينَني الأتان ؟ قالت نعم . قال : بكم ؟ قالت : بمائة درهم . قال : ادفعوها اليها ففعلوا . وأقبل على الرجل فقال : قد وهبتُها لك ، وقال لأبي دلامة : قد أمضيتُ شهادتَك ولم أبحث عنك ، وابتعتُ ممن شهدتَ له ، ووهبتُ مِلكي لمن رأيتُ . أرَضيتَ ؟ قال نعم ، وانصرف .

أخبرني الحسن بن علي الخفّاف قال حدثنا أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة قال حدثنا محمد بن سلّام عن علي بن اسماعيل قال :

كنتُ أسقي أبا دلامة والسيّد ، إذ خرجت بنتٌ لأبي دلامة ، فقال فيها أبو دلامة :

فما ولدتكِ مريمُ أمُّ عيسى   ولا ربّاكِ لُقمانُ الحكيمُ

أجِزْ يا أبا هاشم ، فقال السيّد :

ولكن قد تضُمُّكِ أمُّ سوء   الى لَبّاتها وأبٌ لئيمُ

فضحك لذلك . ثم غدا أبو دلامة الى المنصور فألفاه في الرّحبة يُصلح فيها شيئاً يريده ، فأخبره بقصة بنته وأنشده البيتين ، ثم اندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقعُد فوق الشمس من كَرَمٍ   قومٌ لقيل اقعدوا يا آل عبّاس
ثم ارتقُوا في شُعاع الشمس كلُّكم   الى السماء فأنتم أطهرُ الناس
وقدِّموا القائمَ المنصورَ رأسَكم   فالعينُ والأنف والأذنان في الراس

فأستحسنها ، وقال له : بأيّ شيء تحبُّ أن أُعِينَك على قُبح ٱبنتِك هذه ؟ فأخرج خريطةً قد كان خاطها من الليل فقال : تملأْ لي هـذه دراهم ، فمُلِئتْ فوسعتْ أربعةَ آلاف درهم .

وقد أخبرني بهذا الخبر عمي قال حدثنا الكُرانيّ قال حدثنا العُمَريّ عن الهيثم ابن عدِيّ قال :

دخل أبو عَطاء السِّنديّ يوماً الى أبي دلامة فأحتبسه عنده ، ودعا بطعام فأكلا وشبِعا ، وخرجتْ الى أبي دلامة صبيَّةٌ له فحملها على كتفه ، فبالت عليه فنبذها عن كتفه ، ثم قال :

بَلَلتِ عليّ — لا حُيّيتِ — ثوبي فبال عليـكِ شيطانٌ رجيمُ
فما ولَدَتـكِ مريمُ أمُّ عيسى ولا ربَّاكِ لُقمانُ الحكيم

ثم التفت الى أبي عطاء فقال له : أجِزْ . فقال :

صدقتَ أبا دلامة لم تلِدها مُطَهَّرةٌ ولا فحـلٌ كريمُ
ولكن قد حوَتها أمُّ سَوء الى لَبَّاتِهـا وأبٌ لئيم

فقال له أبو دلامة : عليك لعنةُ الله ! ما حملكَ على أن بلغتَ بي هذا كلَّه ! والله لا أنازعك بيتَ شعرٍ أبداً . فقال أبو عَطاء : لأَن يكونَ الحربُ من جهتك أحبُّ إليّ .

أخبرني محمد بن يحيي قال حدثني عبد الله بن المعتزّ قال حـدثني أبو مالك عبد الله بن محمد قال حدثني أبي قال :

لمَّا تُوفي أبو العبَّاس السفَّاح دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يُعَزُّونه؛ فأنشأ أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأنبار يابنَ محمدٍ لم تستطع عن عُقرها تحويلا
وَيلي عليك وويل أهلي كلِّهم ويلًا وعَولًا في الحياة طويلا
فَلتبكيَنَّ لـك النساءُ بعَبرةٍ وليبكيَنَّ لك الرجال عَويلا
مات النَّدى إذ مُتَّ يابن محمد فجعلتَه لك في الثراء عديلا
إنّي سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم فوجدتُ أسمحَ مَن سألتُ بخيلا
ألِشقوتي أُخرتُ بعدَك للتي تدَعُ العزيزَ من الرجال ذليلا
فلأحلِفَنَّ يمينَ حقٍّ برَّةً بالله ما أُعطيتُ بعدَك سُولا [1]

قال: فأبكى الناسَ قولُه. فغضِب المنصورُ غضباً شديداً وقال: لئن سمعتُك تُنشِدُ هذه القصيدةَ لأقطعنّ لسانك. فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين، إنّ أبا العبّاس أميرَ المؤمنين كان لي مُكرِماً وهو الذي جاء بي من البَدْو كما جاء الله بإخوة يوسف اليه، فقل كما قال يوسف لإخوته: (لا تَثريبَ عليكم اليومَ يَغفِرُ الله لكم وهو أرحمُ الرّاحمين). فسُرّيَ عن المنصور وقال: قد أقلناك يا أبا دلامة، فسَلْ حاجتَك. فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العبّاس أمرَ لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبِضها. فقال المنصور: ومَن يعرِف هذا؟ فقال: هؤلاء، وأشار الى جماعة ممن حضَر. فوثب سليمانُ بن مُجالد وأبو الجهم فقالا: صدَق أبو دلامة، نحن نعلم ذلك. فقال المنصور لأبي أيّوب الخازن وهو مَغيظ: يا سليمانُ أدفَعها اليه وسيِّرْه الى هذا الطاغية (يعني عبد الله بن علي[2]، وقد كان خرج بناحية الشام، وأظهر الخلافَ). فوثب أبو دلامة فقال: يا أمير المؤمنين، إني أُعيذُك بالله أن أخرج معهم، فوالله إني لمشئوم. فقال المنصور: امضِ فإن يُمني يَغلِب شُؤمَك فاخرُج. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أُحِبُّ

(١) السول: ما سأله.

(٢) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور.

لك أن تجرّب ذلك منّي على مثل هذا العسكر ؛ فإني لا أدري أيُّهما يَغلِب : أيُمنُك أم شؤمي ، إلا أني بنفسي أوثَقُ وأعرَفُ وأطولُ تجربةً . قال : دَعني من هذا فما لك من الخروج بدّ . فقال : إني أصدُقُكَ الآن ، شَهدتُ والله تسعةَ عشر عسكراً كلّها هُزِمتْ ؛ وكنتُ سببها . فإن شئتَ الآنَ على بَصيرةٍ أن يكون عسكرُكَ العشرين فافعَل . فاستغرب[1] أبو جعفر ضحِكاً ، وأمره أن يتخلّف مع عيسى[2] بن موسى بالكوفة .

أخبرني عمي قال حدثنا الكُرانيّ قال حدثني العُمَريّ عن الهيثم بن عَديّ قال :

لمّا مات أبو العبّاس السفّاح ووليَ المنصورُ ، دخل عليه أبو دلامةَ ، فقال له أبو جعفر : ألستَ القائلَ لأبي العبّاس :

وكنّا بالخليفة قد عَقَدنا ... لواءَ الأمر فانتَقض اللـواءُ
فنحن رَعِيّةٌ هَلَكتْ ضَياعاً ... تَسوق بنا الى الفِتَن الرِّعاءُ

قال : ما قلت هذا يا أمير المؤمنين . قال : كذبتَ والله ! أفلستَ القائل :

هلَكَ النّدى إذ بِنتَ يابن محمدٍ ... فجعلتَه لك في التراب عَديلا
ولقد سألتُ الناسَ بعدَكَ كلّهم ... فوجدتُ أكرمَ مَن سألتُ بخيلا
ولقد حَلفتُ على يمينٍ بَرّةٍ ... بالله ما أُعطِيتُ بعدَكَ سُولا

فقال أبو دلامة : إنّ أخاك صلّى الله عليه غلبني على صبري ، وسلبني عزيمتي ، وعَزّني بإحسانه إليّ وجزعي عليه ، فقلت ما لم أتأمله ، وإني أرغب في الثمن فأستَفرَهَ السِّلعة حيّاً وميّتاً . فإن أعطَيتَ ما أعطى ، أخذتَ ما أخذ . فأمر به فحُبِس ثلاثاً ثم خَلّى سبيله ودعاه اليه فوصله ، ثم عاد له الى ما كان عليه .

---

(١) أي أكثر من الضحك وبالغ فيه :

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي الهاشمي العباسي أمير الكوفة .

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني أحمد بن سعيد الدِّمَشقي قال حدثني أبو دلامة قال:

أُتي بي المنصورُ أو المهديُّ وأنا سكران، فحلف ليُخرِجَنّي في بَعثِ حربٍ، فأخرجني مع رَوح بن حاتم[1] المهلّبي لقتال الشُّراةِ[2]. فلما التقى الجمعان قلت لرَوح: أَما والله لو أنّ تحتي فرسك ومعي سلاحك لأثّرتُ في عدوك اليوم أثراً ترتضيه. فضحك وقال: والله العظيم لأدفعنّ ذلك اليك، ولآخذنّك بالوفاء بشرطك. ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إليّ، ودعا بغيرهما فاستبدل به. فلما حصَل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع، قلت له: أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت بيتين فاسمعهما. قال: هاتِ، فأنشدته:

إني استجرتُك أن أقدِّم في الوغى لِتطاعُنٍ وتَنازُلٍ وضِرابِ
فهَبِ السُّيوفَ رأيتُها مشهورةً فتركتُها ومَضيتُ في الهُرّابِ
ماذا تقول لما يجيء وما يُرى من واردات الموت في النُّشّابِ

فقال: دع عنك هذا وستعلم. وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة، فقال: اخرج اليه يا أبا دلامة. فقلت: أنشُدكَ اللهَ أيُّها الأمير في دمي. قال: والله لتخرُجنّ. فقلت: أيها الأمير فإنه أوّل يوم من الآخرة وآخرُ يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما شَبِعَتْ مني جارحةٌ من الجوع، فمُرْ لي بشيء آكله ثم أخرُج. فأمر لي برغيفين ودجاجة، فأخذتُ ذلك وبرزتُ عن الصفّ. فلما رآني الشاري أقبل نحوي عليه فَروٌ وقد أصابه المطرُ فابتلّ، وأصابته الشمس فاقفعلّ[3] وعيناه

(١) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة، ولي إفريقية والبصرة وغيرهما.

(٢) الشراة: الخوارج.

(٣) اقفعل: تقبض.

تَقِدان ، فأسرع إليَّ . فقلت له : على رِسلك يا هذا كما أنت ، فوقف . فقلت : أتقتل مَن لا يُقاتلك ؟ قال لا . قلت : أتقتل رجلًا على دِينك ؟ قال لا . قلت : أفتستحِلُ ذلك قبل أن تدعو مَن تقاتله الى دينك ؟ قال : لا ، فأذهب عنّي الى لعنة الله . قلت : لا أفعل أو تسمعَ منّي . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ او تِرَةٌ ، و تعرفني بحالٍ تُحفِظك عليَّ ، او تعلم بين أهلي وأهلك وِتراً ؟ قال : لا والله . قلت : ولا أنا والله لك إلا جميل الرأي ، واني لأهواك وأنتحل مذهبك وأدِين دينَك وأريد السُوء لمن اراد لك . قال : يا هذا جزاك الله خيراً فأنصرِف . قلت : إنّ معي زاداً أُحِبُّ أن آكله معــك ، وأُحِبُّ مُواكلتَك لتتوكّدَ المودّةُ بيننا ، ويرى أهلُ العسكر هوانَهم علينا . قال : فأفعل . فتقدّمتُ اليه حتى اختلفتْ أعناقُ دوابّنا وجمعنا أرجلَنا على مَعارفها والناس قــد غُلِبوا ضَحِكاً . فلمّا أستوفَينا ودّعني . ثم قلت له : إنّ هذا الجاهلَ إن أقمتَ على طلب المبارزة ندَبني اليك فتُتعِبُني وتَتعَبُ . فإن رأيتَ ألا تبرزُ اليوم فافعل . قال : قد فعلتُ ، ثم أنصرف وأنصرفتُ . فقلت لرَوح : أمّا أنا فقد كفَيتُك قِرْني فقل لغيري أن يَكفِيَك قِرنَه كما كفَيتُك ، فأمسك . وخرج آخر يدعو الى البراز ، فقال لي : اخرج اليه . فقلت :

إني أُعوذُ برَوحٍ أن يقدِّمني ... الى البراز فتخزى بي بنو أسَدِ
إنّ البرازَ الى الأقران أعلمُه ... مما يفرّق بين الروح والجسد
قد حالفتْك المنايا اذ صَمَدْتَ لها ... وأصبحتْ لجميع الخلق بالرَّصَد
إنّ المهلّبَ حُبُّ الموت أورثكم ... وماورِثتُ أختيارَ الموت عن أحد
لو أنّ لي مهجةً أخرى لجدتُ بها ... لكنها خُلِقتْ فرداً فلم أَجد

فضحك وأعفاني :

أخبرني ابراهيم بن أيوب عن ابن قُتَيبة قال قال أبو دلامة :

كنتُ في عسكر مروانَ[١] أيام زَحف الى سِنانٍ الخارجيّ. فلمّا التقى الزَّحفان خرج منهم رجلٌ فنادى: مَن يبارز! فلم يخرج اليه أحدٌ إلّا أعجله ولم يُنَهنِهه[٢]. فغاظ ذلك مروانَ وجعل يندُب الناس على خمسمائة، فقُتِل أصحابُ الخمسمائة، فزاد مروانُ وندبهم على ألفٍ، ولم يزل يَزيدهم حتى بلغ خمسةَ آلاف درهم. وكان تحتي فرس لا أخاف خَونَه؛ فلمّا سمعتُ بالخمسة آلاف ترقّبته[٣] واقتحمتُ الصّفّ. فلمّا نظرني الخارجيُّ علِم أني خرجتُ للطمع؛ فأقبل إليّ مُتهيّئاً واذا عليه فَروٌ قد أصابه المطر فابتلّ، ثم أصابته الشمسُ فاقفعلّ، وإذا عيناه تَقِدانِ كأنّهما من غورها في وَقبَين[٤]. فلمّا دنا منّي أنشأ يقول:

وخارجٍ أخرجه حُبُّ الطّمَعْ فَرّ من الموت وفي الموت وَقَعْ
مَن كان يَنوي أهله فلا رَجَعْ

فلمّا وقرتْ في أذُني انصرفتُ عنه هارباً. وجعل مروانُ يقول: مَن هذا الفاضحُ؟ ايتوني به، فدخلتُ في غِمار الناس فنجَوتُ.

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني أحمد بن سعيد قال حدثنا الزُّبير قال حدثنا جعفر بن الحُسين اللِهبيّ قال:

عزم موسى بن داود بن عليّ الهاشميّ[٥] على الحج. فقال لأبي دلامة: احجج

---

(١) يعني مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

(٢) نهنهه: كفه وزجره.

(٣) ترقبته: رصدته.

(٤) الوقب هنا: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء.

(٥) هو ابن عم السفاح، كان أبوه داود أمير مكة والمدينة.

معي ولك عشرةُ آلاف درهم . فقال : هاتِها ؛ فدُفعتْ اليه ، فأخذها وهرب الى السَّواد ، فجعل يُنفِقها هناك ويَشرَب بها الخمر . فطلبه موسى فلم يقدِر عليه ، وخشِي فَوتَ الحج فخرج . فلما شارف القادسيَّةَ اذا هو بأبي دلامة خارجاً من قرية الى أخرى وهو سكرانُ ، فأمر بأخذه وتقييده وطَرحِه في مَحمِلٍ بين يديه ففعِل ذلك به . فلمَّا سار غيرَ بعيد أقبل على موسى وناداه :

يأيها الناسُ قولوا أجمعون معاً صلَّى الإلهُ على موسى بن داود
كأنَّ دِيباجتَيْ خدَّيه من ذهبٍ إذا بدا لك في أثوابه السُّود
إنِّي أعوذ بداودٍ وأعظُمِه من أن أُكلَّف حجًا يابن داود
خُبِّرتُ أنَّ طريقَ الحجِّ مَعطَشَةٌ من الشراب وما شُربي بتَصريد [1]
واللهِ ما فيَّ من أجرٍ فتطلبه ولا الثناءُ على ديني بمحمود

فقال موسى : ألقُوه لعنه اللهُ عن المَحمِل ودعوه ينصرفُ ، فأُلقيَ وعاد الى قَصفه بالسَّواد ، حتى نَفِدتِ العشرةُ آلافِ درهم .

أخبرني الحرميّ بن أبي العلاء قال حدثنا الزُّبَير عن جعفر بن الحسين اللِّهبيّ ، وأخبرني عمي عن الكُرانيّ عن العُمَري عن الهيثم بن عَديّ قالا :

قال أبو أيوب المُوريانيّ لأبي جعفر ، وكان يَشنأ أبا دلامةَ ، : إنّ أبا دلامة معتكفٌ على الخمر فما يحضُر صلاةً ولا مسجداً ، وقد أفسد فِتيانَ العسكر . فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرتَ فيه وفي غيره من فِتيان عسكرك بقَطعِه عنهم . فلمَّا دخل عليه أبو دلامة قال له : يابنَ اللَّخناء ، ما هذا المجون الذي يبلغني عنك ! قال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين ما أنا والمجونَ وقد شارفتُ بابَ قبري ! قال : دعني من أستكانتك وتَضرُّعك ، وإيَّاك أن تفوتَك صلاةُ الظهرِ والعصر في مسجدي .

---

(١) صرد شربه : قطعه .

فلئن فاتتاكَ لأُحسِنَنَّ أدبك ولأُطيلنَّ حبسَك . فوقع في شرّ ولزِمِ المسجدَ أيّاماً ، ثم كتب قِصَّتَه ودفعها الى المهدي فأوصلها الى أبيه ، وكان فيها :

ألم تعلما أنَّ الخليفةَ لزَّني[١] بمسجده والقصرِ ما لي وللقصر !
أُصلي به الأُولى جميعاً وعصرَها فوَيلي من الأُولى ووَيلي من العصر
أُصلّيها بالكُرْهِ في غير مسجدي فمالِيَ في الأُولى ولا العصرِ من أجر
لقد كان في قومي مساجدُ جَمَّةٌ سواه ولكن كان قَدراً من القَدر
يكلّفني من بعد ما شِبتُ خُطّةً يَحُطُّ بها عنّي الثقيلَ من الوِزر
وما ضرَّه والله يغفر ذنبَه لَوَ انَّ ذنوبَ العالمين على ظهري

قال : فلمّا قرأ المنصور قصّتَه ضحك وأعفاه من الحضور معه ، وأحلفه أن يُصلّيَ الصلاة في مسجد قبيلته .

أخبرنا محمد بن العبّاس اليزيدي قال حدثنا أحمد بن سعيد عن الزُّبير عن عمّه ، ونسختُ من بعض الكتب عن نصر بن محمد الخَزّاز عن أبيه عن الهيثم بن عَديّ ورَوَانيه بعضُ من روى عن الزبير .

أنّ أبا جعفر كان يُحِبُّ العَبَثَ بأبي دُلامة — وقال الآخر : إنّ أبا العبّاس السَّفّاح كان يحب ذلك — فكان يسأل عنه فيوجَد في بيوت الخَمّارين لا فَضلَ فيه . فعاتبه على انقطاعه عنه ؛ فقال : إنما أفعل ذلك خوفاً أن تَملّني . فعلم أنه يُحاجِزُه[٢] ، فأمر الربيعَ أن يوكِّل به من يَحضِره الصلواتِ معه في جماعةٍ في الدار . فلمّا طال ذلك عليه قال :

ألم تَرَيَا أنّ الخليفةَ لزّني بمسجده والقصرِ ما لي وللقصر !
فقد صَدَّني عن مسجدٍ أستَلِذُّه أُعلَّلُ فيه بالسَّماع وبالخمر

(١) لزه بكذا : ألزمه اياه .

(٢) يعني : يتخلص منه وينتحل المعاذير الباطلة لانقطاعه عنه .

وكلّفني الأُولى جميعاً وعصرَهــا فويلي من الأُولى وعَولي من العصر
أُصلّيهما بالكرهِ في غير مسجدي فما لي من الأُولى ولا العصر من أجر
يكلّفني من بعد ما شِبتُ تَوبَةً يَحُطُّ بها عنّي المثاقيل من وِزري
لقد كان في قومي مساجدُ جَمّةٌ ولم ينشرح يوماً لغِشيانها صدري
وواللهِ ما لي نِيَّةٌ في صلاتــه ولا البِرُّ والإحسانُ والخير من أمري
وما ضَرّهُ واللهُ يغفر ذنبَــه لَوَ انّ ذنوبَ العالمين على ظَهري

فبلغته الأبيات فقال: صدَق! ما يَضُرُّني ذلك، واللهِ لا يصلح هذا أبداً، فدَعوه يعمل ما يشاء. وقال الهيثم في خبره: فقال له أبو جعفر: قد أعفَيناك من هذه الحال، ولكن على ألّا تَدَعَ القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظلّ[1]. فقال: أفعَلُ. قال: إنك إن تأخّرتَ لشُرْب الخمر عَلِمتُ ذلك. وواللهِ لئن فعلتَ لأُحدّنّك. فقال أبو دلامة: البليّةُ في شهر أصلحُ منهــا في طول الدهر، سمعاً وطاعةً. فلمّا حضَر شهرُ رمضان لزم المسجدَ. وكان المهدي يبعث اليه في كل ليلة حَرَسيّاً يجيء به؛ فشقّ ذلك عليه، وفزع الى الخَيزُران وأبي عُبَيد الله[2] وكل مَن كان ياوذ بالمهدي ليشفَعوا له في الإعفاء من القيام، فلم يُجبهم. فقال له أبو عُبَيد الله: الدّالُّ على الخير كفاعله، فكيف شُكرُك؟ قال: أتمّ شكر. قال: عليك برَيطة[3] فإنّه لا يخالفها. قال: صدَقتَ والله، ثم رفَع اليها رُقعةً يقول فيها:

أبلغا رَيطَــةَ أنّي كنتُ عبــداً لأبيها
فمضى يرحمــه اللّــــه وأوصى بي اليها

(١) أظل: غشا وأشرف وأقبل.

(٢) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الكاتب الوزير.

(٣) ريطة: هي ابنة الخليفة أبي العباس السفاح وزوجة المهدي.

وأراهـا نَسِيَتني مِثْـلَ نسيانِ أخيها
جاء شهر الصَّوم يمشي مِشْيَةً مـا أشتهيها
قائداً لي ليلةَ القَـدْرِ كأنّي أبتغيهـا
تنطَـحُ القبلةَ شهراً جبهَـتي لا تأتليها
ولقـد عشتُ زماناً في فيـافيَّ وجيها
في ليـالٍ من شتاء كنت شيخاً أصطليهـا
قاعداً أُوقِـدُ ناراً لِضِبابٍ أشتويهـا
وصَبوحٍ وغَبـوقٍ في عِلابٍ[1] أحتسيها
ما أبالي ليلةَ القَـدْرِ ولا تُسعِفينيهـا
فأطلـبي لي فرجاً منـــها وأجري لكِ فيهـا

فلمّا قرأتِ الرُّقعةَ ضحكت وأرسلت اليه : اصطبر حتى تمضيَ ليلةُ القَدر . فكتب اليها : إني لم أسألكِ أن تكلّميه في إعفائي عاماً قابلاً ؛ واذا مضت ليلة القدر فقد فنِيَ الشهرُ . وكتب تحتها أبياتاً :

خافي إلٰهكِ في نفسٍ قد أحتُضِرَتْ قامت قيامتهـا بين المصلّينا
ما ليلةُ القَدرِ من همّي فأطلُبَهـا إني أخـاف المنايا قبل عشرينا
يا ليلةَ القدرِ قد كَسَّرْتِ أرجُلنا يا ليلةَ القـدر حقّاً ما تمنّينا ! ؟
لا بارك الله في خـيرٍ أؤمّله في ليلةٍ بعد ما قمنـا ثلاثينا

فلمّا قرأتِ الأبيات ضحكتْ ، ودخلت الى المهدي فشفَعتْ له اليه ، وأنشدته الشعرين ، فضحك حتى أستلقى ، ودعا به وربَيطةُ معه في الحَجلَة[2] فدخل ؛ فأخرج

---

(١) العلاب : جمع علبة وهي قدح ضخم من جلود الإبل أو هي قدح من خشب .

(٢) الحجلة : بيت يزين بالثياب والأسرّة والستور .

رأسه اليه وقال : قد شفَّعنا رَيطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم . فقال : أمَّا شفاعةُ سيِّدتي فيَّ حتى أعفَيتَني فأعفاها الله من النار . وأمَّا السبعة الآلاف فما أعجبني ما فعلته ؛ إمَّا أن تُتِمَّها بثلاثة آلاف فتصيرَ عشرةً ، أو تَنقُصَني منهـا ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أُحسِنُ حسابَ السبعة . فقال : قد جعلتُها خمسة . قال : أُعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنتَ أنتَ . فعبِث به المهديُّ ساعةً ثم تكلَّمتْ فيه رَيطة فأتمها له عشرةَ آلافِ درهم .

أخبرني الحسين بن علي عن حَمَّاد عن أبيه قال :

مرَّ أبو دلامة بنَخَّاس يَبيع الرقيقَ ، فرأى عنده منهنَّ من كل شيء حَسَن ، فانصرف مهموماً ، فدخل الى المهدي فأنشده :

إن كنتَ تَبغي العيشَ حُلواً صافياً فالشعرَ أَغرِبـه وكن نَخَّاسا
تَنَلِ الطَّرائفَ من ظِراف نُهَّـدٍ يُحدِثنَ كلَّ عَشيَّةٍ أعراسا
والربحُ فيما بين ذلـك راهنٌ سَمحاً ببيعك كنتَ أو مكَّاسا[1]
دارتْ على الشعراء حِرْفةُ نَوبةٍ فتجرَّعوا من بعـد كأسٍ كاسا
وتَسربَلوا قُمُصَ الكَسادِ فحاوِلوا بالنَّخْس كَسباً يُذهِب الإفلاسا

فجعل المهدي يضحك منه .

لفق رؤياً للمنصور وأخذ منه ثياباً :

نسختُ من كتاب ابن النطَّاح قال :

دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده :

رأيتُك في المنام كسوتَ جِلدي ثياباً جَمَّـةً وقضَيتَ دَيني

(١) مكس في البيع يمكس : نقص الثمن . والمراد هنا المشاحة في البيع والشراء .

فكان بَنفسجيُّ الخزِّ فيها وساجٌ[1] ناعمٌ فأتمَّ زَيني
فصدِّق يا فَدَتك النفس رؤيا رأتها في المنام كذاك عيني

فأمر له بذلك وقال له : لا تَعُدْ أن تتحلَّم عليَّ ثانيةً ، فأجعلَ حلمك أضغاثاً ولا أحقِّقه .

حبسه المنصور لسكره فبعث له من الحبس شعراً فعفا عنه :

ثم خرج من عنده ومضى فشرب في بعض الحانات فسكر وانصرف وهو يميل . فلقيه العَسَسُ فأخذوه ، وقيل له : من أنت وما دينُك ؟ فقال :

ديني على دين بني العبَّاسِ ما خُتِم الطينُ على القِرطاسِ
إنّي اصطبحتُ أربعاً بالكاسِ فقد أدار شُربُها براسي
فهل بما قلتُ لكم من باسِ

فأخذوه ومَضوا ، وخرقوا ثيابه وساجه وأُتيَ به أبو جعفر – وكان يؤتَى بكلِّ مَن أخذه العَسَسُ – فحبسه مع الدَّجاج في بيت . فلمّا أفاق جعل ينادي غلامَه مرَّةً وجاريتَه أخرى فلا يجيبه أحد ، وهو في ذلك يسمع صوتَ الدَّجاج وزُقاء الدُّيوك . فلمّا أكثر قال له السَّجّان : ما شأنك ؟ قال : وَيلك مَن أنتَ وأين أنا ؟ قال : في الحبس ، وأنا فلان السَّجّانُ . قال : ومَن حبَسني ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومَن خرَق طيلساني ؟ قال : الحرَس . فطلب منه أن يأتيه بدواةٍ وقرطاس ففعل ، فكتب الى أبي جعفر :

أميرَ المؤمنين فدَتك نفسي عَلامَ حبستَني وخرَقتَ ساجي
أمِنْ صَفراءَ صافيةِ المِزاجِ كأنَّ شُعاعها لَهبُ السِّراج

---

(١) الساج : الطيلسان الأخضر .

وقد طُبِخَتْ بنار الله حتى | لقد صارت من النُّطَفِ[1] النِّضاجِ
تَهَشُّ لها القلوب وتشتهيها | اذا بَرَزَتْ تَرَقْرَقُ[2] في الزُّجاج
أقاد الى السُّجون بغير جُرْمٍ | كأنّي بعضُ عُمّالِ الخَراج
ولو معهم حُبِستُ لكان سهلاً | ولكنّي حُبِستُ مع الدَّجاج
وقد كانت تُخَبِّرُني ذنوبي | بأني من عِقابك غيرُ ناجي
على أنّي وإن لاقيتُ شرّاً | لخيرك بعد ذاك الشرِّ راجي

فدعا به وقال : أين حُبِستَ يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدَّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقي معهنَّ حتى أصبحتُ . فضحِك وخَلّى سبيله وأمر له بجائزة . فلمّا خرج قال له الرّبيع : إنه شرِب الخمرَ يا أمير المؤمنين . أمَا سمعتَ قوله « قد طبخت بنار الله » (يعني الشمس) . فأمر بردّه ثم قال : يا خبيث شربتَ الخمرَ ؟ قال لا . قال : أفلم تقل « طُبِخَتْ بنار الله » تعني الشمس . قال : لا والله ما عنَيتُ إلّا نارَ الله المُوقَدة التي تَطّلِعُ على فؤاد الرّبيع . فضحك وقال : خُذْها يا ربيع ولا تعاود التعرّضَ .

لفق رؤيا لتمّار وأخذ منه تمراً :

قال ابن النطّاح : ومرّ أبو دلامة بتمّار بالكوفة فقال له :

رأيتُك أطعمتني في المنامِ | قَواصرَ[3] من تمرِك البارحهْ
فأمُّ العيال وصِبيانُها | الى الباب أعينُهم طامحه

فأعطاه جُلّتَيْ[4] تمر وقال له : إن رأيتَ هذه الرؤيا ثانيةً لم يَصِحَّ تفسيرُها . فأخذهما وانصرف .

---

(١) النطفة : الماء الصافي قل او كثر .

(٢) ترقرق : تلألأ أي تجيء وتذهب .

(٣) قواصر : واحدها قوصرة ، وهي وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البواري .

(٤) الجلة (بالضم) : قفة كبيرة للتمر .

وقال ابن النطّاح :

لمّا قدِم المهديّ من الرّيّ دخل عليه أبو دلامةَ فأنشأ يقول :

إني نذرتُ لئن رأيتُك سالمًا بقُرَى العراق وأنت ذو وَفْرِ
لتُصَلِّيَنَّ على النبيّ محمّدٍ ولتملأنَّ دراهمًا حِجري

فقال : صلى الله عليه وسلم ، وأمّا الدراهم فلا . فقال له : أنت أكرمُ من أن تُفرِّق بينهما ثم تختارَ أسهلها . فأمر بأن يُملأ حِجرُه دراهم .

ومِثلُ هذا وإن لم يكن منه ما حدثني به الحسنُ بن عليّ عن أحمد بن الحارث عن المدائنيّ قال :

قدِم المهلّبُ من بعض غَزَواته، فلقيَتْه عجوزٌ من الأزد فقالت : أيها الأمير، أسألك بالله والرّحم إلّا وقفتَ فوقَف . فدنَتْ وقبّلت يدَه وقالت : هذا نَذرٌ كان عليّ ، إني نذرتُ عليّ لله أن أقبِّل يدك إن قدمتَ سالمًا وتَهَبَ لي أربعمائة درهم وجاريةً صُغدِيّةً تخدُمني . فضحك وقال : أمّا نحن فقد وَفَّينا بنَذرِك ؛ ادفعوا اليها ذلك ، وإيّاكِ يا أُمّاه وهذه النُّذورَ ؛ فليس كلُّ أحد يَفِي لكِ بها ويَنشَط لتحليلكِ منها .

قال ابن النطّاح :

وصام الناس في سنة شديدة الحرّ على عهد المهديّ ، وكان أبو دلامة يتنجَّزُ جائزةً أمر له المهديّ بها . فكتب اليه أبو دلامة رُقعةً يشكو فيها أذى الحرّ والصوم وهي :

أدعوك بالرّحم التي هي جَمَّعتْ في القُرب بين قريبنا والأبعَدِ
إلّا سمعتَ وأنت أكرمُ مَن مَشى من مُنشِدٍ يرجو جزاءَ المُنشد
جاء الصيامُ فصُمتُه متعبِّداً أرجو رجاءَ الصائم المتعبِّد

ولَقيتُ من أمر الصيام وحَرِّه أمرين قِيسا بالعذاب المؤصَدِ[1]
وسجدتُ حتى جَبهَتي مشجوجةٌ مما يُناطحني الحصا في المسجد
فامْنُنْ بتسريحي بعطلك بالذي أسلفتَنيه من البلاء المُرصَد

فلمّا قرأ المهدي رُقعته غضب وقال : يا عاضّ كذا من أمّه أيُّ قرابةٍ بيني وبينكَ ؟! قال : رَحِمُ آدمَ وحوّاء ، أنسيتَها يا أميرَ المؤمنين ! فضحك وقال : لا والله ما نسيتُها ؛ وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه . وأخبرني بهذا الخبر الحسن بن علي قال حدثنا الخُزاعيّ عن المدائنيّ وزاد فيه قال : وأنشده أيضاً في ذمّ الصَّوم .

هل في البلاد لرزق الله مُفتَرَشُ أم لا ففي جلده من خُشنةٍ بَرَشُ

– يعني أنّ جِلدَ الرّزق خشِن المَلمَس فهو يُحترش[2] كما يُحترش الضَّبُّ – الشِعر :

ليت الصيامَ بأرض دونَها حَرَشُ[3] أضحى الصيامُ مُنيخاً وَسطَ عَرْصتِنا
بين الجوانح مَسٌّ الجوع والعطش إن صُمتُ أوجَعَني بطني وأقلقني
أضرَّني بَصَرٌ قد خانه العَمَش وإن خرجتُ بليلٍ نحوَ مسجدهم

عزى أم سلمة بنت يعقوب في السفاح فأضحكها :

أخبرني محمد بن العباس اليزيديّ عن أحمد بن زُهير عن الزُّبير عن عمه ، ونسخت من كتاب ابن النطّاح قال اليزيديّ في خبره :

دخل أبو دلامةَ على رَيطةَ بعد وفاة المهدي ، وقال ابن النطّاح : دخل على

(١) المؤصد : المطبق .
(٢) احترش الضب وحرشه : صاده .
(٣) الحرش (بالتحريك) لغة : الخشونة .

أمّ سَلَمَة[١] بنتِ يعقوب بن سَلمة بعد وفاة أبي العبّاس ، وهو الصحيح ، فعزّاها به وبكى وبكتْ معه ، ثم أنشدها :

أمسَلَمَ يرحمُكِ الإلٰهُ ...

مَن مُجمِلٌ في الصبر عنكَ فلم يكن   صبري عليكَ غداةَ بِنتَ جميلا
يجدون أبدالًا بـه وأنا امرؤٌ   لو مُتُّ وَجداً ما وجدتُ بديلا
إنّي سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم   فوجدتُ أجوَدَ مَن سألتُ بخيلا

فقالت أمُّ سَلمة : لم أرَ أحداً أُصيب به غيري وغيرَك يا أبا دلامة . فقال : ولا سَواء يرحَمُكِ الله ، لكِ منه ولد وما ولدتُ أنا منه . فضحكتْ – ولم تكن منذ مات أبو العباس ضَحِكتْ إلا ذلك الوقتَ – وقالت له : لو حدّثتَ الشيطانَ لأضحكتَه .

أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال حدثنا الغَلَابيّ قال حدثنا عبد الله بن الضحّاك قال :

دخل أبو دلامة على المهدي وهو يبكي . فقال له : ما لك ؟ قال : ماتت أمّ دلامة ، وأنشده لنفسه فيها :

وكنّا كزَوجٍ من قَطاً في مَفازةٍ   لدى خَفضِ عَيشٍ ناعمٍ مُؤنِقٍ رَغِدِ
فأفردني رَيبُ الزمانِ بصَرفـه   ولم أرَ شيئاً قطُّ أوحَشَ من فَرد

فأمر له بثيابٍ وطيبٍ ودنانيرَ ، وخرج . فدخلتْ أمُّ دلامة على الخيزُران فأعلمتها أنّ أبا دلامة قد مات ، فأعطتها مِثلَ ذلك ، وخرجتْ . فلمّا التقى المهدي والخيزُران عرَفا حيلتَها فجعلا يضحكان لذلك ويعجَبان منه .

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبّة ، ونسختُ أنا من كتاب ابن النطّاح قال :

---

(١) أم سلمة : هي أم سلمة المخزومية امرأة الخليفة أبي العباس السفاح .

دخل أبو دلامة على المنصور وأنشده :

أما وربِّ العادياتِ ضَبحاً(١) حقًّا وربِّ المورياتِ قَدحا
إنَّ المغيراتِ عليَّ صُبحاً والناكئاتِ(٢) من فؤادي قَرحا
عَشرُ ليالٍ بينهن ضُحا يَجلفنَ(٣) مالي كلَّ عامٍ صبحا

فقال له أبو جعفر : وكم تذبح يا أبا دلامة ؟ قال : أربعاً وعشرين شاة . ففرض له على كل هاشميّ أربعةً وعشرين ديناراً ، فكان يأخذها منهم . فأتى العباسَ بنَ محمد في عَشر الأضحى يتنجّزها . فقال : يا أبا دلامة ، أليس قد مات ابنُك ؟ قال بلى . قال : أنقُصُوه دينارين . قال : أصلَح الله الأميرَ لا تفعل ، فإنه ترك عليَّ ولدين . فأبى إلّا أن يَنقُصَه . فخرج وهو يقول :

أخطاك ما كنتَ ترجوه وتأمُلُه فاغسِلْ يديك من العباس بالياسِ
واغسِلْ يديك بأشنانٍ(٤) فأنقِها مما تؤمل من معروف عبَّاس
جزاك ربُّك يا عبّاسُ عن فَرَجٍ جنَّاتِ عَدْنٍ وعنّي جُرزَتَي(٥) آس

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك ، واغتاظ على العبّاس ، وأمره بأن يبعث اليه بأربعة وعشرين ديناراً أخرى . هذه رواية يزيد . وأمّا ابنُ النطّاح فإنه ذكر أن الذي نقصه الدينارين عليُّ بن صالح وقال له : إنما نَقَصتُك دينارين لموت ابنك دلامة . فحلف ألّا يأخذ إلّا خمسين ديناراً ، ثم قام مُغضَباً ؛ فأتبعه الرسولَ فأعطاه

---

(١) الضبح : صوت أنفاس الخيل اذا عدت ليس بصهيل ولا حمحمة .

(٢) نكأ القرح : قشره قبل أن يبرأ فيندى .

(٣) يجلفن : يستأصلن .

(٤) الأشنان (بالضم) : حمض تغسل به الأيدي .

(٥) الجرزة : الحزمة .

إيّاها . فقال له : أَوْلَى[١] له . أمّا ما سبق فلا حيلةَ فيه ، والمستأنَفُ فقد أمِنه . وقد كان قال فيه :

لعليِّ بن صالح بن عليٍّ نَسَبٌ لو يُعينه بسَماحِ
وبنو مالكٍ كثيرٌ ولكن ما لنا في بقائهم من فَلاح
غيرَ فَضلٍ فإنّ للفضل فضلاً مستبيناً على قُرَيش البِطاح

أخبرني محمد بن أحمد عن محمد بن العبّاس اليزيديّ قال حدثنا أحمد بن الحارث الخرّاز عن المدائنيّ قال :

خاصم رجلٌ أبا دلامة في داره ، فارتفعا الى عافيةَ القاضي ؛ فأنشأ أبو دُلامة يقول :

لقد خاصمتني دُهاةُ الرجالِ وخاصمتُها سنةً وافيهْ
فما أدحض الله لي حُجَّةً ولا خيَّب الله لي قافيه
ومَن خفتُ من جوره في القضاء فلستُ أخافُك يا عافيه

فقال له عافيةُ : أمَا واللهِ لأشكونّك الى أمير المؤمنين ولأُعلمنّه أنك هجوتني . قال : إذاً يَعزِلك . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء . فبلغ ذلك المنصورَ فضحك وأمر لأبي دلامة بجائزة .

أمره المهدي بهجاء أحد الحضور فهجا نفسه :

أخبرني محمد بن أحمد عن أحمد بن الحارث عن المدائنيّ قال :

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده اسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعبّاس ابن محمد ومحمد بن ابراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم . فقال له : أنا اعطي الله

(١) أولى له : معناها التهدد والتوعد .

عهداً لئن لم تَهجُ واحداً ممن في البيت لأقطعنّ لسانك – ويقال إنه قال : لأضربنّ عُنقك – فنظر اليه القوم ، فكلما نظر الى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه . قال أبو دلامة : فعلمتُ أني قد وقعتُ وأنها عَزمَةٌ من عَزَماته لا بدّ منها ، فلم أرَ أحداً أحقّ بالهجاء منّي ، ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلِغ اليك أبا دُلامَهْ فليس من الكرام ولا كَرامَهْ
إذا لبِس العمامةَ كان قِرداً وخنزيراً اذا نزَع العِمامه
جمعتَ دَمامةً وجمعتَ لؤماً كذاك اللؤم تتبَعه الدَّمامه
فإن تك قد أصبتَ نعيمَ دُنيا فلا تفرَحْ فقد دَنَتِ القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم احدٌ إلّا أجازه .

أخبرني الحرميّ بن أبي العلاء قال حدثنا الزُّبير عن عمه قال :

خرج المهدي وعلي بن سليمان الى الصَّيد ، فسنَح لهما قطيعٌ من ظِباء ، فأُرسلتِ الكلابُ وأُجريت الخيلُ ، فرمى المهديُّ ظبياً بسهم فصرعه ، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله . فقال أبو دلامة :

قد رمى المهديّ ظبياً شكّ بالسهم فُؤادَهْ
وعليُّ بن سليما ن رمى كلباً فصادَهْ
فهنيئاً لهما كلُّ امرئٍ يأكل زادَهْ

فضحك المهدي حتى كاد أن يسقط عن سَرجه ، وقال : صدَق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة سنيّة . أخبرني بهذا الخبر عمي عن الكرانيّ عن العُمَريّ عن الهيثم بن عَديّ فذكر مثلَ ما ذكره وقال فيه : فلُقِّب عليُّ بن سليمان « صائد الكلب » وَعَلِق به .

قال ابنُ النطّاح : وأنشد أبو دُلامة المنصورَ يوماً :

هاتيك والدتي عجوزٌ هِمَّةٌ[1] ... مثلُ البليَّة درعُها في المِشْجَبِ[2]
مهزولةُ اللَّحيَين[3] مَن يَرَها يَقُلْ ... أبصرتُ غُولًا أو خيالَ القُطرُبِ[4]
ما إن تركتُ لها ولا ابنٍ لها ... مالًا يؤمَّل غيرَ بَكرٍ أجرَبِ
ودجاجًا خمساً يَرُحنَ اليهمُ ... لمّا يَبِضنَ وغيرَ عَيرٍ[5] مُغربِ
كتبوا إليَّ صحيفةً مطبوعةً[6] ... جعلوا عليها طِينةً كالعَقرَبِ
فعلِمتُ أنَّ الشرَّ عند فَكاكِها ... ففكَكتُها عن مِثلِ ريحِ الجورَبِ
واذا شبيهٌ بالأفاعي رُقِّشَتْ ... يُوعِدنَني بتلمُّظٍ وتَثَوُّبِ
يشكون أنَّ الجوعَ أهلكَ بعضَهم ... لَزَباً[7] فهل لك في عيالٍ لُزَّبِ
لا يسألونك غيرَ طلِّ سحابةٍ ... تغشاهمُ من سَيلِك المُتحلِّبِ
يا باذلَ الخيراتِ يابنَ بَذولِها ... وابنَ الكرام وكلَّ قَرمٍ مُنجِبِ
أنتم بنو العبَّاس يُعلَم أنكم ... قِدماً فوارسُ كلِّ يومٍ أشهَبِ
أحلاسُ[8] خيلِ الله وهي مُغيرةٌ ... يَخرُجنَ من خَلَلِ الغبارِ الأكهَبِ[9]

---

(١) الهمة : العجوز الفانية .

(٢) المشجب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر . يريد أن أمه فنيت حتى أشبهت خشبات المشجب .

(٣) اللحي : عظم الحنك وهو الذي عليه الاسنان .

(٤) القطرب هنا : ذكر الغيلان أو الصغير من الجن .

(٥) العير (بالفتح) : الحمار . والمغرب : الذي اشتد بياضه حتى تبيض محاجره وأرفاغه .

(٦) مطبوعة : مختومة .

(٧) اللزب : ضيق العيش .

(٨) أحلاس الخيل هنا : الملازمون ظهورها .

(٩) الكهبة : غبرة مشربة سواداً .

قال : فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم . وكانت الدار قريبةً من قصره ، فأمر بأن تراد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته اليها . فدخل عليه أبو دُلامة فأنشده قولَه :

يابنَ عمّ النبيِّ دعوة شيخٍ قد دنا هدمُ داره ودمارُهْ
فهو كالماخض التي أعتادها الطَّلْقُ فقرَّتْ وما يَقِرُّ قرارُهْ
إن تخزْ عسرَهُ بكفَّيكَ يوماً فبكفَّيكَ عسرُهُ ويسارُهْ
أو تدَعْه فللبوارِ ، وأنّى ولماذا وأنت حيٌّ بوارُهْ
هل يخاف الهلاك شاعرُ قومٍ قدُمتْ في مديحهم أشعارُهْ
لكمُ الأرضُ كلُّها فأعيروا شيخكم ما أحتوى عليه جِدارُهْ
فكأنْ قد مضى وخلّف فيكم ما أعرتم وأقفرتْ منه دارُهْ

فأستعبر المنصور ، وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله .

قال ابن النطّاح :

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده مُحرز ومُقاتِل ابنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبه أبا دُلامة ويَعيبانه عنده . فقال أبو دلامة :

أَلا أيُّها المهديّ هل أنت مُخبري وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلي
ألم ترَحمِ اللّحيَيْن من لِحيَتَيهما وكلتاهما في طولها غيرُ طائل
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مُكرمي بحلقِهما من مُحرزٍ ومُقاتِل
فإن يأذَنِ المهديُّ لي فيهما أقلْ مقالاً كوقع السيف بين المفاصل
وإلّا تدَعني والهموم تَنوبني وقلبي من العِلجَين جَمُّ البلابل

فقال : أو آخُذُ لك منهما عشرةَ آلاف درهم يَفديان بها أعراضَهما منك ؟ قال : ذلك الى أمير المؤمنين . فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

قال ابن النطّاح :

ودخل أبو دلامة على سعيد بن دَعلج مولى بني تَميم فقال:

إذا جئتَ الأميرَ فقل سلامٌ عليك ورحمـةُ الله الرحيمِ
وأمّا بعد ذاك فـلي غريمٌ من الأعراب قُبّح من غريم
غريمٌ لازمٌ بفِنـاء بيتي لزوم الكلب أصحابَ الرَّقيم
له مائةٌ عليّ ونصفُ أخرى ونِصفُ النِصفِ في صَكٍّ قديم
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكن وصلتُ بها شيوخَ بني تَميم
أتوْني بالعَشيرة يسألوني ولم أكُ في العشيرة باللئيم

فضحك وأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهماً وقال: ما أساء من أنصف، وقد كافأتك عن قومك وزدتُك مائةً.

داعب المنصور في جنازة بنت عمه حتى ضحك:

أخبرني الحَرَميّ قال حدثنا الزُّبَير عن جعفر بن الحسين اللّهبيّ عن عمه مُصعَب:

أنّ حَمّادةَ بنت عيسى تُوفّيت وحضر المنصورُ جنازتَها. فلمّا وقف على حُفرتها قال لأبي دلامة: ما أعددتَ لهذه الحفرة؟ قال: بنتَ عمّك يا أمير المؤمنين حَمّادةَ بنت عيسى يُجاء بها الساعةَ فتُدفَنُ فيها. فضحك المنصور حتى غُلِب فستر وجهه.

سأل الخيزران جارية فوعدته بها وأبطأت فاستنجزها بشعره:

أخبرني عمي رحمه الله تعالى قال حدثنا محمد بن سعد الكرانيّ قال قال أبو عمر حَفص بن عمر العُمَريّ حدثنا الهيثم قال:

حجّت الخيزُران، فلمّا خرجت صاح بها أبو دلامة. قالت: سَلُوه ما أمرُه.

فقالوا له : ما أمرُكَ ؟ فقال : أدنوني من مَحمِلها . قالتْ : أدنوه ، فأدنيَ . فقال : أيّتها السيدة ، إني شيخ كبير وأجرُكِ فيَّ عظيم . قالت : فَمَهْ . قال : تَهَبينَ لي جاريةً من جواريكِ تؤنسني وترفُق بي وتُريحني من عجوز عندي ، قد أكلتْ رِفدي ، وأطالت كدّي ، وقد عاف جلدي جلدَها ، وتمنَّيتُ بُعدَها ، وتشوّقت فَقدَها . فضحكتِ الخيزُرانُ وقالت : سوف آمرُ لك بما سألتَ . فلما رجعتْ تلقَّاها وذكَّرها ، وخرج معها الى بغداد فأقام حتى غَرِضَ[1] . ثم دخل على أمِّ عَبيدة حاضنةِ موسى وهارون ، فدفَع اليها رُقعةً قد كتبها الى الخيزُران فيها :

أبلغي سيِّدتي بالله يا أمَّ عَبيدَهْ
أنها أرشدها الله وإن كانت رشيده
وَعَدَتني قبل أن تخرج للحجِّ وَليده
فتأنَّيتُ وأرسلتُ بعشرين قصيده
كلما أخلَقنَ أخلفتُ لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فِراشي من قَعيده
غيرُ عَجفاءَ عجوزٍ ساقُها مِثلُ القديده
وجهُها أقبحُ من حُوتٍ طَريٍّ في عَصيده
ما حياةٌ مَعَ أنثى مِثلِ عِرسي بسعيده

فلمَّا قرئتْ عليها الأبياتُ ضحكت واستعادتها منه لقوله « حوتٍ طَريٍّ في عصيده » وجعلت تضحك ، ودعت بجارية من جواريها فائقةٍ فقالت لها : خُذِي كل ما لكِ في قصري ففعلتْ ، ثم دعت ببعض الخدم وقالت له : سَلِّمها الى أبي دلامة . فأنطلق الخادم بها فلم يصادفه في منزله . فقال لامرأته : اذا رَجَع فأدفعيها اليه ، وقولي له : تقول لك السيّدة : أحسِن صُحبةَ هذه الجارية فقد آثرْتك بها ؛ فقالت

(١) غرض : ضجر وملّ .

له نعم . فلما خرج دخل ابنُها دُلامة فوجد أمّه تبكي . فسألها عن خبرها فأخبرته وقالت : إن أردتَ أن تبرَّني يوماً من الدهر فاليوم . فقال : قولي ما شئتِ فإني أفعله . قالت : تدخل عليها فتُعلِمُها أنك مالِكُها وتطؤها فتحرُم عليه ، وإلا ذهبتْ بعقله وجفاني وجفاك . ففعل ودخل الى الجارية فوطئها ووافقها ذلك منه ، وخرج . ثم دخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية ؟ قالت : في ذلك البيت . فدخل اليها شيخٌ محطَّمٌ ذاهبٌ ، فمدَّ يدَه اليها وذهب ليقبِّلها . فقالت له : ما لك وَيلك ! تَنحَّ وإلا لطمتُك لطمةً دقَقْتُ منها أنفك . فقال لها : أبهذا أوصتكِ السيِّدة ! فقالت : إنها قد بعثتْ بي الى فتًى من حاله وهيئته كيت وكيت ، وقد كان عندي آنفاً ، ونال منّي حاجته . فعلِم أنه قد دُهِيَ من أمّ دلامة وابنها . فخرج اليه أبو دلامة فلطمه ولَبَّبه[1] وحلف ألا يفارقه إلا عند المهدي . فمضى به مُلَبَّباً حتى وقف على باب المهدي . فعُرِّف خبره وأنه قد جاء بابنه على تلك الحالة فأمر بإدخاله . فلمّا دخل قال له : ما لك وَيلك ؟ ! قال : عمِل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمل ولدٌ بأبيه ، ولا تُرضيني إلا أن تقتله . فقال له : وَيلك فما فعل ؟ فأخبره الخبرَ . فضحك حتى استلقى ثم جلس . فقال له أبو دلامة : أعجبك فعله فتضحكَ منه ؟ فقال : عليَّ بالسيف والنِّطع . فقال له دلامة : قد سمعتَ حُجَّته يا أمير المؤمنين فاسمعْ حُجّتي . قال : هاتِ . قال : هذا الشيخُ أصفقُ الناسِ وجهاً ، يَنيك أمّي منذ أربعين سنة ما غَضِبتُ ، ونكتُ جاريتَه مرّة واحدة فغضب وصنع بي ما ترى ! فضحك المهدي أكثر من ضحكه الأول ، ثم قال : دَعْها له يا أبا دلامة وأنا أُعطيك خيراً منها . قال : على أن تَخبأها لي بين السماء والأرض ، وإلا ناكها والله كما ناك هذه . فتقدّم الى دلامة ألا يُعاوِد بمثل فعله ، وحلَف أنه إن عاود قتَله ، ووهب له جاريةً أخرى كما وَعده .

وقال ابن النطّاح :

---

(١) لببه : أخذ بتلبيبه أي جمع ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ثم جرّه .

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده شاعر يُنشده . فقال له : ما ترى فيه ؟ قال : إنه قد جهد نفسه لك فأجهد نفسك له . فقال له المهدي : وأبيك إنها لكلمة عذراء منك ، أحسبك تعرفه ! قال : لا والله ما عرفته ولا قلت أنا إلّا حقًا . فأمر للشاعر بجائزة ، ولأبي دلامة بمثلها لحسن محضره .

قال ابن النطّاح وحدثني أبو عبد الله العُقَيلي قال :

رأيتُ على أبي دُلامة فَرْوَةً في الصَّيف ، فقلتُ له : ألا تملُّ هذه الفروةَ ! قال : بلى ، وربَّ مملولٍ لا يُستطاع فِراقُه . فنزعتُ فاضلَ ثيابي في موضعي ودفعتُها اليه .

فزع من رؤية الفيل :

قال : وأهدِيَ للمهديَ فيلٌ ، فرآه أبو دلامة فولّى هارباً وقال :

يا قوم إني رأيتُ الفيلَ بعدكم لا بارك اللهُ لي في رؤية الفيلِ
أبصرتُ قصراً له عينٌ يقلّبها فكِدتُ أرمي بسَلحي في سَراويلي

قال ابنُ النطاح :

ودخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة :

أتاني بَغلةً يَستامُ[1] مِنّي عريقٌ في الخسارة والضَّلالِ
فقال تبيعها ؟ قلت ارتَبِطها بحكمك إن بيعي غيرُ غالي
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً وقال أراك سَمحاً ذا جَمالِ
هَلُمَّ إليَّ يخلو بي خِداعاً وما يَدري الشَّقيُّ بمن يُخالي
فقلتُ بأربعين فقال أحسِن إليَّ فإن مِثلك ذو سِجالِ[2]

(١) استام : طلب السوم أي تعيين الثمن .

(٢) السجال هنا : المباراة والمساجلة يريد أنه لا يماكس في الثمن .

فأترُكُ خمسةً منهــا لعلمي بمــا فيه يصير من الخبال

فقال المهديّ : لقد أفلتَّ من بَلاء عظيم . قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثتُ شهراً أتوقّع صاحبَها أن يَرُدَّها . قال : ثم أنشده :

فأبدِلني بها يا ربِّ طِرفاً[1] يكون جمالُ مَركبِه جَمالي

فقال لصاحب دوابّه : خيِّرْه من الاصطبل مَركبين . قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لي وقعتُ في شرّ من البغلة ، ولكن مُرْه أن يختار لي ، فقال : اخترْ له . وأخبرني بــه عمي عن الكرانيّ عن العُمَريّ عن الهيثم بن عَدِيّ ، وخبرُه أتمّ .

احتال على العباس بن محمد بشعر وأخذ منه ألفي درهم وكان راهن المهدي على ذلك فأخذ منه ستة آلاف :

وأخبرني محمد بن خلف عن أحمــد بن الهيثم عن العُمَريّ عن الهيثم بن عَدِيّ قال :

دخل أبو دلامة يوماً على المهديّ ، فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هــل بقي أحدٌ من أهلي لم يَصِلْك ؟ قال : إن أمّنتَني أخبرتُك ، وإن أعفيتني فهو أحبّ إليّ . قال : بل تخبرني وأنت آمِنٌ . قال : كلُّهم قد وَصَلني إلّا حاتمَ بني العبّاس . قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس بن محمد . فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جَأْ[2] عُنقَ العاضِّ بَظر أُمّه . فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تنحَّ يا عبدَ السَّوْء لا تُحنِث مولاك وتَنكُث عهده وأمانه . فضحك المهدي وأمر الخادمَ فتنحَّى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : وَيلك ! والله عمي أبخلُ الناس . فقال أبو دلامة : بــل هو

(١) الطرف من الخيل : الكريم .

(٢) جأ : اضرب .

أسخى الناس . فقال له المهديّ : والله لو مُتَّ ما أعطاك شيئاً . قال : فإن أنا أتيته فأجازني ؟ قال : لك بكل درهمٍ تأخذه منه ثلاثةُ دراهم . فانصرف أبو دلامة فخبّر للعبّاس قصيدةً ثم غدا بها عليه وأنشده :

قِفْ بالديار وأيُّ الدهرِ لم تَقِفِ ... على المنازل بين الظَّهر[1] والنَّجفِ
وما وُقوفُك في أطـلالِ مَنزِلَةٍ ... لولا الذي استدرجتْ من قلبك الكَلِف
إن كنتَ أصبحتَ مشغوفاً بساكنها ... فلا وربِّك لا تَشفيك من شَغَف
دَعْ ذا وقُلْ في الذي قد فاز من مُضَرٍ ... بالمكرُمات وعزٍّ غـيرِ مُقترَف[2]
هذي رسالةُ شيخٍ من بَني أسَدٍ ... يُهدي السلام الى العبّاس في الصُّحُف
تَخُطُّها من جَواري المِصرِ كاتبةٌ ... قد طالما ضَرَبَتْ في اللام والأَلِف
وطالما اختلفت صَيفاً وشاتيةً ... الى معلّمهـا باللّوح والكَتِف
حتى إذا نَهَـد الثّديانِ وامتلأ ... منها وخِيفَتْ على الإسراف والقَرَف[3]
صِينتْ ثلاثَ سِنينٍ ما تَرى أحداً ... كما يصون تِجـارٌ دُرّةَ الصَّدَف
فبينما الشيخُ يَهـوي نحو مجلسه ... مبادراً لصـلاة الصُّبح بالسَّدَف[4]
حانت له لمحةٌ منها فأبصرهـا ... مُطِلّـةً بين سَجفَيها من الغُرَف
فخرَّ والله ما يَدري غداتَئـذٍ ... أخرَّ مُنكشِفاً أم غيرَ منكشف
وجاءه الناسُ أفواجاً بمـائهمُ ... ليغسلوا الرجـلَ المَغشِيَّ بالنُّطَف[5]
ووَسوسوا بقُرآنٍ في مسامعـه ... مَخافَـةَ الجِنِّ والإنسانُ لم يَخِف
شيئاً ولكنّـه من حُبِّ جاريةٍ ... أمسى وأصبح موقوفاً عـلى التَّلَف

---

(١) الظهر : موضع . والنجف : موضع بظهر الكوفة وهو دومة الجندل بعينها ، وبالقرب منه قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

(٢) مقترف : مكتسب .

(٣) القرف : التهمة .

(٤) السدف : الظلمة .

(٥) النطف : جمع نطفة (بالضم) وهي الماء الصافي قل او كثر .

قالوا : لكَ الويلُ ما أبصرتَ ؟ قلتُ لهم ... تطلّعتْ من أعالي القصر ذي الشُّرَفِ
فقلتُ أيكُمُ واللهُ يأجُرُه ... يُعين قُوّته فيها على ضَعَف
فقام شيخٌ بهيٌّ من رجالهمُ ... قد طالما خدَعَ الأقوامَ بالحَلِف
فابتاعها لي بألفَيْ درهمٍ فأتى ... بها إليَّ فألقاها على كَتِفي
فبِتُّ ألثمُها طوراً وألزَمُها ... طوراً وأصنع بعضَ الشيء في اللُّحُف
فبين ذاك كذا إذ جاء صاحبُها ... يَبغي الدراهمَ بالميزان ذي الكِفَف
وذِكْرَ حقٍّ على زَندٍ وصاحبِه ... والحقُّ في طَرَفٍ والطينُ في طَرَف
وبين ذاك شهود لا يَضُرُّهمُ ... أكنتُ معترفاً أم غير معترف
فإن يكن منك شيء فهو حقُّهمُ ... أو لا فإنّيَ مدفوعٌ الى التَّلَف

قال : فضحك العبّاس وقال : وَيحك أصادقٌ أنت ؟ قال : نعم والله . قال : يا غلام أدفع اليه ألفَي درهم ثمنها . قال : فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القِصّة وما احتال له به . فأمر له المهديُّ بستة آلاف درهم . وقال له المهدي : كيف لا يضرّهم ذلك ؟ قال : لأني مُعدِم لا شيء عندي . وقال عمي في خبره : فقال له العبّاس بن محمد شاركني في هذه الجارية . قال : أفعلُ ولكن على شريطةٍ . قال : وما هي ؟ قال : الشَّرِكةُ لا تكون إلّا مفاوضةً ، فاشترِ معها أخرى ، ليبعثَ كلٌّ واحدٍ منا الى صاحبه ما عنده ويأخذ الأخرى مكانَها ليلةً وليلةً . فقال له العبّاس : قَبّحك الله وقَبّح ما جئتَ به ! خذ الدراهمَ لا بارك الله لك فيها وانصرِف .

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني العَبسيّ قال :

كان أبو دلامة مع أبي مسلم في بعض حروبه مع بني أُميّة . فدعا رجلٌ الى البراز ؛ فقال له أبو مسلم : ابرُز اليه . فأنشأ يقول :

أَلا لا تَلمني إن فَرَرتُ فإنّني أخاف على فُخَّارتي أن تحطَّما
فلو أنني في السُّوق أبتاع مِثلها وَجدِّك ما باليتُ أن أتقدّما

فضحك وأعفاه .

ونسخت من كتاب ابن النطّاح :

أنّ رَيطةَ وَعدت أَبا دلامة جاريةً فمطَلته حتى امتدَحها بعدّة قصائد ، كلُّ ذلك لا تَفي له ، ثم خرجت الى مكة ورجعت . وكانت لها جاريةٌ يقال لها أمُّ عَبيدةَ تخرج وتُكلّم الرجالَ وتبلّغ عنها الرسائل . فقال أبو دلامة لأمّ عَبيدةَ حين عِيلَ صبرُه :

أبلغي سيّدتي إن شئتِ يا أمَّ عَبيدَهْ
أنّها أرشدها اللهُ وإن كانت رشيده
وعدتني قبلَ أن تخرج للحجِّ وَليده
فتنظَّرتُ وأرسلتُ بعشرين قصيده
كلّما تخلَقُ أولى بُدِّلَتْ أخرى جديده
إنّني شيخٌ كبيرٌ ليس في بيتي قَعيده
غيرُ مِثلِ الغُول عندي ذاتِ أوصالٍ مَديده
وجهُها أسمجُ من حُو تٍ طَريٍّ في عَصيده
ذاتِ رِجلٍ ويدٍ كلتاهما مِثلُ القَديده

فدخلتْ على رَيطةَ فأنشدتها الشعرَ ، فأمرتْ له بجارية ومائتي دينار للنفقة عليها .

أخبرني الحسين بن يحيي نسختُ من كتاب إسحاق الموصليّ حدثني أبي عن جدّي :

أنّ أبا دلامة نزل بالكوفة ، فأتاه أضيافٌ فغدّاهم ، ثم بعث الى سِنديّة

نَبَاذة يقال لها دَومةُ ، فبعثت اليهم جَرَّةً من نَبيذ فشربوها ، ثم أعاد فبعثت اليهم بأخرى ، ثم جاءت تتقاضى الثمنَ . فقال : ليس عندي الثمن ، ولكني أمدحك بما هو خيرٌ من نبيذكِ . فقال :

أَلا يا دَومُ دام لكِ النَّعيمُ وأحمَرُ مِلءُ كَفِّكِ مستقيمُ
شديدُ الأصل يَنبِذُ[1] حالباه يَئِنُّ كأنه رجلٌ سقيمُ

وهذا الخبر يُروى عن الأُقَيشِر أيضاً .

قال شعراً في الجنيد النخاس يذمه ويمدح جارية له :

قال اسحاق وحدثني أبي :

أنّ أبا دلامة كان كثير الزيارة للجُنيد النخّاس ، وكان يتعشّق جاريةً له ويُبغِضه . فجاءه يوماً فقال : أخرج لي فلانةَ . فقال : الى متى تخرج اليك ولستَ بمشترٍ !! قال : فإن لم أكن مشترياً فإني أخٌ يمدح ويُطري . قال : ما أنا بمخرجها اليك أو تقول فيها شعراً . قال : فأحلِفْ بعتقها أن تروّيها إيّاه وتأمُرَها بإنشاده مَن أتاك يعترِضها ولا تحجُبَها . فحلف لا يحجُبها . فقال أبو دلامة :

إنّي لأحسَبُ أن سأمسي ميّتاً أو سوف أصبح ثم لا أُمسي
من حبّ جارية الجُنَيدِ وبُغضِه وكلاهما قاضٍ على نفسي
فكلاهما يُشفى به سَقَمي فإذا تكلّم عاد لي نَكسي

أخبرني عمي قال حدثنا الكرانيّ قال حدثنا العُمَريّ عن الهيثم بن عَديّ قال :

(١) ينبذ : ينبض .

دخل أبو دلامة على اسحاقَ الأزرقِ يَعوده ، وكان اسحاق قد مرض مرضاً شديداً ، ثم تعافى منه وأفاق ، فكان من ذلك ضعيفاً ، وعند اسحاق طبيبٌ يَصِفُ له أدويةً تقوّي بدنَه . فقال أبو دلامة للطبيب : يابنَ الكافرة ! أتصِفُ هذه الأدويةَ لرجل أضعفه المرض ! ما أردتَ والله إلّا قتلَه . ثم التفت الى اسحاق فقال : اسمعْ أيها الأمير منّي . قال : هات ما عندك يا أبا دلامة . فأنشأ يقول :

نَحِّ عنك الطبيبَ واسمعْ لنعتي ... إنّني ناصحٌ من النُّصّاحِ
ذو تجاريبَ قد تقلّبتُ في الصحّـــة دهراً وفي السَّقام المُتاح
غادِ هذا الكَبابَ كلَّ صباحٍ ... من مُتُون الفَتِيَّةِ السُّحّاح[1]
فإذا ما عطِشتَ فاشرَب ثلاثاً ... من عتيقٍ في الشمّ كالتُّفّاح
ثم عند المساء فاعكُفْ على ذا ... وعلى ذا بأعظم الأقداح
فتقوّي ذا الضعفَ منك وتُلفَى ... عن[2] ليالٍ أصحَّ هذي الصِحاح
ذا شِفاءٌ ودَعْ مقالةَ هذا ... ناك ذا أمَّه بأيرِ رَباح[3]

فضحك اسحاق وعُوّادُه، وأمر لأبي دلامة بخمسمائة درهم. وكان الطبيب نصرانياً فقال : أعوذ بالله من شَرّك يا رَكُل (يريد يا رجل) . وقال الطبيب : اقبَلْ منّي أصلحك الله ولا تسألني عن شيء قدّامه. فقال أبو دلامة : أمّا وقد أخذتُ أجرةَ صَفقتي وقَضيتُ الحقَّ في نُصح صديقي ، فانعَتْ له الآن أنت ما أحببتَ .

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني أبو الشِبل عاصم بن وَهب البُرجُميّ قال :

---

(١) السحاح : السمان .

(٢) عن ليال أي بعد ليال .

(٣) رباح : القرد .

دخل أبو دلامة على المهدي وبين يديه سَلمةُ الوصيف واقفاً، فقال: إني أهدَيتُ اليك يا أمير المؤمنين مُهراً ليس لأحد مثله. فإن رأيتَ أن تُشرّفني بقبوله. فأمره بإدخاله اليه. فخرج وأدخل اليه دابّته التي كانت تحته، فإذا به بِرذَونٌ مُحطَّمٌ أعجَفُ هَرِمٌ. فقال له المهديّ: أيُّ شيء هذا وَيلك! ألم تزعم أنه مهر! فقال له: أوَ ليس هذا سَلمةَ الوصيفَ بين يديك قائماً تسمّيه الوصيفَ وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيفٌ! فإن كان سلمةُ وَصيفاً فهذا مُهرٌ. فجعل سلمةُ يشتُمه والمهديّ يضحك. ثم قال لسلمة: وَيلك، إنّ لهذه منه أخوات، وإن أتى بها في مَحفِل فضَحكَ. فقال أبو دلامة: والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين؛ فليس من مواليك أحدٌ إلّا وقد وَصلني غيرُه، فإني ما شربت له الماء قطّ. قال: فقد حكمتُ عليه أن يشتري نفسه منك بألفي درهم حتى يتخلّص من يدك. قال: قد فعلتُ على أن لا يُعاود. فقال له: ما ترى؟ قال: أفعَلُ؟ فلولا أنّي ما أخذت منه شيئاً قطّ ما فعلتُ معه مِثلَ هذه. فمضى سَلمةُ فحملها اليه.

عبث به ابنه فأراد أن يخصيه فحكم زوجته:

أخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد الكرانيّ قال حدثني الخليل بن أسد عن عبد الرحمن بن صالح قال:

جاء ابن أبي دُلامة يوماً إلى أبيه وهو في مَحفِلٍ من جيرانه وعَشيرته جالس، فجلس بين يديه، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم: إنّ شيخي، كما ترون، قد كَبِرَتْ سنُّه، ورَقّ جلده، ودقّ عظمُه، وبِنا الى حياته حاجة شديدة، فلا أزال أشير عليه بالشيء يُمسِك رَمَقَه ويُبقي قُوّته، فيخالفني فيه. وأنا أسألكم أن تسألوه قضاء حاجة لي أذكرها بحضرتكم، فيها صلاحُ لجسمه، وبقاءٌ لحياته، فأسعفوني بمسألته. فقالوا: نفعلُ حُبّاً وكرامة. ثم أقبلوا على أبي دُلامة بألسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضي وهو ساكت، فقال قولوا للخبيث فليقُل ما يُريد،

فستعلمون أنه لم يأتِ إلّا ببليّة. فقالوا له: قل. فقال: إنّ أبي إنما يقتله كثرةُ الجماع، فتُعاونوني عليه حتى أخصيَه، فلن يقطعَه عن ذلك غيرُ الخصاء، فيكونَ أصحّ لجسمه وأطول لعمره. فعجبوا من ذلك وعلموا أنه إنما أراد أن يعبث بأبيه ويخجِله حتى يَشيعَ ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر، فضحكوا منه: ثم قالوا لأبي دُلامة: قد سمِعت فأجِب. قال: قد سمعتم أنتم وعرفتكم أنه لن يأتي بخير. قالوا: فما عندك في هذا؟ قال: قد جعلتُ أمه حَكَماً بيني وبينه فقوموا بنا إليها. فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها، وقصّ أبو دُلامة القصّة عليها، وقال لها: قد حكَّمتُكِ. فأقبلت على الجماعة فقالت: إنّ ابني – أصلحه الله – قد نصح أباه وبَرّه ولم يألُ جهداً، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحوج مني إلى بقائه، وهذا أمرٌ لم تقع به تجربةٌ منّا، ولا جرتْ بمثله عادةٌ لنا، وما أشكُّ في معرفته بذلك. فَليبدأ بنفسه فليخصها؛ فإذا عوفيَ ورأينا ذلك قد أثّر عليه أثراً محموداً استعمله أبوه. فنعر[1] أبوه وجعل يضحك به، وخجِل ابنه، وانصرف القوم يضحكون ويعجبون من خُبثهم جميعاً واتفاقهم في ذلك المذهب.

أخبرني عمّي قال حدثنا مَيمون بن هارون عن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه قال:

كان عند المهديّ رجل من بني مَروان، فدخل اليه وسلّم عليه. فأُتي المهديُّ بِعلجٍ[2] فأمر المروانيّ بضرب عُنقِه، فأخذ السيفَ وقام فضربه فنَبَا السيفُ عنه، فرمَى به المروانيّ وقال: لو كان من سيوفنا ما نَبا. فسمع المهديّ الكلام فغاظه حتى تغيّر لونه وبان فيه. فقام يَقطِين[3] فأخذ السيفَ وحسر عن ذراعيه ثم

---

(١) نعر: صاح وصوّت بخيشومه.

(٢) العلج: الرجل من كفار العجم.

(٣) يقطين: هو يقطين بن موسى البغدادي.

ضرب العِلجَ فرمى برأسه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذه سيوف الطاعة لا تعمَل إلّا في أيدي الأولياء، ولا تعمل في أيدي أهـل المعصية . ثم قام أبو دُلامة فقال : يا أمير المؤمنين ، قد حضرَني بيتان أفأقولها؟ قال : قل . فأنشده :

أَيهذا الإمامُ سيفك ماضٍ   وبكفِّ الوليِّ غيرُ كهامِ[1]
فإذا ما نبا بكفٍّ علِمنا   أنّها كفُّ مُبغِضٍ للإمامِ

قال : فسُرِّي عن المهديّ وقام من مجلسه ، وأمر حُجّابـه بقتل الرجل المرواني فقُتل .

---

(١) الكهام من السيوف : الكليل الذي لا يقطع .

اخبار عبد الله بن المعتز

وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع وتقدم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرفاً في سائر الآداب أبو العباس عبد الله ابن المعتز بالله.

أدبه وشعره ومذهبه في الأدب :

وأمره، مع قرب عهده بعصرنا هذا، مشهور في فضائله وآدابه شهرة تُشرك في أكثر فضائله الخاص والعام. وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية. فليس يمكن واصفاً لصبوح في مجلس شكل ظريف، بين ندامى وقيان، وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك، الى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات، ورقة الخدم، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط[1] الرقيق الذي يفهمه كل من حضر، إلى جعد الكلام ووحشيه، وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم[2] والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة؛ ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء، ولا أن يغمط حقه

(١) السبط : السهل المرسل . والجعد : المعقد .

(٢) الظليم . ذكر النعام .

كلّه إذا أحسن الكثيرَ وتوسّط في البعض وقصّر في اليسير، ويُنسبَ إلى التقصير في الجميع، لنشر المقابح وطيّ المحاسن. فلو شاء أن يفعل هذا كل أحدٍ بمن تقدّم لوجد مَساغاً. ولو أنّ قائلاً أراد الطعن على صدور الشعراء، لقد رأى أن يطعَن على الأعشى – وهو أحدُ مَن يقدّمه الأوائل على سائر الشعراء – بقوله: «فأصاب حَبَّةَ قلبه وطِحالها». وبقوله:

ويأمر لليَحمومِ(١) كل عَشِيَّةٍ بقَتٍّ وتعليقٍ فقد كاد يَسنَقُ

وأمثالٍ لهذا كثيرةٍ. وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشيء أحسنه، ويلغيَ ما لم يستحسنه، فليس مأخوذاً به. ولكن أقواماً أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة، ويُشيدوا بذكرهم الخامل، ويُعلوا أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم، فلا يزدادون بذلكَ إلّا ضعَةً، ولا يزداد الآخر إلّا ارتفاعاً. ألا ترى إلى ابن المعتزّ قد قُتل أسوأ قِتلة، ودرّج فلم يبق له خلَفٌ يقرّظه ولا عَقِبٌ يرفع منه، وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحُسنِ أخباره وتصرُّفه في كل فنٍّ من العلوم إلّا رفعةً وعُلوّاً. ولا نُظِر إلى أضداده كلّما ازدادوا في طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مِثلَهم في ثَلبه والطعن عليه، زادوها سقوطاً وضعَةً، وكلّما وصفوا أشعارهم وقرّظوا آدابهم، زادوا بها ثِقلاً ومقتاً. فإذا وقع عليهم المُحصِّل الموافق، عدَلوا عن ثلبه في الآداب، إلى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبي طالب، وهم أوّل من فعل ذلك وشنّع به على آل أبي طالب عند المُكتفي حتى نهاهم عنه، فعدَلوا عن عَيب أنفسهم بذلك إلى عيبه، وارتكبوا أكثر منه. وأنا أذكر ذلك بعقب أخبار عبد الله، مُصرِّحاً به على شرحٍ إن شاء الله تعالى.

---

(١) اليحموم: اسم فرسه. والقت: حب بري. والتعليق: ما تعلفه الدابة من شعير ونحوه. ويسنق: يأكل حتى يصيبه كالبشم.

وكان عبدالله حسن العلم بصناعة الموسيقى ، والكلام على النغم وعِللها . وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتبٌ مشهورةٌ ، ومراسلاتٌ جرَت بينه وبين عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حَمدون وغيرهم، تدلّ على فضله وغزارة علمه وأدبه .

ولقد قرأتُ بخطِّ عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر رُقعةً إليه بخطّه، وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حَمدون في أنه يجوز ولا يُنكِر أن يغيّر الإنسانُ بعضَ نَغَم الغناء القديم ، ويعدِل بها إلى ما يحسُن في حَلقه ومذهبه . وهي رسالةٌ طويلةٌ ، وشاوره فيها . فكتب اليه عبيد الله : « قرأتُ — أيدك الله — الرسالة الفاضلةَ البارعة الموّفقة . فأنا والله أقرؤها إلى آخرها ، ثم أعود إلى أولها مبتهجاً ، وأتأمّل وأدعو مبتهلًا ، وعينُ الله التي لا تنام عليك وعلى نعمه عندك . فإنها — علِم الله — النعمةُ المعدومة المِثل . ولقد تمثّلت وأنا أُكرّر نظري فيها قول القائل في سيّدنا وابن سيّدنا عبد الله بن العبّاس :

كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع لذي إربةٍ في القول جِدّاً ولاهزَلا

ولا والله ما رأيتُ جِداً في هزلٍ ، ولا هزلًا في جِدٍ يُشبه هذا الكلام في بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة برهانه وجزالة ألفاظه . ولقد خُيّل اليّ أن لسان جدِك العباسِ عليه السلام ينقسم على أجزاء، تلك — أعزك الله — نصفها، والنصف الاخر مقسوم بين أبي جعفر المنصور والمأمون رحمة الله عليهما. ولو أن هذه الرسالة جبهت الإبراهيمين ابراهيم بنَ المهديّ وابراهيم الموصليّ وابنه إسحاق وهم مجتمعون لبُهت منهم الناظر ، وأخرِس الناطق ، ولأقرّوا لك بالفضل في السَّبق ، وظهور حُجّةِ الصِدقِ ، ثم كان قولُك لهم فَرقاً بين الحقّ والباطل ، والخطأ والصواب . ووالله ما تأخذ في فنٍّ من الفنون ، إلّا برّزت فيه تبريز الجواد الرائع ، المُغبّر في وجه كل حِصان تابع . عضد الله الشرفَ ببقائك ، وأحيا الأدب بحياتك ، وجمل الدنيا وأهلها بطول عمرك » .

هذا كلام العقلاء وذوي الفضل في مِثْله ، لا كلام الثقلاء وذوي الجهل . والإطالةُ في هذا المعنى مُستَغْنًى عنها . والمشهور عنه وعن أضداده وما يأتي من أَخباره بعد ذلك فني معنى ما شَرَطتُه من جنس ما هو المَقصِد في كتابي هذا .

فمن صنعة عبد الله بن المعتزّ في شعره على أنّ أكثرها هذه سبيلُه فيها :

صوت

هل تَرجعنّ ليالٍ قد مَضَيْنَ لنا والدارُ جامعةٌ أزمانَ أزمانا

صَنعَتُه في بيتٍ واحد ، ولحنُه ثقيلٌ أوّل .

ومن صنعته في الثقيل الأوّل أيضاً — وفيه لعَلّويه رَمَلٌ قديم، وما لحنُه بدون لحن عَلّويه — :

صوت

سَقى جانبَ القَصرَين فالدَّيرَ فالحِمى الى الشجر المحفوفِ بالطِّين والمَدَرْ

ومن صنعته الطَّريفةِ الشَّكِلَة مع جودتها :

صوت

وا بلائي من مَحضَرٍ ومَغيبِ وحبيبٍ منّي بعيدٍ قريبِ
لم تَرِد ماءَ وجهه العينُ إلّا شَرِقَتْ قبل رِيِّها برقيب

خفيفُ ثقيلٍ ، ابتداؤه نشيد .

زارته زرياب في يوم الشعانين وغناها :

ومن صنعته ، وله خبر أخبرني به علي بن هارون بن المنجِّم عن زِريابَ قالت :

زرتُ عبد الله بن المعتزّ في يوم السّعانين[١]، فسُرّ بورودي وصنع من وقته لحناً في شعر عبد الله بن العبّاس الرّبيعيّ الذي له فيه هَزَجٌ وهو:

صوت

أنا في قلبي من الظّبي كلومُ فـدعِ اللّوْمَ فإنّ اللّومَ لومُ[٢]
حبّـذا يومُ السّعانين وما نِلتُ فيه من سرورٍ لو يَدوم

– الشعر لعبد الله بن العبّاس، ولحنه فيه هزَجٌ – قالت: فصنع عبدُ الله بن المعتزّ في البيت الثاني، وبعده بيتٌ أضافه اليه، هزَجاً وهو:

زارني مولايَ فيه ساعةً ليتَه والله ما عِشتُ يُقيمُ

ولحنُ ابن المعتزّ في «حبذا يوم السّعانين» وهذا البيت خفيفُ رَمَلٍ، وهو من نهايات الأغاني التي صنعها.

ومن صنعته التي تَظارفَ فيها ومَلُح:

زاحـمَ كمّي كمّه فالْتويا وافق قلبي قلبـه فاستويا
وطالمـا ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرّةَ العين ويا همّي ويا

أراد هنا بقوله «ويا» ما يقوله الناس في حكاية الشيء الذي يخاطبون به الإنسان من جميل أو قبيح، فيقولون: قلتُ له يا سيّدي ويا مولاي ويا ويا، وكذلك ضدّه ليُستغنى بالإشارة بهذا النداء عن الشرح. ولحنُ ابن المعتزّ في هذا هزجٌ.

---

(١) والمشهور فيه «الشعانين» بالشين المعجمة؛ وهو عيد الشعانين، وتفسيره بالعربية التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم. وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخـل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور (وهو الحمار) في القدس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بـين يديه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» اهـ.

(٢) لوم: مخفف لؤم بالهمز.

حدثني جعفر بن قُدامة قال :

كنّا عند أبن المعتزّ يوماً وعنده نَشرُ وكان يحبها ويَهيم بها ، فخرجتْ علينا من صدر البستان في زمن الربيع ، وعليها غِلالةٌ مُعصفَرة وفي يديها جنّابي[1] باكورة باقِلّا . فقالت له : يا سيّدي تلعبُ معي جنّابى ؟ فالتفت الينا وقال على بديهته غيرَ متوقّفٍ ولا مفكّرٍ :

فديتُ مَن مَرّ يمشي في مُعصفَرةٍ   عَشيّةً فَسَقاني ثم حيّاني
وقال تلعبُ جنّابى فقلت له   مَن جاد بالوصل لم يلعب بهجران

وأمر فغُنّيَ فيه . غَنّت فيما أرى فيه هَزارُ لحناً ، وهو رمَلٌ مُطلق .

حدثني جعفر قال :

كان لعبد الله بن المعتزّ غلامٌ يحبه ، وكان يغنّي غناءً صالحاً ، يقال له « نَشوانُ » . فَجُدِر وجزع عبدُ الله لذلك جزعاً شديداً ، ثم عُوفيَ ولم يؤثّر الجدريُّ في وجهه أثراً قبيحاً . فدخلتُ اليه ذات يومٍ فقال لي : يا أبا القاسم ، قد عُوفيَ فلانٌ بعدَك ، وخرج أحسنَ مما كان ، وقلت فيه بيتين وغنّت زِريابُ فيهما رمَلًا ظريفاً ، فاسمعهما إنشاداً الى أن تسمعهما غِناءً . فقلت : يتفضّل الأمير ، أيده الله تعالى ، بإنشادي إيّاهما . فأنشدني :

لي قمرٌ جُدِّرَ لمّا أستوى   فزاده حُسناً فزادتْ هُمومْ
أظنّه غَنّى لشمس الضُّحى   فنقَّطته طرَباً بالنجوم

فقلت : أحسنتَ والله أيها الأمير . فقال لي : لو سمعته من زِريابَ كنتَ أشدَّ أستحساناً له . وخرجتْ زِريابُ فغنّته لنا في طريقةِ الرَّمل في أحسن غِناء ، فشربنا عليه عامّة يومنا .

(١) الجنابى : لعبة للصبيان يتجانب الغلامان فيعتصم كل واحد من الآخر .

غضب عليه غلامه نشوان فقال شعراً يترضاه به :

حدثني جعفر قال :

غضِب هذا الغلام على عبد الله بن المعتزّ ؛ فجهد في أن يترضّاه ، فلم تكن له فيه حيلة . فدخلتُ اليه فأنشدني فيه :

بأبي أنت قد تمـا ديتَ في الهجر والغضبْ
وٱصطباري عـلى صدو دِكَ يوماً من العَجب
ليس لي إن فقدْتُ وجـــهكَ في العيش من أرَب
رحِم الله مَن أعـا ن على الصلح واحتسب

قال : فضيتُ الى الغلام ؛ ولم أزل أُداريه وأرفُقُ به حتى ترَضّيتُه وجئتُه به ، فمرّ لنا يومئذٍ أطيبُ يومٍ وأحسنُه ، وغنّتنا هَزارُ في هذا الشعر رملًا عجيباً .

أخبرني الحسين بن القاسم الكاتب قال حدثني ابراهيم بن خليل الهاشميّ قال :

دخلتُ يوماً الى أبي عيسى بن المتوكّل ، فوجدتُ عبدَ الله بن المعتزّ وقد جاءه مُسلِماً ، وسِنُّه يومئذٍ دون عشرين سنة ، إذ دخل عليُّ بن محمد بن أبي الشوارب القاضي ، فأكرمه أبو عيسى ونهض اليه . فلما ٱستقرّ به المجلس قال لأبي عيسى : قد احتجتُ الى معونتك في أمرٍ دُفعتُ اليه لم أستغنِ فيه عن تكليفك المعاونةَ . قال : وما هو ؟ قال : زوّجتُ بنتاً من بناتنا رجلًا من أهلنا ، فخرج عن مذاهبنا، وأساء عِشرة أهله ، وجعل منزل عيسى بن هارون أكثر مَظانّه وأوطانه ، ويهدّدنا ويُوعِدنا بشرّه ، حتى لقد نالنا من عيسى بَسطُ ليده ولسانه فينا بالقبيح والقول السيّء ، وكثرة معاونته له على ما يُزري بدينه ونسبه . وقد توعّدنا بأنه يكشف وجهه لنا في معاونة صِهرنا هذا الغاوي علينا . ولولا نسبه الذي فخرُه لنا وعارُه علينا ، لانتصفنا منه بالحقّ دون التعدّي ، إلّا أنّي أستعيذك منه . فقال له أبو عيسى : أنا أوَجّه اليه بعد انصرافك ، وأراسله بما أنا المتكفّل بعده بألّا يعود الى

عِشرته ، والضامن أن أَرُدَّ هذا الصِهرَ الى حيث تحبّ ويَقعُ بموافقتك . فشكره ودعا له وانصرف . فقال أبو عيسى : أَلا تَرَون الى هذا الرجل النَّبيه الفاضل السريّ الشريف يُدفَع الى مِثل هذا! طوبى لمن لم تكن له بنت . فقال عبدُ الله ابن المعتزّ : أيها الأمير إنّ لولدك في هذا المعنى شيئاً قاله وأستحسنه جماعةٌ ممن يعلم ويقول الشعر . فقال : هاتِه فِداكَ عمُّك . فأنشده لنفسه :

وبِكرٍ قلتُ موتي قبل بعلٍ ... وإن أثرى وعُدَّ من الصَّميمِ
أأمزُجُ باللِّئام دَمي ولحمي ... فما عُذري الى النَّسبِ الكريمِ

فقال له أبو عيسى : أمتعَ الله أهلك ببقائك، وأحسن اليهم في زيادة إحسانه اليك، وجمَّلهم بكمال محاسنك ، ولا أرانا شرًّا فيك .

أخبرني الحسين بن القاسم قال حدثني عبدُ الله بن موسى الكاتب قال :

دخلت على عبد الله بن المعتزّ وفي داره طبقاتٌ من الصُّنّاع ، وهو يبني داره ويُبيِّضها . فقلت : ما هذه الغرامةُ الحادثة ؟ فقال : ذلك السَّيلُ الذي جاء مُذْ ليالٍ أحدَث في داري ما أحوَج الى الغرامة والكُلفة ، وقال :

ألا مَن لنفسٍ وأحزانِها ... ودارٍ تَداعى بحيطانِها
أَظَلُّ نهاريَ في شمسها ... شقيّاً مُعنًّى ببنيانها
أُسوِّد وجهي بتبييضها ... وأهدِم كيسي بعُمرانها

حدثني جعفر بن قُدامة قال :

كنت عند عبد الله بن المعتزّ ومعنا النُّميريّ ، وحضرَتِ الصلاةُ ، فقام النُّميريّ فصلّى صلاةً خفيفةً جداً ، ثم دعا بعد انقضاء صلاته وسجد سجدةً طويلةً جداً ، حتى أستثقله جميعُ مَن حضر بسببها ، وعبدُ الله ينظُر اليه متعجّباً ثم قال :

صلاتُك بين الوَرى نَقرَةٌ كما اختلس الجرعةَ الوالغُ
وتسجُد من بعدها سَجدةً كما خُتم المِزوَدُ(١) الفارغُ

أخبرني الحسين بن القاسم قال حدثني عبيد الله بن موسى الكاتب قال :

كانت بنت الكراعة تألَف عبدَ الله بن المعتزّ ، وكان يحب غناءها ويستظرفها ويحبُّها ويواصل إحضارها ، ثم انقطعت عنه فقال :

ليتَ شِعري بمن تَشاغلتِ بَعدي وهو لا شكّ جاهلٌ مغرورُ
هكذا كنتُ مِثلَه في سرورٍ وغَداً في الهموم مِثلي يَصيرِ

حدثني جعفر بن قُدامة قال :

كنّا عند ابن المعتزّ يوماً ومعنا النُّميريّ ، وعنده جاريةٌ لبعض بنات المغنّين تغنّيه ، وكانت مُحسِنة إلّا أنها كانت في غايةٍ من القُبح ، فجعل عبدُ الله يُجمّشُها ويتعلّق بها . فلمّا قامت قال له النُّميريّ : أيها الأمير ، سألتُك بالله أتتعشّق هذه التي ما رأيتُ قطّ أقبحَ منها ؟ فقال عبدُ الله وهو يضحك :

قلبي وثّابٌ الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباهُ
يَهيمُ بالُحسن كما ينبغي ويرحَم القُبحَ فيهواه

أخبرنا الحسين بن القاسم قال حدثني أبو الحسن الأمويّ قال حدثني عبد الله ابن المعتزّ قال :

كانت خُزامَى جاريةُ الضبط المغنّي تُنادمني وأنا حدَثٌ ثم تركتِ النبيذ . وكانت مُغنّيةً مُحسنةً شاعرةً ظريفةً . فراسلتُها مراراً فتأخرتْ عنّي ، فكتبتُ اليها :

رأيتُكِ قد أظهرتِ زُهداً وتوبةً فقد سَمُجتْ من بعد توبتكِ الخمرُ

---

(١) المزود : وعاء الزاد .

فأهدَيتُ وَرداً كي يُذَكِّر عِيشةً   لمن لم يُمتِّعنا ببهجتهـا الدّهر

فأجابت :

أتاني قريضٌ يا أميري مُحَـبَّرٌ   حَكى لي نظمَ الدُّرِّ فُصِّلَ بالشَّذْرِ[١]
أأنكرتَ يابن الأكرمين إنابتي   وقد أفصحتْ لي ألسُن الدهر بالزَّجر
وآذنني شَرْخُ الشَّباب ببَينِـه   فيا ليتَ شعري بعد ذلك ما عُذري

حدثني جعفر بن قُدامة قال :

كنت أسرَح مع عبد الله بن المعتزّ في يومٍ من أيام الربيع بالعبّاسيَّة[٢] والدنيا كالجنَّة المُزَخرَفة . فقال عبد الله :

حَبَّـذا آذارُ شهراً   فيـه للنَّوْرِ انتشارُ
ينقُص الليلُ إذا جا   ء ويمتـدُّ النهـار
وعلى الأرض اخضرارٌ   واصفـرارٌ واحمرار
فكأنّ الرَّوضَ وَشيٌ   بالغتْ فيـه التِّجار
نَقشُـه آسٌ ونسريـــنٌ[٣] ووردٌ وبَهـار[٤]

أخبرني محمد بن يحيي الصُّوليّ قال :

كتب عبدُ الله بن المعتزّ إلى عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد استخلَف مؤنسٌ[٥] ابنه محمد بن عُبيد الله على الشُّرطة ببغداد :

---

(١) الشذر : خرز تفصل به الجواهر في النظم .
(٢) العباسية : محلة كانت ببغداد منسوبة الى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .
(٣) النسرين : ورد أبيض عطري قويّ الرائحة .
(٤) البهار : نبت طيب الريح جعد له فقاحة صفراء ينبت أيام الربيع .
(٥) مؤنس : هو مؤنس الخادم . وكان يلقب بالمظفر لما عظم أمره . عاش تسعين سنة منهـا ستون سنة أميراً .

فَرِحتُ بما أضعافُه دون قدركم — وقلتُ عسى قد هبَّ من نومه الدَّهرُ
فترجعَ فينا دولةٌ طاهريةٌ — كما بدأتْ، والأمرُ من بعده الأمرُ
عسى الله، إنَّ الله ليس بغافلٍ — ولا بدَّ من يُسرٍ إذا ما انتهى العُسر

فكتب اليه عُبيد الله قصيدةً منها:

ونحن اذا ما نالنا مَسُّ جَفوةٍ — فِمنّا على لأوائها الصَّبر والعذرُ
وإن رجعتْ من نعمة الله دولةٌ — إلينا فِمنّا عندها الحمدُ والشكر

قال: وجاءه محمد بن عُبيد الله بعَقِب هذا شاكراً لتهنئته، ثم لم يَعد إليه مدةً طويلة. فكتب إليه عبدُ الله بن المعتزّ:

قد جئتنا مرةً ولم تَعد — ولم تَزُر بعدها ولم تَعِدِ
لستُ أرى واجداً بنا عِوَضاً — فاطلُب وجرِّب واستَقْص واجتهد
ناولَني حبلَ وَصلهِ بيدٍ — وهجرَه جاذباً له بيد
فلم يكن بين ذا وذا أمدٌ — إلا كما بين ليلةٍ وغد

* * *

صوت

أمِنْ[1] أمِّ أوفى دِمنةٌ لم تَكلَّمِ — بحَومانةِ الدَّرّاج فالمُتثلَّمِ
بها العِينُ والآرام يَمشين خِلفةً — وأطلاؤها[2] يَنهضنَ من كل مَجثَمِ
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجةً — فلأياً عَرفت الدار بعد توهُّمِ

(١) أمن أمّ أوفى: يريد أمن منازل أمّ أوفى.

(٢) الأطلاء: جمع طلا وهو ولد البقرة والظبية الصغير. وقوله ينهضن: يعني أنهن ينمن أولادهن اذا أرضعنهن ثم يرعين.

فلمّا عرفتُ الدارَ قلتُ لِرَبعِها ألَا عِمْ صباحاً أيُّها الرَّبع واسْلَمِ
وَمَن يَعصِ أطرافَ الزِّجاج فإنّه يُطيع العوالي رُكِّبت كلَّ لَهذَم
وَمَن هاب أسباب المنيَّة يَلقها ولو رام أسبابَ السماء بسُلَّم

عرُوضه من الطويل . الحَوْمانة ، فيما ذكر الأصمعي ، الأرضُ الغليظة ، وجمعُها حَوامينُ . وقال غيرُه : الحَوْمانة : ما كان دون الرَّمل . والدَّرّاجُ والمتثلَّم : موضعان . وروى أبو عمرو عن بعض ولدِ زُهير «الدُّراج» مضمومةَ الدال. والعِينُ : البقَرُ . والآرام[1] تسكن الجبال . خِلفةً : يذهب فَوجٌ ويجيء فوجٌ يخلُفه مكانَه . ويُروى : مَجثَم ومَجثِم . فمن قال مجثَم قال : جَثَم يجثُم جثوماً ، ومن قال مَجثِم قال : جَثَم يَجثِم جَثماً ، واللّأيُ : البطء . الزِّجاجُ : جمع زُجّ . قال : وأصله أن القوم كانوا إذا أرادوا صلحاً قلبوا زِجاج الرماح إلى فوق ، فإن أبَوْا إلّا الحربَ قلَبوا الأسِنَّة . واللَّهذَم : السِّنان المحدَّد ؛ يقال رمح لَهذَمٌ وسِنانٌ لَهذَمٌ : حادّ . وأم أوْفى : امرأة كانت لزُهير فطلّقها . وله في ذلك خبرٌ يُذكر بعد هذا .

الشعر لزُهير بن أبي سُلمى ، والغناء للغريض ، ثاني ثقيلٍ بإطلاق الوتر في مجرى البِنصر عن إسحاق في الاوّل والثاني من الابيات . وفيها لبَذْل الكبيرة ثقيلٌ أوّل بالبِنصر . ولعلّويه في الثالث والرابع ثقيل أوّل . ولإبراهيم ثاني ثقيل بالوسطى في الخامس والسادس . وفيهما ثقيل أوّل يقال إنه ليزيد حَوْراء .

---

(١) الآرام من الظباء . البيض الخالصة البياض .

نسب زهير وأخباره

هو زهير بن أبي سُلمى . واسم أبي سُلمى ربيعة بن رياح بن قُرَّةَ بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن الأصمّ بن عثمان بن عمرو بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مُضر بن نِزار . ومُزَينةُ أمُّ عمرو بن أدّ هي بنت كلب بن وَبرة .

وهو أحدُ الثلاثة المُقدّمين على سائر الشعراء ، وإنما اختُلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه . فأمّا الثلاثة فلا اختلاف فيهم ، وهم امرؤ القيس وزُهير والنّابغة الذُّبيانيّ .

قال جرير هو شاعر الجاهلية :

أخبرني أبو خليفة عن محمد بن سلّام عن أبي قيس عن عِكرِمة بن جرير عن أبيه قال : شاعر أهل الجاهلية زُهير .

قال عمر لابن عباس إنه شاعر الشعراء :

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الَجوهريّ قال حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثنا هارون بن عمر قال حدثنا أيوب بن سُويد قال حدثنا يحيى بن يزيد عن عمر بن عبد الله اللّيثيّ عن ابن عباس قال :

قال عمر بن الخطاب ليلة مَسيره إلى الجابية[1] : أين ابن عباس؟ فأتيته ؛ فشكا

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران .

تخلّف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنـه . فقلت : أو لم يعتذر اليك ؟ قال بَلى ، قلت : فهو ما اعتذَر بـه . ثم قال : أول مَن ريّثكم عن هذا الأمر أبو بكر . إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة – ثم ذكر قصّةً طويـلةً ليست من هذا الباب فتركتها أنا – ثم قال : هـل تروي لشاعر الشعراء ؟ قلت : ومن هو ؟ قال : الذي يقول :

ولو أنّ حمداً يُخلِدُ الناس أخلدوا ولكنّ حمدَ الناس ليس بمُخلدِ

قلت : ذاك زُهير . قال : فذاك شاعرُ الشعراء . قلت : وبِمَ كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يُعاظِل في الكلام وكان يتجنّب وحشيّ الشعر ، ولم يمدح أحداً إلّا بما فيه . قال الأصمعيّ : يعاظل بين الكلام : يداخل فيـه[1] . ويقال : يتّبع حُوشيّ الكلام ، ووحْشيّ الكلام ، والمعنى واحد .

كان قدامة بن موسى يقدّمه على سائر الشعراء :

أخبرنا أبو خليفة قال قال ابن سَلّام وأخبرني عمر بن موسى الجُمَحيّ عن أخيه قُدامةَ بن موسى – وكان من أهل العلم – : إنه كان يُقدّم زُهيراً . قلت : فأي شيء كان أعجب إليه ؟ قال : الذي يقول فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ من هَرمٍ والسائلون الى أبوابـه طُرُقَا

قال جرير هو أشعر أهل الجاهلية :

قال ابن سلّام وأخبرني أبو قيس العَنبريّ – ولم أرَ بدوياً يَفي بـه – عن عِكرمة ابن جرير قال :

قلتُ لأبي : يا أبتِ مَن أشعرُ الناس ؟ قال : أعن الجاهليّة تسألـني أم عن

(١) يعاظل الكلام : يحمل بعضه على بعض ويتكلم بالرجيع من القول ويكرر اللفظ والمعنى .

الإسلام؟ قلت. ما أردتُ إلا الإسلام. فإذ ذكرتَ الجاهليــة فأخبرني عن أهلها. قال: زُهير أشعرُ أهلهــا. قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق نَبعةُ الشعر. قلت: فالأخطل؟ قال: يُجيد مَدح الملوك ويُصيب وصفَ الخمر. قلت: فمــا تركتَ لنفسك؟ قال: نحرتُ الشعرَ نحراً.

قال عنه الأحنف ابن قيس هو أشعر الشعراء:

أخبرني الحسن بن علي قال أخبرنا الحارث بن محمد عن المدائنيّ عن عيسى بن يزيد قال.

سأل معاوية الأحنفَ بن قَيس عن أشعر الشعراء، فقال: زهير. قــال: وكيف؟ قال: ألقى عن المادحين فضولَ الكلام. قال: مِثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

فما يَكُ من خيرٍ أَتَوْه فإنما   تَوَارثه آباءُ آبائهم قَبلُ

مدح عمر بن الخطاب شعره:

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثنا عبــدُ الله بن عمرو القيسيّ قال حدثنا خارجةُ بن عبد الله بن سليمان عن زيد بن ثابت عن عبد الله بن أبي سُفيان عن أبيه عن ابن عباس، قال: وحدّثنيه غيرُه وهو أتم من حديثه، قال قال ابن عباس:

خرجتُ مع عمر في أول غَزاةٍ غزاها. فقال لي ذات ليلة: يا بن عباس أنشدني لشاعر الشعراء. قلتُ: ومن هو يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ابن أبي سُلمى. قلت: وبمَ صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتَّبع حُوشي الكلام، ولا يُعاظِل من المنطق، ولا يقول إلا ما يعرف، ولا يمتدح الرجلَ إلا بما يكون فيه. أليس الذي يقول:

إذا ابتدرت قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً من المجدِ من يسبِقْ إليها يُسوَّدِ
سبقتَ إليها كلَّ طلقٍ مُبرِّزٍ سبُوق إلى الغايات غير مُزَنَّد
كفعل جوادٍ يَسبِقُ الخيلَ عفوُه الـــسِّراع وإن يجهد ويَجهدْنَ يَبعُد
ولو كان حمدٌ يُخلِد الناس لم تَمُتْ ولكنَّ حمدَ الناس ليس بمُخلِد

أنشدني له ، فأنشدته حتى بَرق الفجرُ . فقال : حسبك الآن ، إقرأ القرآن ، قلت : وما أقرأ ؟ قال : اقرأ الواقعة ، فقرأتُها ونزل فأذَّن وصلَّى .

أخبرني محمد بن القاسم الأنباريّ قال حدثني أبي قال حدّثنا أحمد بن عُبيـد قال أخبرنا أبو عُبيدة عن عيسى بن يزيد بن بكر قال قال ابن عباس : خرجت مع عمر ، ثم ذكر الحديثَ نحوَ هذا .

استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم فما قال شعراً حتى مات :

وجدتُ في بعض الكتب عن عبد الله بن شَبيب عن الزُّبـير بن بكّار عن حُميد بن محمد بن عبد العزيز الزُّهريّ عن أخيه إبراهيم بن محمد يرفعه :

أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم نظر إلى زهير بن أبي سُلمى وله مائـة سنة فقال : « اللهم أعِذني من شيطانه » فما لاك بيتاً حتى مات .

قال ابن الأعرابيّ وأبو عمرو الشيباني :

كان من حديث زهير وأهلِ بيته أنهم كانوا من مُزينـة ، وكان بنو عبد الله ابن غَطَفان جيرانَهم ، وقِدماً ولدتهم بنو مُرّة . وكان من أمرِ أبي سُلمى أنـه خرج وخالـه أسعد بنَ الغدير بن مُرّة بن عَوف بن سعد بن ذُبيان بن بغيض وابنه كعبَ بن أسعد في ناس من بني مُرّة يُغيرون على طيء ، فأصابوا نَعماً كثيرة وأموالاً فرجعوا حتى انتهوا الى أرضهم . فقال أبو سُلمى لخاله أسعـد وابن خاله كعب : أفردا لي سَهمي ، فأبيا عليه ومنعاه حقّه ، فكفّ عنهما ؛ حتى إذا كان

الليلُ أتى أمّه فقال : والذي أحلِف به لَتَقُومِنّ الى بعيرٍ من هذه الإبل فلتقعُدِنّ عليه أو لأضرِبَنّ بسيفي تحت قُرطيكِ. فقامت أمّه إلى بعيرٍ منها فاعتنقت سنامه، وساق بها أبو سُلمى وهو يرتجز ويقول :

وَيْلٌ لأجمال العجوز منّي إذا دنوتُ ودنونَ منّي
كأنني سَمَعمعٌ من جنِّ

– سَمَعمعٌ : لطيفُ الجسم قليلُ اللحم – وساقَ الإبلَ وأمّه حتى انتهى إلى قومه مُزينةَ . فذلك حيث يقول :

ولتغدُوَن إبِــلٌ مجنَّبةٌ من عند أسعد وابنه كعب

– مُجنَّبة : مجنوبة –

الآكلــين صَريح قومهما أكلَ الحُبارَى[1] بُرْعُمَ الرُّطبِ[2]

– البُرعم : شجرة ولها نَورٌ – قال : فلبِث فيهم حيناً، ثم أقبل بمُزَينة مُغيراً على بني ذُبيان . حتى إذا مُزَينةُ أسهلتْ وخلّفتْ بلادهــا ونظروا إلى أرض غَطَفان، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحده . فذلك حيث يقول :

مَن يشتري فرساً لخيرٍ غزوُها وأبَتْ عشيرةُ ربِّها أن تُسهِلا

يعني أن تنزل السهلَ . قال : وأقبل حين رأى ذلك من مُزَينة حتى دخل في أخواله بني مُرّة . فلم يزل هو وولده في بني عبد الله بن غَطَفان الى اليوم .

وقصيدة زُهير هذه أعني :

(١) الحبارى : طائر يضرب به المثل في البلاهة والحمق، هو طائر صحراوي يبيض في الرمال النائية.
(٢) الرطب : الرعي الأخضر من البقل والشجر، وقيل جماعة العشب الأخضر .

أمِنْ أمِّ أوفى دِمنةٌ لم تَكلَّمِ

قالها زُهير في قتل وَرْد بن حابِس العَبْسيّ هَرِمَ بن ضَمضَم المُرّيّ الذي يقول فيه عَنتَرَة وفي أخيه :

ولقد خَشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ   للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمضَمِ

ويمدح بها هَرِمَ بن سِنان والحارثَ بن عَوف بن سعد بن ذُبيان المُرّيّين لأنهما أحتملا دِيته في مالهما ؛ وذلك قول زُهير :

سَعَى ساعياً غَيظِ بن مُرّةَ بعدما   تَبزّلَ[1] ما بين العَشيرة بالدّمِ

يعني بني غَيظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان .

قال الأثرم أبو الحسن حدثني أبو عُبيدة قال :

كان وَرد بن حابس العبسيّ قتل هَرِمَ بن ضَمضم المُرّيّ ، فتشاجر عَبسٌ وذُبيان قبل الصلح ، وحلف حُصَين بن ضمضم ألّا يغسِل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلًا من بني عبس ثم من بني غالب ، ولم يُطلِع على ذلك أحداً ، وقد حَمل الحَمالة[2] الحارثُ بن عوف بن أبي حارثة ، وقيل بل أخوه حارثة بن سِنان . فأقبل رجلٌ من بني عَبس ثم أحدُ بني مخزوم ، حتى نزل بحُصين بن ضمضم . فقال له حُصين : مَن أنتَ أيها الرجل ؟ قال : عَبسيٌّ . قال : من أيّ عَبس ؟ فلم يزل يَنتسب حتى انتسب إلى بني غالب ، فقتله حُصين . وبلغ ذلك الحارثَ بنَ عَوف وهَرِم بنَ سِنان فاشتدّ عليهما ، وبلغ بني عبسٍ فركبوا نحو الحارث . فلمّا بلغه ركوبُهم إليه وما قد اشتدّ عليهم من قتل صاحبهم وأنهم يريدون قتل الحارث ، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنُه ، وقال للرسول : قل لهم : الإبلُ

---

(١) تبزل : تشقق ، وبالدم : يريد بسفك الدم .

(٢) الحمالة : الدية .

أحبُّ إليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتى قال لهم ذلك . فقال لهم الرّبيع بن زياد : يا قوم إنّ أخاكم قد أرسل إليكم : « الإبلُ أحبُّ إليكم أم ابني تقتلونه مكانَ قتيلكم » . فقالوا نأخذ الإبل ونصالح قومَنا ، ونُتِمُّ الصُّلحَ . فذلك حين يقول زهير يمدح الحارث وهَرِماً :

أمِن أمِّ أوفَى دِمنةٌ لم تَكَلَّمِ

وهي أول قصيدة مدح بها هَرِماً ، ثم تابع ذلك بعدُ .

قصة زواج الحارث بن عوف ببهيسة بنت أوس :

وقد أخبرني الحسن بن علي بهذه القصة ، وروايته أتمُّ من هذه ، قال : حدثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبيّ قال حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن عَوف عن أبيه قال :

قال الحارثُ بن عَوف بن أبي حارثة : أتُراني أخطب إلى أحد فيردّني ؟ قال نعم . قال : ومَن ذاك ؟ قال : أوسُ بنُ حارثة بن لأْم الطّائيّ . فقال الحارث لغلامه : ارحَلْ بنا ، ففعل . فركبا حتى أتيا أوسَ بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله . فلمّا رأى الحارثَ بن عَوفٍ قال : مرحباً بك يا حارِ . قال : وبك . قال : ما جاء بك يا حارِ ؟ قال : جئتُك خاطباً . قال : لستَ هناك . فانصرف ولم يكلّمه . ودخل أوسٌ على امرأته مُغضَباً وكانت من عَبس فقالت : مَن رَجلٌ وقفَ عليك فلم يُطِل ولم تكلّمه ؟ قال : ذاك سيّد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرّيّ . قالت : فما لك لم تستنزله ؟ قال : إنه استحمق . قالت : وكيف ؟ قال : جاءني خاطباً . قالت : أفتريد أن تزوّج بناتك ؟ قال نعم . قالت : فإذا لم تُزوّج سيّدَ العرب فمنْ ؟ قال : قد كان ذاك . قالت : فتداركْ ما كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : تَلحقُه فتردُّه . قال : وكيف وقد فَرَط منّي ما فَرَط اليه ؟

قالت تقول له : إنك لَقِيتَني مُغضَباً بأمرٍ لم تقدِّم فيه قولًا ، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعتَ ، فانصرِفْ ولك عندي كلُّ ما أحببتَ فإنه سيفعل. فركبَ في أثرِهما . قال خارجةُ بن سِنان : فوالله إني لأسيرُ إذا حانت مني التفاتةٌ فرأيته ، فأقبلتُ على الحارث وما يُكلِّمني غمًّا فقلت له : هذا أوسُ بن حارثة في أثرنا . قال : وما نصنع به ! امضِ ! فلما رآنا لا نقف عليه صاح : يا حار اربَعْ عليَّ ساعةً . فوقفنا له فكلَّمه بذلك الكلام فرجع مسروراً . فبلغني أن أوساً لمَّا دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانة (الأكبر بناته) فأتته ، فقال : يا بُنيَّة ، هذا الحارث بن عَوف سيِّدٌ من سادات العرب ، قد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردتُ أن أُزوِّجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولِمَ ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي ردَّة[١] ، وفي خُلُقي بعضُ العُهدة[٢] ، ولستُ بابْنة عمّه فيرعى رَحِمي ، وليس بجارك في البلد فيستحيَ منك ، ولا آمنُ أن يرى مني ما يَكره فيطلِّقني فيكون عليَّ في ذلك ما فيه . قال : قُومي بارك الله عليك . ادعي لي فلانة (لابنته الوُسطى) ؛ فدعتها ، ثم قال لها مِثلَ قوله لأختها ؛ فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خَرقاء وليست بيدي صِناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلِّقني فيكونَ عليَّ في ذلك ما تعلم ، وليس بابْنِ عمي فيرعى حقِّي ، ولا جارَكَ في بلدك فيستَحيِيَكَ . قال : قومي بارك الله عليكِ . ادعي لي بُهَيسةَ (يعني الصغرى) ، فأُتِيَ بها فقال لها كما قال لهما . فقالت : أنت وذاك . فقال لها : إني قد عرضت ذلك على أُختيكِ فأبَتاه . فقالت – ولم يذكر لها مقالتيهما – لكنّي والله الجميلةُ وجهاً ، الصَّناعُ يداً ، الرفيعةُ خُلُقاً ، الحسيبةُ أباً ، فإن طلَّقني فلا أخلَفَ اللهُ عليه بخير . فقال : بارك الله عليكِ . ثم خرج الينا فقال : قد زوَّجتُك يا حارثُ بُهَيسةَ بنتَ أوس . قال : قد قَبِلتُ . فأمر أمَّهـا أن تُهيِّئها وتُصلح من شأنها ، ثم أمر

---

(١) الردة : القبح مع شيء من الجمال .

(٢) العهدة : الضعف .

ببيت فضُرب له ، وأنزله إيّاه . فلمّا هُيّئت بعث بها اليه . فلمّا أُدخلت اليه لبث هُنَيهةً ثم خرج إليّ . فقلت : أفرغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : لمّا مددتُ يدي اليها قالت : مَهْ ! أعند أبي وإخوتي !! هذا والله ما لا يكون . قال : فأمر بالرّحلة فارتحلنا ورحلنا بها معنا ، فسِرنا ما شاء الله . ثم قال لي : تقدّمْ فتقدمتُ ، وعدَل بها عن الطريق ، فما لبثَ أن لحق بي . فقلت : أفرغتَ ؟ قال لا والله . قلت : ولِمَ ؟ قال : قالت لي : أكما يُفعَل بالأَمَةِ الجَليبةِ أو السَّبِيَّة الأخيذة ! لا والله حتى تنحرَ الجُزُرَ ، وتذبح الغنمَ ، وتدعوَ العربَ ، وتعمَلَ ما يعمل لمثلي . قلتُ : والله إني لأرى هِمّةً وعقلاً ، وأرجو أن تكون المرأة مُنجبةً إن شاء الله . فرحلنا حتى جئنا بلادَنا ، فأحضرَ الإبلَ والغنمَ ، ثم دخل عليها وخرج إليّ . فقلت : أفرغتَ ؟ قال لا . قلت : ولِمَ ؟ قال : دخلتُ عليها أُريدها ، وقلتُ لها قد أحضرنا من المال ما قد ترَين ، فقالت : والله لقد ذكرتَ لي من الشرف ما لا أراه فيك . قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرُغ لنكاح النساء والعربُ تقتل بعضها ! (وذلك في أيام حرب عَبس وذُبيان) . قلت : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرُج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك . فقلت : والله إني لأرى هِمّةً وعقلاً ، ولقد قالت قولاً . قال : فاخرُج بنا . فخرجنا حتى أتينا القومَ فمشَينا فيما بينهم بالصلح ، فاصطلحوا على أن يحتسِبوا القتلى ؛ فيؤخذَ الفضل ممن هو عليه ، فحملنا عنهم الدّياتِ ، فكانت ثلاثةَ آلاف بعير في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذّكر . قال محمد بن عبد العزيز : فمُدِحوا بذلك ، وقال فيه زُهير بن أبي سُلمى قصيدته :

أمِنْ أمّ أوفى دِمنةٌ لم تَكلَّمِ

فذكرهما فيها فقال :

تداركتما عَبساً وذُبيانَ بعد ما ... تفانَوْا ودقّوا بينهم عِطرَ مَنشَمِ
فأصبح يجري فيهمُ من تِلادكم ... مَغانمُ شتّى من إفالِ[١] المُزَنَّمِ

(١) الإفال : جمع أفيل وهو الصغير من الإبل ، والمزنّم : اسم فحل معروف . والتلاد : المال القديم الموروث .

يُنَجِّمُها[1] قومٌ لقومٍ غرامةً ولم يُهَرِيقوا بينهم مِلْءَ مِحْجَمِ

وذكر قيامهم في ذلك فقال :

« صحا القلبُ عن سَلمى وقد كاد لا يسلو »

وهي قصيدة يقول فيها :

تداركتما الأحلافَ[2] قد ثُلَّ عرشُها وذُبيانَ قد زلَّتْ بأقدامِها النَّعلُ

وهذه لهم شرفٌ الى الآن . ورجع فدخل بها ، فولدَت له بنين وبنات .

ومما مدح به هَرِماً وأباه وإخوتَه وغُنِّيَ فيه قوله :

صوت

إنَّ الخليطَ[3] أجدَّ البينَ فانفرقا وعُلِّقَ القلب من أسماء ما عَلِقا
وأخلفتْكَ ابنةُ البكريِّ ما وعدتْ فأصبح الحبلُ منها واهناً خَلَقا
قامت تَبَدَّى بذي ضالٍ لِتَحزُنَني ولا محالة أن يشتاقَ مَن عَشِقا
بجيدِ مُغزِلَةٍ أدماءَ خاذِلَةٍ من الظباء تُراعي شادناً خَرِقا

انفرق : انفعل ، من الفُرقة . وأجدَّ وجدَّ بمعنًى واحد ، من الجِدِّ خلاف اللعب .
والواهن والواهي واحد . والحبل : السببُ في المودّة . والضَّال : السِدرُ الصغار ،

---

(١) ينجمها قوم : أي تجعل نجوماً أي أقساطاً على غارمها . يريد أن هذين الساعيين حملا دماء من قتل وغرم فيها قوم من رهطها على أنهم لم يصبوا ملء محجم من دم ، أي أعطوا فيها ولم يقتلوا .

(٢) الأحلاف : أسد وغطفان وطيء ، وثل عرشها : أي أصابها ما كسرها وهدمها . وذبيان : قبيلة الممدوحين وهم من غطفان .

(٣) الخليط : المخالط ، ويقال للجمع أيضاً خليط .

واحدتُها ضالّة . والجيد : العُنق . والمُغزِلةُ : الظبية التي لها غزال . والأدماء : البيضاء . والخاذلة : المقيمة على ولَدِها ولا تتبع الظباء . والشّادِنُ : الذي قد شدَن أي تحرّك ولم يَقوَ بعدُ . والخرِق : الدَّهِشُ .

غَنّى مالك في الأوّل والثاني من الأبيات خفيف رمَل بالوسطى ، وقيل إنه لابن جامع ، وقيل بل لحنُ ابن جامع بالبِنصر . وفي الثالث والرابع لابن المكيّ رمَلٌ صحيحٌ من روايتَيْ بَذْل والهشاميّ .

وفي هذه القصيدة يقول يمدح هَرِماً :

قد جعل المبتغون الخيرَ من هَرِمٍ والسائلون الى أبوابه طُرُقَا
من يَلقَ يوماً على عِلّاته هَرِماً يَلقَ السماحةَ منه والنّدى خُلُقا
ليثٌ بعثَّرَ[1] يصطاد اللُيوثَ إذا ما الليثُ كذّب عن أقرانه صَدَقا
يطعَنُهم ما ارتَموا حتى إذ اطّعنوا ضاربَ حتى اذا ما ضارَبوا اعتنقا[2]

خرف سنان بن أبي حارثة ثم مات فرثاه :

ومن مدائحه إيّاهم قوله يمدح أبا هَرِمٍ سِنان بن أبي حارثةَ . وذكر ابن الكلبيّ أنه هوي امرأةً فاستُهيم بها ؛ وتَفاقَم به ذلك حتى فُقِد فلم يُعرَف له خبر . فتزعم بنو مُرّة أنّ الجنّ استطارته فأدخلته بلادَها ، واستعجلته لكرَمه . وذكر أبو عُبَيدة أنه قد كان هَرِمَ حتى بلغ مائةً وخمسين سنة ؛ فهام على وجهه خَرَفاً ففُقِد . قال : فزعم لي شيخٌ من علماء بني مُرّة أنه خرج لحاجته بالليل فأبعد ، فلمّا رجع ضلّ فهام طولَ ليلته حتى سقط فمات ، وتبع قومُه أثرَه فوجدوه ميتاً . فرثاه زُهَير بقوله :

(١) عثّر : اسم موضع باليمن .

(٢) اعتنق : التزم قرنه .

إنّ الرَّزِيّةَ لا رَزِيّةَ مِثلُها ... ما تبتغي غَطَفانُ يومَ أَضلّتِ
إنّ الرِّكابَ(١) لتبتغي ذا مِرّةٍ ... بجُنُوبِ نَجدَ إذا الشهورُ أَحلّت
يَنعَيْنَ خيرَ الناس عند شديدةٍ ... عَظُمتْ مصيبتُه هناك وَجلّت
ومُدَفَّعٍ ذاقَ الهوانَ مُلعَّنٍ ... راخيتَ عُقدةَ حبله فانْحلّت
ولَنِعمَ حشوُ الدِّرعِ كان إذا سطا ... نَهِلَتْ من العَلَقِ(٢) الرِّماحُ وعَلّت

والذي فيه غِناء من مدائح زُهير قولُه :

صوت

أَمِن أُمِّ سَلمى عرفتَ الطُّلولا ... بذي حُرُضٍ ماثلاتٍ مُثولا
بَلِينَ وتحسَبُ آياتِهن ... على فَرطِ حولَين رَقًّا مُحيلا(٣)

الماثل ها هنا : اللاطئ بالأرض، وفي موضع آخر : المُنتصِبُ القائم . وذو حُرُض : موضعٌ . والحُرُضُ : الأشنان . وآياتُهنّ : علاماتُهنّ . وفَرطُ حولَين : تقدُّمُ حولين ، والفارِط : المتقدّم .

غنّى في هذين البيتين اسحاق ، وله فيهما لحنان : أحدهما ثاني ثقيل بإطلاق الوَتَر في مجرى البِنصر ، من كتابه . والآخر ماخُوريٌّ من مجموع غِنائه ، وروايته عن الهِشاميّ . وفيهما للزُّبَير بن دَحْمانَ خفيفُ ثقيلٍ أوّل بالبِنصر عن عمرو . يقول فيها :

إليك سِنانُ الغَداةَ الرَّحيلُ ... أُعصي النُّهاةَ وأُمضي الفُؤولا

---

(١) الركاب : الإبل ، والمراد راكبوها .

(٢) العلق : الدم .

(٣) المحيل : الذي أتى عليه حول .

جمع فأل ، أي لا أتطيّر .

فــلا تأمَني غَزْوَ أفراسِــه بَني وائــل ٍ وأحذَريه جَديلا
وكيف أتقـاءُ أمرىءٍ لا يؤو ب بالقوم في الغَزوِ حتى يُطيلا

ومن الغناء في مدائح هَرِم قوله :

صوت

قِفْ بالدّيار التي لم يَعفُها القِدَمُ بَلى وغيّرهـا الأرواحُ والدِّيَمُ
كأنّ عيني وقد سال السَّليلُ بهم وَعبرَةٌ مـا هُمُ لو أنّهم أَمَمُ
غَرْبٌ على بَكرة أو لؤلؤٌ قَلِقٌ في السِّلك خان به ربّاته النُّظُم

الدِّيَمُ : جمع دِيمة وهو المطر الذي يدوم يوماً أو يومين مع سكون . سال السَّليل بهم : أي ساروا فيه سيراً سريعاً . والسَّليلُ : وادٍ . وقوله وَعبرةٌ ما هُمُ أي هم عَبرةٌ ، وما هاهنا صِلةٌ . لو أنهم أَمَم أي قَصدٌ كنتُ أزوهم . والأَمَمُ : بين القريب والبعيد . والقَلِقُ : الذي لم يستقرّ لما انقطع الخيط . والنُّظُمُ : جمع واحدها نِظام ، شبّه دموعَه بلؤلؤ انقطع سِلكُه ، وعاء سال من الغرب .

الغناء في هذه الأبيات رَمَلٌ لابن المكيّ بالوسطى عن عمرو . وذكر عمرو أن لإسحاق فيها لحناً أيضاً . وذكر يونس أن فيها لحناً لمالك .

صوت

لمن الدّيارُ بقُنّــةِ الحِجرِ[1] أقوَيْنَ مُذ حِجَجٍ ومُذ دَهرِ

(١) الحجر : حجر اليمامة .

لَعِبَ الرِّياحُ بها وغيَّرها ... بعدي سَوافي الرِّيح والقَطْرِ
دَع ذا وعَدِّ القولَ في هَرِمٍ ... خيرِ الكُهولِ وسيِّدِ الحَضَرِ
لو كنتَ من شيءٍ سوى بَشَرٍ ... كنتَ المُنَوِّرَ ليلةَ البَدرِ

القُنَّةُ : الجبل الذي ليس بمنتشر . أقوَيْنَ : خَلَوْنَ . والسَّوافي : ما تَسفي الرياح . قال : والقطرُ مخفوضةٌ بنَسَقِه على الريح، والقَطرُ لا سَوافيَ له . وهذا تفعله العرب في المجاورة ، وهو مثل قولهم : جُحرُ ضَبٍّ خَرِبٍ .

غنَّى في هذه الأبيات سائب خاثر من رواية حَمَّاد عن أبيه ، ولم يجنِّسه . وفيه ثقيلٌ أوّل بالبنصر نسبه عمرو بن بانة الى مَعبَد ، ونسبه غيرُه الى سائب ، والى الأوسيَّة مما ذكرَ حَبَشٌ . قال : وهي من قِيان الحجاز القدائم مولاةٌ للأوس .

ومنها قوله يمدح سِنانَ بن أبي حارثة :

صوت

صَحا القلبُ عن سَلمى وقد كاد لا يَسلو ... وأقفَرَ من سَلمى التَّعانيقُ فالثِّقلُ
وقد كنتُ من سَلمى سنينَ ثمانياً ... على صِيرِ أمرٍ ما يمرُّ وما يحلو
وكنتُ إذا ما جئتُ يوماً لحاجة ... مَضَتْ وأجَمَّتْ حاجةُ الغدِ ما تخلو
وكلُّ محبٍّ أحدثَ النأيُ عنده ... سُلُوَّ فؤادٍ غيرَ حُبِّكِ ما يَسلو
تأوَّبني ذِكرُ الأحِبَّةِ بعدَ ما ... هَجَعتُ ودوني قُلَّةُ الحَزن فالرَّمل
فأقسمتُ جَهداً بالمنازل من مِنًى ... وما سُحِقَتْ فيه المَقاديمُ والقَمل
لأرتَحِلَنْ بالفجر ثم لأدأبَنْ ... الى الليل إلّا أن يُعَرِّجَني طِفل
وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلّا وَشيجُه ... وتُغرَسُ إلّا في مَنابتها النَّخل

التَّعانيق والثِّقل : موضعان . ويُروى : فالنَّخل . وقوله على صِيرِ أمرٍ : أي على شرَف أمرٍ . وأجَمَّت : دَنت . وتأوّبني : أتاني ليلاً . والتأويب : سَيرُ يومٍ الى الليل . سُحِقَتْ : حُلِقَت ، يقال سَحَف رأسه وسَبَتَه وجَلَطه : حلقه . وقوله

«يُعَرِّجني طِفلُ» قال يقال الطِّفل : الليل ، ويقال الطِّفل : مَغيبُ الشمس ، وقال أبو عُبيدة : الطفل : الحزنُ ، وإيقادُه نارَ التَّحبير . والخطِّيُّ : رِماحٌ نَسَبَها الى الخطّ وهي من جزيرة بالبحرين تُرفَأ اليه سُفُنُ الرماح . والوَشيج : القَنا واحدها وَشيجةٌ . والوُشوج : دخول الشيء بعضِه في بعض .

غَنَّى ابراهيمُ الموصليّ في الأول والثاني ثقيلاً أول بالبِنصر من رواية الهشاميّ وعمرو . وغَنَّى ابراهيم أيضاً في السادس والسابع والثامن خفيفَ ثقيلٍ . وفي الثالث لمعبد خفيفُ ثقيلٍ . ولعَلّويه في السابع والثامن خفيفُ رمَلٍ . وذكَر حبشٌ أن لإبراهيم في الثامن لحناً ماخُوريّاً .

ومن الغناء في مدائحه هرِماً قوله :

صوت

لمن طَلَلٌ برامةَ لا يَريمُ[2] عَفا وأحالَه عَهدٌ قديمُ
تَطالَعُني خيالاتٌ لسَلمى كما يَتطالعُ الدَّين الغريمُ

غَنّاه دَحمانُ ثاني ثقيلٍ بالبِنصر عن عمرو . وعَفا : درس ها هنا ، وفي موضع آخر : كثُر ، وهو من الأضداد . وخيالاتٌ : جمع خيال .

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المُهلّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبَّة ، وقال المُهلّبيّ في خبرٍ له عن الأصمعيّ قال :

أنشِد عمرُ بن الخطّاب قولَ زُهير في هَرِم بن سِنان يمدحه :

---

(١) نار التحبير : هي النار التي توقد لهداية الحائر .

(٢) لا يريم : لا يبرح .

دَعْ ذا وَعدِّ القولَ في هَرِمٍ   خيرِ الكهول وسيِّدِ الحضر
لو كنتَ من شيءٍ سوى بَشَرٍ   كنتَ المنوَّرَ ليلةَ البدر
وَلأَنتَ أوصلُ مَن سمعتُ به   لِشَوابِكِ الأرحام والصِّهر
ولَنِعْمَ حشوُ الدِّرعِ أنتَ إذا   دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ في الذُّعر
وأراكَ تَفري[1] ما خلَقتَ وبعـ   ـضُ القومِ يخلق ثم لا يَفري
أُثني عليكَ بما علمتُ وما   أسلفتَ في النَّجداتِ من ذِكْر
والسِّترُ دون الفاحشات ولا   يلقاكَ دون الخيرِ من سِتر

فقال عمر: ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

قال وقال عمر لبعض ولَدِ هَرِمٍ: أنشدني بعضَ مَدحِ زُهيرٍ أباك، فأنشده: فقال عمر: إن كان لَيُحسن فيكم القولَ. قال: ونحن والله إن كنّا لَنُحسن له العطاء. فقال: قد ذهب ما أعطيتموه وبَقِيَ ما أعطاكم.

قال: وبلغني أنّ هَرِماً كان قد حلف ألّا يمدحه زُهير إلّا أعطاه، ولا يسأله إلّا أعطاه، ولا يسلِّم عليه إلّا أعطاه: عَبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهيرٌ مما كان يقبَل منه، فكان اذا رآه في ملأٍ قال: عِمُوا صباحاً غيرَ هَرِمٍ، وخيرَكم استثنيتُ. وروى المُهلّبيّ: وخيرَكم تركتُ.

أخبرني الجوهريّ والمهلّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبَّة قال:

قال عمر لابن زُهير: ما فعلتِ الحُلَلُ التي كساها هَرِمٌ أباك؟ قال: أبلاها الدهر. قال: لكنَّ الحُلَلَ التي كساها أبوك هَرِماً لم يُبلِها الدهر. وقد ذكر الهيثمُ ابنُ عَديّ أن عائشةَ خاطبتْ بهذه المقالةِ بعضَ بناتِ زُهير.

وقال أبو زيد عمر بن شبَّة: ومما سَبَق فيه زُهير في مَدح هرمٍ ولم يَسبِقه اليه أحد قولُه:

---

(١) تفري: تقطع. وخلقت أي قدرت الأديم وهيأته للقطع والخرز.

قد جعل المبتغون الخيرَ من هَرِمٍ والسائلون الى أبوابه طُرُقا
مَن يَلقَ يوماً على عِلّاته هَرِماً يَلقَ السَّماحةَ منه والنَّدى خُلُقا
يطلب شأوَ امرأين قدَّما حَسَباً[1] بَذّا الملوكَ وبَذّا هذه السُّوَقا
هو الجوادُ فإن يَلحَق بشأوهما على تكاليفه فمِثلُه لَحِقا
أو يسبقاه على ما كان من مَهَلٍ[2] فمثلُ ما قدَّما من صالحٍ سَبقا

مدح عبد الملك بن مروان شعره :

أخبرني الجوهريّ والمهلّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبّة قال قال المدائنيّ :

قال عبد الملك بن مروان : ما يضرُّ مَن مُدحَ بما مَدَح به زهيرٌ آل أبي حارثةَ من قوله :

على مُكثِريهم رِزقُ مَن يَعتَريهم[3] وعند المقِلّين السماحة والبَذْل

ألا يملك أمورَ الناس (يعني الخلافة). قال ثم قال : ما ترك منهم زُهير غنيا ولا فقيراً إلّا وصفه ومدحه.

مدح عثمان بن عفان شعراً له :

قال ابن الأعرابيّ قال أبو زياد الكلابيّ : أنشد عثمان بن عَفّانَ قولَ زهير :

ومهما تكن عند امرئٍ من خَليقةٍ وإن خالها تخفى على النّاس تُعلَم

فقال : أحسن زُهير وصدَق ، لو أنّ رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدّث به

---

(١) المرأين : أباه وجده . يقول : تساوى أبواه بالملوك وسبقا أوساط الناس وهو يطلب سبقهما .
(٢) المهل : التقدّم .
(٣) يعتريهم : يقصدهم ويطلب ما عندهم .

الناس . قال وقال النبيّ صلى الله عليــه وسلّم : « لا تَعمَلْ عملاً تَكرَهُ أن يُتَحَدَّثَ عنك به » .

قال وقال عليّ بن محمد المدائنيّ حدثني أبن جَعدويه :

أنّ عُروةَ بن الزُّبَير لَحِقَ بعبد الملك بن مروان بعد قَتلِ أخيه عبد الله ابن الزُّبَير . فكان اذا دخل اليه منفرداً أكرمه ، وإذا دخل عليه وعنده أهــل الشام أستخفّ به . فقال له يوماً : يا أمير المؤمنين ، بئس المَزورُ أنت ؛ تُكرم ضيفَك في الخَلاَ ، وتُهينه في المَلاَ ، وقال : لله درّ زُهَير حيث يقول :

فَقَرّي في بلادك إنّ قوماً متى يَدَعُوا بلادَهُمُ يَهونوا

ثم أستأذنه في الرُّجوع الى المدينة ، فقضَى حوائجه وأذِن له . وهــذا البيت من قصيدة لزُهَير قالها في بني تميم ، وقد بلغه أنها حَشَدَتْ لغزو غَطَفان ؛ أوّلها :

ألا أبلغ لديك بــني تَميمٍ وقد يأتيك بالخبر الظَّنونُ

الظَّنون : الذي لستَ منه على ثقة . والظَّنين : المُتَّهم .

وقال أبن الأعرابي :

شعره في الحارث بن ورقاء وقد أخذ إبله وغلامه :

كان الحارث بن ورقاء الصَّيداوي من بني أسد أغار على بني عبد الله بن غَطفان فغَنِم فأستاق إبل زُهير وراعيَه يساراً . فقال زُهير :

بان الخليطُ[1] ولم يأوُوا لمن تركوا وزوّدوك أشتياقاً أيّةَ سلكوا

(١) الخليط : الأصحاب المخالطون في الدار . ولم يأووا : أي لم يرحموا ولم يرقوا .

وهي طويلة يقول فيها :

لئن حللتَ بجوٍّ(١) في بني أسدٍ ... في دِينِ(٢) عمرو وحالت بيننا فَدكُ
ليأتِيَنَّكَ مني مَنطِقٌ قَذَعٌ ... باقٍ كما دَنَّسَ القُبطيَّةَ الوَدَكُ(٣)
فاردُدْ يساراً ولا تعنُف عليه ولا ... تَمعَكْ(٤) بعِرضك إن الغادر المَعِكُ
ولا تكونن كأقوامٍ عَلِمتُهمُ ... يَلوُون ما عندهم حتى إذا نُهِكوا(٥)
طابت نفوسهمُ عن حقِّ خَصمِهمُ ... مخافةَ الشرِّ وارتدُّوا لما تَركوا

وفي هذه القصيدة مما يغنَّى فيه :

صوت

أهوى لها أسفَعُ الخدَّين مُطَّرِقٌ ... رِيشَ القوادم لم يُنصَبْ له شَرَكُ
وقد أكون أمام الحيِّ تحملُني ... جرداءُ لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ

أهوى لها — يَعني القطاة تقدَّم وصفُه إياها — صقرٌ . ورواه الأصمعيّ : « هوى لها » وقال : هوى : انقضَّ ، وأهوى : أوفى . ومُطَّرِقٌ : ريشُه بعضه على بعض ليس بمنتشر ، وهو أعتقُ له . وقوله لم يُنصَب له شَرَكٌ : أي لم يُصطد ولم يُذلَّل . والقوادِم : العشرُ المتقدِّماتُ . والفحجُ : تباعُدُ ما بين الفخذين . والصَّكَكُ : اصطكاك العُرقوبين في الدواب ، وفي الناس الركبتين . قال : فلمَّا أنشد الحارثُ هذا الشعر بعث بالغلام إلى زُهير . وقيل : بل أنشد قول زُهير :

(١) جو : واد .

(٢) والمراد بدين عمرو : طاعته وسلطانه . وفدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة .

(٣) الودك : الدسم .

(٤) المعك : المطل وزناً ومعنى .

(٥) يلوون ما عندهم أي يمطلون بما عليهم من الدين . ونهكوا : شتموا وبولغ في هجائهم .

تعلَّم أن شرّ الناس حيٌّ ... يُنادى في شعارهم[1] يَسار
ولولا عَسْبُه[2] لرددتموه ... وشرُّ مَنيحَة[3] أيرٌ مُعارُ
إذا جمحت نساؤكمُ إليه ... أشظَّ[4] كأنه مَسَدٌ مُغارُ
يُبربر[5] حين يعدو من بعيدٍ ... أليها وهو قَبقابٌ قُطارُ

فردّه عليه. فلامه قومه وقالوا له: اقتله ولا ترسل به إليه، فأبى عليهم. فقال زهير عند ذلك:

أبلغ لديك بني الصَّيداء كلَّهم ... أن يَساراً أتانا غيرَ مَغلولِ
ولا مُهانٍ ولكن عند ذي كرمٍ ... وفي حبالٍ وفيِّ العَهد[6] مأمولِ

وهي قصيدة. فقال الحارث لقومه: أيُّما أصلحُ: ما فعلتُ أو ما أردتُم؟ قالوا: بل ما فعلتَ.

قال ابن الأعرابي وحدثني أبو زِياد الكِلابي:

أن زهيراً وأباه وولدَه كانوا في بني عبد الله بن غَطَفان، ومنزلُهم اليوم بالحاجِر، وكانوا فيه في الجاهلية. وكان أبو سُلمى تزوج إلى رجل من بني فهر بن مُرّة بن عَوف بن سعد بن ذُبيان يقال له الغَدير – والغدير هو أبو بَشامة الشاعر – فولدت له زُهيراً وأوساً، ووُلد لزهير من امرأة من بني سُحيم. وكان

(١) الشعار: علامة القوم في سفرهم.

(٢) العسب: الضراب والنكاح أو هو ماء الفحل.

(٣) المنيحة: العارية.

(٤) أشظ: أنعظ واشتدّ. والمسد: الحبل. والمغار: الشديد الفتل.

(٥) يبربر: يصوت. والقبقاب: من القبقبة وهي هدير الفحل. والقطار: وصف من القطر أي يسيل.

(٦) الحبال: العهود والذمم.

زُهير يذكر في شعره بني مُرّة وغَطفَان ويمدحهم . وكان زهير في الجاهلية سيّداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع .

قال وحدثني حمّاد الراوية عن سعيد الراوية عن سعيد بن عمرو بن سعيد :

أنه بلغه أن زُهيراً هجا آلَ بيتٍ من كلب من بني عُليم بن جَناب، وكان بلغه عنهم شيء من وراء وراء ، وكان رجل من بني عبد الله بن غطفان أتى بني علَيم ، وأكرموه لمّا نزل بهم وأحسنوا جواره ، وكان رجلاً مولعاً بالقمار فنهوه عنه، فأبى إلّا المقامرةَ . قَمَرَ مرةً فردّوا عليه ، ثم قُمر أُخرى فردّوا عليه ، ثم قُمر الثالثة فلم يردُّوا عليه ، فترحّل عنهم وشكا ما صُنع به إلى زهير ، والعربُ حينئذٍ يتّقون الشعراء اتقاء شديداً . فقال : ما خرجتُ في ليلة ظلماء إلّا خفتُ أن يُصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتُهم . قال والذي هجاهم به قوله :

عفا من آل فاطمةَ الجِواءُ ... فيُمنٌ فالقَوادمُ فالحِساءُ[1]
فذُو هاشٍ[2] فميثُ عُرَيتِنات[3] ... عفَتْها الرِّيحُ بعدَك والسماء
جرتْ سُنُحاً فقلتُ لها أجيزي ... نَوًى مَشمولةً فمتى اللِّقاء
كأنّ أوابِد الثِّيران فيها ... هجائنُ في مغابِنها الطِّلاء
لقد طالبتُها ولكلِّ شيء ... وإن طالت لَجاجتُه انتهاء
وقد أغدو على شربٍ كرامٍ ... نشاوَى واجدين لما نشاء
لهم طاس وراووقٌ ومسكٌ ... تُعَلُّ به جلودُهمُ وماء

(١) الحساء : في بلاد غطفان .

(٢) ذو هاش : موضع في بلاد غطفان .

(٣) عريتنات : اسم واد .

الجِواء: أرض. ويُمنٌ والقوادمُ في بلاد غَطَفان. والمِيثُ: جمع مَيثاء. قال أبو عمرو: إذا كان مَسيل الماء مثل نصف الوادي أو ثُلثيه فهي مَيثاء. والسماء هاهنا: المطر. والسَّانح: ما أقبلَ من شِمالك يريد يمينك. والبارِحُ: ضِدُّه. وقال أبو عُبيدة: سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح فقال: السانح: ما ولّاك ميامِنَه. والبارح: ما ولّاك مشائمه. وأجيزي: أنفُذي: قال الأصمعيّ: يقال أجزتُ الوادي إذا قطعته وخلّفتُه، وجُزتُه: إذا سرتَ فيه فتجاوزتَه. والأوابِدُ: الوحشية. والهجائن: إبلٌ بِيضٌ. والمغابِن: الأرفاغ، واحدها مَغبِنٌ. ومشمولةٌ: سريعة الانكشاف. أخذه من الريح الشَّمال إذا كانت مع السحاب لم يلبث أن يذهب. وجعل مشمولة هاهنا في النوى لأن نيَّتهم كانت سريعة، فأجرى ذلك مَجرى الذَّمِّ، فهذه الشُّنُح.

غنّى في الأول والثاني والسابع مَعبدٌ ثقيلًا أول بالسبّابة في مجرى الوسطى عن إسحاق. وذكر علي بن يحيى أن للغريض فيها خفيفَ ثقيلٍ. وذكر حَبَشٌ أن فيه للهُذَلي ثاني ثقيلٍ بالوسطى. وفي الثالث والرابع مع بيت ليس لزهير أُضيف الى الشعر وهو:

بنفسي مَن تذكُّره سَقامٌ   أعالجه ومطلَبُه عَناء

في هذه الأبيات الثلاثة خفيفُ ثقيل أول بالوسطى في مجراها، ذكر إسحاق أنه للغريض، وغيرُه ينسُبه إلى ابن سُريج وإلى ابن عائشة. وفي الرابع والخامس لعَلّويه رَمَلٌ لا يُشكّ فيه من غِنائه.

وقال ابن الأعرابي حدثني أبو زِياد، وذكر بعضَ هذا الخبر إسحاق الموصلي عن حمّاد الراوية وعن ابن الكلبي عن أبيه قال:

وكان بشامةُ بن الغَدير خالَ زهير بن أبي سُلمى، وكان زهير منقطعاً إليه وكان مُعجباً بشعره. وكان بشامةُ رجلًا مُقعَداً ولم يكن له ولد، وكان مُكثِراً من المال، ومن أجل ذلك نزل إلى هذا البيت في غطفان خُؤولتهم. وكان بَشامةُ

أحزم الناس رأياً ، وكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر ماله . وكان أسعد غطفان في زمانه . فلما حضره الموتُ جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته . فأتاه زهير فقال : يا خالاه لو قسمتَ لي من مالك!! فقال: والله يابن أختي لقد قسمتُ لك أفضلَ ذلك وأجزله . قال : وما هو؟ قال: شعري ورثتنيه . وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعر ، وقد كان أول ما قال . فقال له زهير : الشعر شيء ما قلته فكيف تعتدّ به عليّ؟ فقال بشامةُ : ومن أين جئتَ بهذا الشعر! لعلك ترى أنك جئت به من مُزَينة ، وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحيّ من غطفان ثم لي منهم ، وقد رويته عني . وأحذاه[1] نصيباً من ماله ومات :

بشامة خاله شاعر مجيد وشيء من شعره :

وبشامةُ شاعر مُجيد وهو الذي يقول :

صوت

ألا ترين وقد قطّعتني قِطعاً ماذا من الفوتِ بين البخل والجودِ
إلّا يكن ورقٌ يوماً أراحُ به للخابطين فإني ليّنُ العُود

الغناء لإسحاق ثقيلٌ أول بالبنصر ، وقيل : إنه لإبراهيم .

طلق زوجته أم أوفى ثم ندم فقال شعراً :

قال ابن الأعرابي :

---

(١) أحذاه : أعطاه .

أمُّ أوفى التي ذكرها زُهيرٌ في شعره كانت أمرأته ، فولَدتْ منه أولاداً ماتوا، ثم تزوّج بعد ذلك أمرأةً أخرى ، وهي أمُّ أبنَيه كعب وبُجير ؛ فغارت من ذلك وآذته ، فطلّقها ثم نَدِمَ فقال فيها :

لَعَمرك والخطوبُ مُغَيِّراتٌ — وفي طول المعاشرة التَّقالي
لقد باليتُ مَظعَنَ أمِّ أوفى — ولكن أمُّ أوفى ما تُبالي
فأما إذا نأيتِ فلا تقولي — لذي صِهرٍ أذِلتُ ولم تُذالي [1]
أصبتُ بنيَّ منك ونِلتِ مني — من اللّذات والحُلَلِ العوالي

وقال أبن الأعرابي :

عانت امرأة ابنه سالما فمات فرثاه :

كان لزهير أبنٌ يقال له سالم ، جميل الوجه حسن الشَّعر . فأهدى رجلٌ الى زهير بُردَين [2]، فلبسهما الفتى وركب فرساً له ، فمرَّ بأمرأةٍ من العرب بماء يقال له النُّتاءة [3] ، فقالت : ما رأيتُ كاليوم قطّ رجلاً ولا بُردَين ولا فرساً ، فعثر به الفرسُ فأندقّت عُنُقُه وعُنُقُ الفرس وأنشقّ البردان . فقال زهير يرثيه :

رأتْ رجلاً لاقى من العيش غِبطةً — وأخطأه فيها الأمورُ العظائمُ
وشَبَّ له فيها بَنون وتُوبِعتْ — سلامةُ أعوامٍ له وغنائمُ
فأصبح محبوراً [4] يُنظَر حوله — بغبطته لو أنّ ذلك دائمُ

---

(١) أذال المرأة : هزلها وأهانها .

(٢) البردة : كساء يلتحف به .

(٣) النتاءة : ماء لبني عميلة أو هو ماء لغنى . الحفصى : النتاءة : نخيلات لبني عطارد . ويو النتاءة من أيام العرب .

(٤) المحبور : المنعم .

وعندي من الأيام ما ليس عنده فقلتَ تَعَلَّمْ أنمـا أنت حالمُ [١]
لعلّكَ يوماً أن تُراعي بفاجـعٍ كما راعني يوم النَّتـاءةِ سالم

قال ابن الأعرابيّ :

كان لزهيرٍ في الشعر ما لم يكن لغيره ، وكان أبوه شاعراً ، وخاله شاعراً ، وأختُه سُلمى شاعرةً ، وأبناه كعبٌ وبُجير شاعرين ، وأخته الخنساء شاعرةٌ ، وهي القائلة ترثيه :

وما يُغني تَوَقّي الموتِ شيئاً ولا عَقدُ التَّميم ولا الغَضارُ

— والغضار : كان أحدهم إذا خَشِيَ على نفسه يعلّق في عُنقه خَزَفاً أخضر —

إذا لاقى منيّتَـه فأمسى يُساق به وقد حقّ الحِذارُ
ولاقـاهُ من الأيام يومٌ كما من قَبلُ لم يَخلُد قُدار [٢]

وابنُ ابنه المُضرَّب بن كعب بن زهير شاعرٌ ، وهو القائل :

إني لأحبِسُ نفسي وهي صاديةٌ عن مُصعَبٍ ولقد بانت ليَ الطُّرُقُ
رُعوَى عليه كما أرعى على هَرِمٍ جَدّي زهيرٌ وفينا ذلك الخُلُق
مَدحُ الملوك وسَعيٌ في مَسرّتِهم ثم الغنى ويـدُ الممدوح تنطلق

أخبرني أبو خليفة عن محمد بن سَلّام قال :

مَن قَدّم زهيراً احتجّ بأنه كان أحسنهم شعراً ، وأبعـدَهم من سُخفٍ ، وأجمعهم لكثيرٍ من المعاني في قليلٍ من الألفاظ ، وأشدّهم مبالغةً في المدح ، وأكثرَهم أمثالاً في شعره .

---

(١) يخاطب ابنه . يقول : ما أنت فيه من السرور والشباب بمنزلة الحلم .

(٢) قدار : هو قدار بن سالف عاقر الناقة .

مرثية ابنه سالم :

أخبرني الحسين بن يحيى عن حمّاد عن أبيه عن الأصمعيّ قال :

كان لزهير ابنٌ يقال له سالم ، وكان من أمّ كعب بن زهير ؛ فمات أو قُتل ، فجزع عليه كعب جزعاً شديداً ، فلامته امرأته وقالت : كأنه لم يُصَبْ غيرُك من الناس ! فقال :

رأتْ رجلًا لاقى من العيش غبطةً ... وأخطأه فيها الأمورُ العظائمُ
وَشَبَّ له فيها بَنونَ وتُوبعتْ ... سلامةُ أعوامٍ له وغنائمُ
فأصبح محبوراً ينظِّر حوله ... بغبطته لو أنّ ذلك دائم
وعندي من الأيام ما ليس عنده ... فقلت له مهلًا فإنك حالم
لعلّك يوماً أن تُراعي بفاجعٍ ... كما راعني يوم النّتاءةِ سالم

* * *

صوت

عَزَفتَ ولم تَصرِمِ وأنت صَرومُ ... وكيف تَصابي مَن يقال حليمُ
صَدَدتَ فأطوَلتَ الصدودَ ولا أرى ... وِصالًا على طول الصّدود يدوم

عَروضُه من الطويل . عزفت عن الشيء : اذ تركته وأبته نفسك . قال ابن الأعرابيّ : يقول لم تَصرِمِ صُرمَ بَتات ؛ ولكن صَرمتَ صُرمَ دَلال . وأطوَلتَ الصدودَ أي أطلته . وإنما قال هذا ضرورةً . الشعر للمرّار بن سَعيد الفَقْعَسِيّ . والغناء لإسحاق رَمَل .

ذكر المرار وخبره ونسبه

نسبه وكان قصيراً ضئيل الجسم :

هو المَرّار بن سَعيد بن حبيب بن خالد بن نَضلة بن الأشيم بن جَحوان بن فَقعَس بن طَريف بن عمرو بن قُعَين بن الحارث بن ثَعلبة بن دُودان بن أسد ابن خُزَيمة بن مُدركة بن الياس بن مُضَر بن نِزار . وأمُّ المَرّار بنتُ مَروان ابن مُنقِذ الذي أغار على بني عامر بثَهلان[1] فقتل منهم مائةً بحبيب بن مُنقِذ عمِّه ، وكانوا قتلوه .

وكان المَرّار قصيراً مُفرِطَ القِصَرِ ضئيلَ الجسم . وفي ذلك يقول :

عَدُّونِيَ الثعلبَ عند العَدَدِ حتى استثاروا بِيَ إحدى الإِحَدِ[2]
لَيثاً هِزَبراً ذا سلاحٍ مُعتَدي يَرمي بطَرْفٍ كالحريق المُوقَد

كان يهاجي المساور بن هند :

وكان يُهاجي المُساور بن هند بن قيس بن زهير بن جَذيمةَ العَبسيّ . وفيه يقول المَرّار :

شَقِيَتْ بنو سَعدٍ بشِعرِ مُساورٍ إنّ الشقيَّ بكلّ حبلٍ يُخنَقُ

والمُساور القائل فيه :

---

(١) ثهلان : جبل ضخم بالعالية عن أبي عبيدة .

(٢) إحدى الاحد : الأمر المنكر الكبير .

ما سرّني أنّ أمي من بني أسدٍ وأنّ ربيَ يُنجيني من النارِ
أو أنهم زوّجوني من بناتهمُ وأنّ لي كلّ يومٍ ألفَ دينارِ

والمرّار من مُخضرَمي الدولتين . وقد قيل : إنّه لم يُدرك الدولة العبّاسيّة .

وقال هذه القصيدة وهو محبوس . ذكر محمد بن حبيب عن ابن الأعرابيّ عن المُفضّل والكوفيّين :

أنّ المرّار بن سعيد كان أتى حُصَين بن بَرّاق من بني عَبس ، فوقف على بيوتهم فجعل يحدّث نساءهم ويُنشدهنّ الشعرَ . فنظروا اليه وهم مجتمعون على الماء فظنّوا أنه يَعِظُهنّ . ثم انصرف من عند النساء حتى وقف على الرجال . فقال له بعضهم : أنت يا مرّارُ تقفُ على أبياتنا وتُنشد النساء الشعر ! فقال : إنّما كنتُ أسألهن . فجرى بينه وبينهم كلامٌ غليظ ، فوثبوا عليه وضربوه وعقروا بعيره ؛ فانصرف من عندهم الى بني فَقعَس فأخبرهم الخبرَ ، فركبوا معه حتى أتوا بني عَبس فقاتلوهم فهزموهم ، وفقأت بنو فَقعَس من بني عَبس عيناً وقتلوا رجلاً ثم انصرفوا . فحمل أبو شدّاد النّصريّ لبني عَبس مائتي بعيرٍ وغلّظوا عليهم في الدّية . ثم ان بدر بن سعيد أخا المرّار قال : قد استوفت عَبسٌ حقّها ، فعلامَ أترك ضربَ أخي وعَقرَ جمله ! فخرج حتى أتى جِمالًا لبني عَبس في المَرعى فرمى بعضها فعقرها ثم انصرف . فقال للمرّار : إنه والله ما يُقنَعُ بهذا ولكن اخرُج بنا . فخرجا حتى أغارا على إبلٍ لبني عَبس فطرداها وتوجها بها نحوَ تَيماء[1] . فلمّا كانا في بعض الطريق انقطع بطانُ راحلة بدر فندر[2] عن رحله . فقال له المرّار : يا أخي أطِعني وانصرف ودَعْ هذه الإبل في النار ، فأبى عليه . ثم سارا ، فلمّا كانا في بعض الطريق عرض لهما ظبيٌ أعضبُ[3] أحدِ القرنين . فقال المرّار لبدر : قد تطيّرتُ من هذا السفر ،

---

(١) تيماء : بليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق .

(٢) ندر عن رحله : سقط .

(٣) الأعضب : المكسور .

ولا والله ما نرجع من هذا السفر أبداً، فأبى عليه بدرٌ. فتفرّقت عَبسٌ فِرقتين في طلب الإبل، فعمدت فرقةٌ الى وادي القُرى[١]، وفرقةٌ الى تَيماء؛ فصادفوا الإبل بتَيماء تُباع، فأخذوا المرّار وبَدراً فرفعوهما الى الوالي. وعُرفت سِماتُ عَبسٍ على الإبل فدُفعتْ اليهم، ورُفع المرّار وأخوه الى المدينة فضُربا وحُبِسا، فمات بدرٌ في الحبس. فكلّمتْ عِدّةٌ من قريش زيادَ بن عبد الله النّصريَّ في المرّار فخلّاه. وقال في حبسه:

صَرَمتَ ولم تَصرِم وأنتَ صَرومُ

وهي طويلة.

مات أخوه بدر في الحبس فرثاه:

وقال يرثي أخاه بدراً:

أَلا يا لَقومي للتَّجلُّدِ والصبرِ ... وللقَدَرِ السّاري اليك وما تَدري
وللشيء تَنساه وتذكُرُ غيرَه ... وللشيء لا تَنساه إلّا على ذُكرِ
وما لكما بالغيب عِلمٌ فتُخبِرا ... وما لكما في أمرِ عثمانَ من أمرِ

وهي طويلة، يقول فيها:

أَلا قاتلَ اللهُ المقاديرَ والمُنى ... وطيراً جَرَتْ بين السُّعافات والحِبرِ[٢]
وقاتلَ تكذيبي العِيافةَ بعد ما ... زجرتُ فما أغنى آعتيافي ولا زَجري
تَرَوَّحْ فقد طال الثَّواء وقُضِّيَتْ ... مَشاريطُ كانت نحوَ غايتها تَجري

— المشاريط: العلامات والأمارات —

---

(١) وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى.

(٢) الحبر: اسم واد.

وما لقُفُولٍ بعد بدرٍ بشاشةٌ ... ولا الحيِّ آتيهم ولا أوبةِ السَّفرِ
تُذكِّرني بدراً زعازعُ جَجرةٍ ... اذا عَصَفَتْ إحدى عَشِيَّاتها الغُبرِ

— الزعازعُ : الشديدةُ الهبوب . والَجحرة : السنة الشديدة —

إذا شَولُنا[١] لم نُوتَ منها بمحلَبٍ ... قِرَى الضَّيفَ منها بالمهنَّد ذي الأثرِ
وأضيافُنا إن نبَّهونا ذكرُته ... فكيف إذاً أنساه غابرةَ الدهر
اذا سَلَّم السَّاري تهلَّلَ وجهُه ... على كل حالٍ من يَسارٍ ومن عُسر
تذكَّرتُ بدراً بعد ما قيل عارفٌ[٢] ... لما نابَه يا لهفَ نفسي على بدر
إذا خطرتْ منه على النفس خَطرةٌ ... مَرَتْ[٣] دمعَ عيني فاستهلَّ على نَحري
وما كنتُ بَكَّاءً ولكن يَهيجُ لي ... على ذِكره طيبُ الخلائق والخُبرِ
أعينيَّ إني شاكرٌ ما فعلتما ... وحقٌّ لما أبليتُمانيَ بالشكر
سألتُكما أن تُسعِداني فجُدتُما ... عَوانَينِ[٤] بالتَّسجام باقِيَتيْ قَطر
فلمَّا شفاني اليأسُ عنه بسَلوةٍ ... وأعذرتُما لا بل أجلُّ من العذر
نَهَيتُكما أن تُسهراني فكنتما ... صَبُورَينِ بعد اليأس طاوِيَتيْ غُبر

يقول : طويتما أغبارَ دمعكما . والأغبار : البقايا كأغبار اللبن .

خرج حاجاً وأضافه قرشيٌّ بالأبطح :

أخبرني الحُسَين بن يحيى عن حمّاد عن أبيه قال حدثني رجل عن واصل بن زكريا بن المرّار أن المرّار قال :

---

(١) الشول : جمع شائلة ، وهي من الإبل ما أتى عليها من وضعها او حملها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وخف لبنها . والمحلب : إناء يحلب فيه . والأثر : فرند السيف ورونقه .

(٢) عرف للأمر : صبر .

(٣) مرت دمع عيني : أرسلته وأسبلته . واستهل : سال .

(٤) العوان : النصف في سنها من كل شيء . والحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد أخرى ، كأنهم جعلوا الأولى بكراً .

خرجتُ حاجاً فأنختُ بناحية الأبطح ، فجاء قوم فنحَّوني عن موضعي وضربوا فيه قُبَّةً لرجل من قُرَيش . فلما جاء وجلس أتيته فقلتُ :

هذا قَعودي بارِكاً بالأبطحِ   عليه عِكْماً[1] أكمُرٍ[2] لم تُفتحِ

فقال : وما قصَّتك ؟ فأخبرتُه . فقال : والله لا تفتحُ منهما شيئاً حتى تنصرفَ ، فأَقِمْ معنا ، يدُك مع أيدينا ، وقَعودُك مع أباعِرنا . فوالله ما فتحتُ العِدلَين حتى انصرفتُ بهما الى أهلي . فما هجاني أحد قطُّ هجاءه .

حبس هو وأخوه بدر، وشعره في الحبس :

أخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال حدثنا أبو غسّان دَماذ عن أبي عُبيدة قال أخبرني أبو مَوهَبٍ رُتَيلٌ الزُّبيريّ أحدُ بَني زُبَير بن عمرو بن قُعَين قال :

كان المرّار بن سعيد وأخوه بدرٌ لِصَّين ، وكان بدرٌ أشهرَ منه بالسرقة وأكثرَ غاراتٍ على الناس . فأغار بدر على ذَودٍ لبعض بني غَنم بن دُودان فطردها، فأُخذ ورُفِع الى عثمانَ بن حَيّانَ المُرّي ، وهو يومئذٍ على المدينة فحبسه . وطرد المرّارُ طريدةً فأُخذ معها وهو يبيعها بوادي القُرى أو بِبِرْمَة[3] ، فرُفِع الى عثمانَ ابن حَيّان فحبسه . قال : فاجتمعا ومكثا في السجن مدةً ؛ ثم أفلَت المرّارُ وبقيَ بدرٌ في السجن حتى مات محبوساً مقيَّداً . فقال المرّار وهو في الحبس :

أنارٌ بَدَتْ من كُوّةِ السجن ضوءها   عشيّةَ حلَّ الحيُّ بالجرَعِ[4] العُفرِ

---

(١) العكم : العدل وهو الغرارة .

(٢) أكمر : جمع كمر . والكمر من البسر : ما لم يرطب على نخله ولكنه سقط فأرطب على الارض .

(٣) برمة : عرض من أعراض المدينة بين خيبر ووادي القرى .

(٤) الجرع : جمع جرعة بالتحريك أيضاً وهي هنا الرملة العذاة الطيبة التي لا وعوثة فيها .

عَشيَّةَ حَلَّ الحيُّ أرضاً خَصيبةً يَطيبُ بها مَسُّ الجنائبِ[1] والقَطرِ
فياويلتا سجن اليمامة أطلقا أسيركما يَنظُر الى البرق ما يَفري[2]
فإن تفعلا أَحمدْكما ولقد أرَى بأنكما لا ينبغي لكما شكري
ولو فارقتْ رجلي القيودُ وجدتُني رفيقاً بنَصِّ العيسِ[3] في البلد القَفْر
جديراً اذا أمسي بأرضٍ مَضَلَّةٍ[4] بتقويمها حتى يُرَى وَضَحُ الفجر

وقال أبو عمرو الشَّيبانيّ:

كان بين المرّار بن سعيد وبين رجل من قومه لحاء، فتقاذفا وتسابّا، ثم صارا الى الضرب بالعصا؛ فقال في ذلك:

صوت

أَلم تَربَعْ فتُخبِرَكَ المَغاني فكيف وهُنَّ مُذْ حِجَجٍ ثَمانِ
بَرِئتُ من المنازلِ غيرَ شَوقٍ الى الدارِ التي بِلِوَى أَبانِ[5]

لإسحاقَ في هذين البيتين هزجٌ بالخنصر في مجرى البنصر من كتاب ابن المكّيّ.

كان أخوه بدر شاعراً، وشيء من شعره:

وكان بدر بن سعيد أخو المرّار شاعراً وهو الذي يقول:

---

(١) الجنائب: جمع جنوب وهي الريح التي تقابل الشمال.

(٢) يفري: يشق؛ والبرق يشق الظلام.

(٣) نص العيس: استحثاثها واستقصاء آخر ما عندها من السير.

(٤) أرض مضلة: يضل فيها الطريق.

(٥) أبان: موضعين هما أبان الأبيض وأبان الأسود. فالأبيض شرقي الحاجر فيه نخل وماء وهو لبني فزارة وعبس. والأسود: جبل لبني فزارة خاصة، وبينه وبين الابيض ميلان.

صوت

يا حبَّذا حين تمسي الريح باردةً وادي أُشيٍّ[1] وفتيانٌ به هُضُمُ[2]
مُخَدَّمونَ كِرامٌ في مجالسهم وفي الرِّحال اذا لاقيتَهم خَدَمُ
وما أُصاحِبُ من قوم فأذكرهم إلَّا يَزيدُهُمُ حُبًّا إليَّ هُمُ

الغناء لابن محرزٍ ثاني ثقيل بالخنصر والبنصر عن ابن المكيّ . وفيه لمتيَّم خفيفُ رمَل . وذكر حَبشٌ ، أن الثقيل للهُذَليّ . وفيه لمحمد بن الحارث بن بُسخُنَّر ثقيلٌ أولٌ عن الهشاميّ .

* * *

صوت ابن صاحب الوضوء في شعر النابغة :

صوت

خَطاطيفُ حُجنٌ في حِبالٍ مَتينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ اليكَ نَوازعُ
فإن كنتَ لاذا الضِّغنِ عنّي مكذّبًا ولا حلِفي عند البراءةِ نافع
فانك كالليل الذي هو مُدركي وإن خِلتُ أن المُنتأى عنك واسع

عروضه من الطويل . يقول : أنا في قبضتك متى شئتَ قدرتَ عليّ كأني في خطاطيفَ تجذُبني اليك ولا أقدِر على الهرَبِ منك . ويُروى « وإن خلتُ أن المُنتوَى » أي الموضع الذي انتوي قصدَه . والمُنتأى : المُفتعل من النأي . والحُجن : المُعوجّةُ . والنوازع : الجواذِب . والضِّغن : الحقد .

الشعر للنابغة الذُّبيانيّ . والغناء لابن صاحب الوضوء من رواية إسحاق وعمرو ماخوريٌّ بالبنصر .

---

(١) أشي : موضع بالوشم . والوشم : واد باليمامة .

(٢) هضم : جمع هضوم . وفتيان هضم : يهضمون المال أي يكسرونه وينفقونه .

فهرس

المجلد العاشر من كتاب الأغاني

اخبار عبد الله بن المعتز

نسب زهير واخباره

ذكر المرّار وخبره ونسبه

التراجم التي في هذا المجلد